

# أدب الرحلات

الدكتور

عثمان قدرى مكانسي



## بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

### بين يدي الكتاب

قالوا : إذا أحب الله عبداً أراه ملكه.

وقالوا : اغترب تتجددُ

لقد كانت حياتنا ترحالاً دائماً ، نزور بلاد الله - مشرقها ومغربها - سياحة أو عملاً أو دعوة.

وقلّ أن تمرّ سنتان من حياتنا دون أن نساfer إلى بلد جديد أو نجدد السفر إلى بلد عرفناه.

وكل بلاد الله جميل. ولكن لا يعدل جمال الوطن الذي حُرمننا منه مدة تزيد على ثلث قرن جمال .

قصَدنا الجزائر والإمارات وأمريكا للعمل ،

وزرنا فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وتركيا واليمن ومصر ، وغيرها سياحة .

وعشنا في الأردن فترة ثم استقر مقامنا فيها.

وزرنا باكستان وأذربيجان لإكمال الدراسات العليا..

وكانت البلاد المقدسة في الحجاز مهوى قلبينا نعتمر أو نرحل في طريقنا إلى الأردن في معظم العطلات الصيفية أو في عودتنا إلى الإمارات . فهل كانت الزيارات الأخرى خالية من الدعوة إلى الله؟! .. إن الداعية الذي نذر نفسه لدين الله - ونرجو أن نكون كذلك ، ولا نزكي أنفسنا - يستطيع أن يجد لدعوته مكاناً في كل بلد يحط فيه رحاله ، ولو كان سائحاً أو

مستجماً.

إن هذه الرحلات ما كانت لتذكر لولا أن هيأ الله لها قلم أديب يصور معاناة صاحبه ويرسم المواقف الطريفة ويلقي الضوء على بعض أخلاق الشعوب وعاداتها.  
أدب الرحلات أدب قديم متجدد . لكنّ الجديد في هذا الكتاب اختلافه عما ألف القراء من تسجيل وصف جغرافي للبلدان، فليست تلك مهمة الأديب.  
إنها خواطر ساقها صاحبها يعبر بصدق عن عواطف ذاتية ومشاهدات حيّة عاشها بنفسه وأحب أن يقدمها إلى القارئ ، فلعلّ في بعضها عبراً وعظاتٍ ، وفائدة وذكرى.

إلهام محمد صبري بيّره جكلي

---

---

## رحلة إلى الجزائر ( ١ )

---

---

### الوصول إلى الجزائر

أول خروج من بلدي سورية كان في العشرين من أيلول عام ثمانية وسبعين وتسع مئة وألف إلى الجزائر الشقيقة مدرساً للغة العربية .

ذهبت إليها وزوجتي -وهي مدرّسة للغة العربية كذلك وقد تخرجنا معاً عام سبعين من جامعة حلب- معارين لسنوات أربع كما جرت العادة إلا أننا مكثنا هناك سنتين فقط.

وحطّت الطائرة بنا في مطار الجزائر العاصمة ليستقبلنا هناك مندوبون عن وزارة التربية كانوا من اللطافة بمكان، والإخوة الجزائريون على ما عرف عنهم من شدة وبأس يجنون الضيف، ويحاولون إكرامه ما استطاعوا، وقد عشنا السنتين بينهم طيبة مباركة أيامهما، وعاطفتهم جيّاشة حسب الموقف، فمع العدو لا يهابون الموت -فهم أبناء ثورة المليون شهيد ونصف المليون- ومع الأخ والصديق غاية في الذوق والأدب .

نقلنا إلى مدرسة أعدت بشكل مقبول لراحة الوافدين، من الأقطار العربية ومن ثم يوزعون إلى الولايات الجزائرية، وقد كان كل منّا يعرف المدينة أو الولاية التي سيتوجه إليها للعمل فيها، وكان نصينا مدينة "كولومب بشار" في الجنوب الغربي من الجزائر على الحدود المغربية .

بقينا في العاصمة ثلاثة أيام طفنا فيها الشوارع والأماكن العامة، وزرنا الأماكن الأثرية فيها، وتمتعنا بالنظر إلى أبنيتها التي مزجت بين القديم والجديد، والطرز العربي والأوربي، نطل عليها من أعلى منطقة في المدينة، فقد كانت قائمة على مرتفعات تهبط تدريجياً نحو البحر، وكانت مياه الأمطار الوافرة تغسل المنازل والشوارع فتبدو نظيفة أنيقة، فإذا ما أشرفت الشمس

انعكس ضوءها على الحدائق والمنتزهات -وهي كثيرة- فارتد شعاعها شمساً ثانية تبهر العيون، وتبهج النفوس .

لم يكن الطعام الذي قدّم إلينا وهو مغربي -نسبة إلى بلاد المغرب العربي كلها- مطعمً بالمطبخ الغربي الفرنسي على الأخص، مما يناسب المشرقيين أمثالنا ممن لم يعرفوا إلا النوع العربي والسوري خاصة، فنحن لم يتسنّ لنا الخروج من بلدنا قبل الجزائر، فلا نستطيع سواه، إلا أننا بعد الزيارات المتنوعة، لغالب البلدان، ومخالطة الأمم كلها تقريباً من الشرق الهندي إلى الغرب الأوربي، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، اعتدنا أن نأكل ما يُقدّم إلينا مطبوخاً كان أم مشويماً أم مقلياً أم نيئاً، على أن يكون حلالاً يرضي الله تعالى في نوعه وطريقة صنعه ..

لم يكن الطعام أغلبه كما ذكرتُ مستطاباً فنزلنا بنحوب الشوارع القريبة من مكان إقامتنا نبحت عن مطعم شرقي نجد فيه ضالتنا، فلم نجد بغيتنا لأمرين اثنين أولهما: أن المطاعم لا تفتح سوى أربع ساعات في اليوم فقط، بين الثانية عشرة والثانية ظهراً لوجبة الغداء، وبين السادسة والثامنة مساءً لوجبة العشاء، أما في بلادنا فهي مشرعة الأبواب ليلاً ونهاراً تستقبل الزبائن في كل حين وآن .

أما طعام الفطور ففي المقاهي حيث لا تجد سوى أنواع الكاتو -وهي كثيرة ومتنوعة- مع كأس من القهوة، أو الشاي الأخضر، فهم لا يعرفون غيره، ولا يسألك أحدهم: أتفطر؟ إنما يقول لك: "أتقهوى"؟

ثانيهما: أن الوجبات قليلة بل قل معدودة، فلا نصيب للمتأخر، إضافة إلى أنها أنواع قليلة متكررة، فطعام الظهر غير طعام المساء، على العكس من مطاعم المشرق العربي التي تعصّ بأنواع المأكولات، ويجتهد أصحابها في تلوين المأكولات وكثرة الوجبات .

دخلنا مطعماً نسأله عن الفول والحمصّ والفلافل، فابتسم صاحبه معتذراً وسألناه عن الأرز واللحم وعن الملوخية وشورية الخضار، وعن.. فكان يجيبنا بأدب جم: لا نعرف ما تذكرونه ويذكر نوعين أو ثلاثة عنده فقط .

فعلنا هذا في عدة مطاعم فلم نحظ بطائل، عدنا أدراجنا مصدومين نريد المدرسة علّنا نجد بقايا ما أكله المدرسون أمثالنا هنا، فنادانا صاحب أحد المطاعم التي دخلناها قائلاً :  
-يامكانكما أن تشتريا ما تريدان من البقالة المجاورة وتطبخاه هنا .

سررنا بهذا العرض، فهو يدل على أخلاق رفيعة تدل على أن الرجل أحسّ بما نعانيه ، فأراد مساعدتنا والتخفيف عنا، ففعلنا ذلك شاكرين له عرضَه اللطيف ، وكانت زوجتي، وما تزال طباحة ماهرة، فصنعت عدداً من الوجبات الشرقية مما تيسّر لنا شراؤه .  
وكان الرجل يتذوّق ما تصنعه ويظهر إعجابه، وسألها أن يتعلّم صنع ذلك.. وقد رأيناه بعد ذلك يقدّم لزبائنه ما تعلّمه منها .

وأردنا أن نركب سيارة أجرة فتقدّمنا من سائقها وسألناه أن يوصلنا إلى شارع عبد القادر الجزائري وهو في منتصف المدينة، فأجابنا "ما نيش خدّام" وصدّمتنا من جوابه الذي ظنناه لجهلنا باللهجة الجزائرية خروجاً عن اللياقة، واعتبرناه سوء أدب!! فمن قال إنه خدّام؟ إننا لم نتعال عليه حتى يجيبنا هكذا!! وابتعدنا عنه ممتعضين لنستقل سيارة أخرى رحّب بنا صاحبها، فاجترأنا على الاستفسار منه عما قاله الآخر، فضحك الثاني، وضحكنا كذلك نحن حين علمنا أنه يعتذر لأنه كان مشغولاً لا يستطيع خدمتنا أو إيصالنا إلى هدفنا ، ولم نستطع التفاهم مع الإخوة الجزائريين إلا باللغة العربية، فقد كانت لهجاتنا مختلفة كثيراً ، فالاستعمار الفرنسي حاول على مدى مئة وثلاثين سنة محو القرآن ولغته، واكتسبوا هم الكثير من المفردات

الفرنسية .

ابتدأني أحدهم قائلاً: "وشراك" فلم أحبه فاستدرك قائلاً: كيف حالك؟ وهي بمعنى "أي شيء وراءك؟" وكما تقول بلهجة بلاد الشام "شلونك" ولهجة مصر "ازيك" أو "عامل إيه" والمغرب "كداير".

لغة القرآن كانت الطريقة الوحيدة - في بداية حياتنا في الجزائر- للتفاهم إلى أن مرّت شهور فتأقلمنا مع لهجتهم إلا أننا منذ اللحظات الأولى أحببناهم فقد كانوا في مجملهم عاطفيين يحبون الغرباء ويكرمونهم .

ولئن كان البعد الجغرافي والثقافي سبباً في تعذّر الفهم الكامل لبعض الجمل المحلية في الجزائر، إنّ هذا أمر عادي، لا غرابة فيه، لكنّ الغرابة أن يظنّ المشرقيّ السوء في لفظ قرآني يتداوله الصغير والكبير، فقد اعتاد أحد السوريين من القرداحة أن يحمل معه أحد الإخوة المصريين إلى المدرسة التي يعملان فيها، فكان هذا الرجل كلما ركب السيارة قال: "سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون" وهو الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا ركب دابته، فجاءني صاحب السيارة يشكو المصريّ سوء أدبه ويعلن أنه لن يحمله فقد كرّر الإساءة وأصرّ عليها حين كرّر هذا الدعاء!.. فقد فهم صاحبنا أن كلمة "سخّر" تدل على السخرية والاحتقار من صاحب السيارة على الرغم من أنه يساعده ويخدمه حين يحمله معه إلى المدرسة !!..

فقلت له: معك الحق لا ينبغي للدابة إلا أن تكون دابة، ولا أدري أفهم مقولتي أم لم

يفهمها ...



## بجاية

حطّت بنا الطائرة في مدينة " بيشار " الصحراوية مصدر الطاقة البترولية والغازية التي تنازعت الدولتان الجارتان عليها بعد خروج الفرنسيين من الجزائر وجرت فيها معارك طاحنة بين الطرفين كلٌّ منهما -المغرب والجزائر- تريد الحفاظ بها للاستثمار بالذهب الأسود، فظلت من نصيب الجزائر .

كانت أبنيتها إلا القليل على الطراز الصحراوي، أحجارها لَبِنٌ صفراء تميل إلى البرتقالي أحياناً وإلى البنيّ أحيان، وشوارعها في الغالب مسفلت وفيها الرملي المرصوص، هواؤها نقي والرؤية فيها واضحة والجو في النهار حارٌ وفي الليل معتدل، تتوزع فيها بعض الحدائق التي تشرف عليها بلدية المدينة فكأنها جزر خضراء في بحر أصفر ، والحياة فيها أقرب إلى الهدوء .

إلا أن عاصفة رملية شديدة لم نر مثلها من قبل اجتاحت المدينة الصغيرة فأحسنا بضيق التنفس ولزمتنا كآبة غيّرت رأينا في العمل فيها، وكنا قد قصدنا حين وصولنا إدارة المنطقة التربوية ووضعنا أنفسنا تحت تصرفها، وكان أثر العاصفة أشدّ على زوجتي فقد استأصلت إحدى كُليتيها في حلب قبل سفرنا بأشهر قليلة، وبدا الإعياء عليها، فأثرنا العودة إلى العاصمة على الرغم من تشجيع بعض من تعرفنا عليهم، وكان أحدهم طبيباً من حلب من آل "النعال" حملنا في سيارته وطاف بنا شوارع المدينة ومعالمها ومثي نفسه بالأكل الشامي وخاصة الحلبي بأنواعه المشهورة من الكبة إلى اللحم بالعجين إلى ما لذّ وطاب فهو عازب هوايته إلى جانب الطبّ تناول الأطايب .

عدنا أدرجنا بعد أيام قليلة فتفهم المسؤولون الأمر بأريحية وعرضوا علينا إحدى المدن الساحلية، فاخترنا بجاية شرق العاصمة على بُعد مئتين وخمسين كيلو متر منها ..

ركبنا هذه المرة الباص فوصلنا إليها بعد خمس ساعات تنقص قليلاً.. كانت الطريق متعرجة كثيراً على يمينها وديان خضراء تشرح النفس وتسرُّ خاطر، يخترقها نهر هادئ يملأ الأرض حياة وخصباً ونماء، وعلى يسارها جبال شامخة تكسوها الأشجار الخضراء، وتمتد فيها مساطب المزارع، يتخللها القرى المتصلة، والبيوت المتناثرة، ولا أزال أذكر بلدتي "سيدي عيش" و"أقبو" وغيرهما من القرى والديساكر والبساط السندسي الذي ما انفك يصاحبنا في سفرنا فيبعث البهجة والسعادة، وكثيراً ما كانت الأشجار على الجانبين تلتقي فتظلل الطريق كأنه نفق وتسمح لأشعة الشمس أن تصافح وجوهنا وأيادينا فتذكرنا بقول المتنبي في شعب بوان :

وألقى الشرق منها في ثيابي      دنانيراً تفزُّ من البنان

قالت زوجتي :

- إن لم تكن هذه الجنة بعينها فهي جزء منها، مناظرٌ خلابة ونهرٌ جار، وأشجار رائعة، ووديانٌ خضراء وجبال سامقة، وهواءٌ نقي... رحم الله الشاعر الأندلسي الذي نطق لسانه ما قالته أفكارنا :

يا أهل أندلس لله دَرِّكم      ماءً وظلٌّ وأشجار وأنهارٌ

ماجنة الخلد إلا في دياركم      ولو تُخَيَّرت هذا كنت أختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً      فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

فكانت الجزائر كالأندلس جمالاً وروعةً

وصلنا إلى المدينة عصرًا فإذا بها درّة المنطقة، وقلبُ المدن والقرى حولها، بنيت على تلة كبيرة، فطرفها صاعدة نازلة، وأبنيتها بين الصغيرة والوسط، جوّها لطيف، ومنظرها ظريف، ودربها نظيف، يحوطها البحر من أطرافها الثلاثة، ويتوغل في جنوبها الشرقي فيؤلف خليجها

المسمى باسمها "خليج بجاية" فترى فيه الميناء الصغير، ومحطة القطار، وبعض الأبنية الحكومية، وغيرها. ذهلت قلبينا قبل أن ندخل ساحتها، وسكنت فؤادينا قبل أن نسكنها .

توجهنا إلى الإدارة التعليمية هناك فكان استقبالهم لنا يدل على ذوق وأدب، وسرعان ما استلمنا مفتاح شقة غربيّ المدينة ضمن مجموعة من الأبنية التي أنشأتها البلدية وسمّتها منطقة "الشقق الألف" وكانوا ينطقونها بالإفريقية "ميل لوجما" يصل إليها باص واحد كل ساعة فيحمل من الموظفين والعاملين الحكوميين إلى أعمالهم في دوائرهم من لا يملك سيارة، وقد كانت زوجتي في الأشهر الأربعة الأولى من حياتنا هناك تركب الباص الوحيد بعد أداء صلاة الفجر مباشرة لتصل إلى مدرستها في وسط المدينة في ثانوية ابن سينا دون تأخر، وكنت أرافقها إلى موقف الباص لأطمئن عليها فالظلمة الحالكة وتطرف البيت والغربة والخوف النّسويّ يستدعي ذلك لأعود بعدها إلى البيت فأرتبه، ثم أنطلق إلى ثانوية الحمّادية مشياً على الأقدام فهي لا تبعد أكثر من عشرين دقيقة .

أهل المدينة وما حولها من القبائل البربرية الصغرى، يمتازون بالتدين الفطري - على الرغم من أنهم في حياتهم الاجتماعية يخضعون في الغالب لعاداتهم وأعرافهم- ويمتازون كذلك بالأخلاق الحميدة من رجولة واعتزاز ونخوة. أما الأمانة فحدّث ولا حرج، فقد ينسى أحدهم زجاج سيارته مفتوحاً ساعات طويلة ثم يعود إليها مطمئن البال فيجدها كما تركها، لكنك لا تجد هذا حين تكون في غيرها من المدن الداخلية الواقعة جنوبها، فهناك لا تأمن على سيارتك ولا على جيبك بلّة نفسك ..

يجبون الغريب عربياً كان أم غريباً، لكنّ عقدة الخواجة واضحة كثيراً في تصرفاتهم، وهذا دأب غالب القوم لوجود المستعمر الفرنسي مدة طويلة في بلادهم، وترى هذا ينطبق على دول

الخليج فقد لبثتُ في دولة الإمارات ستة عشر عاماً ولمست هذا بشكل واضح .

أما حديثهم فهو باللغة الأمازيغية أولاً، واللغة الفرنسية ثانياً، والمغلوب دائماً يقلد غالبه، ويستعملون العربية مع العربي، وأقصد بذلك اللهجة الجزائرية العامية، وقليلاً ما كنا نفهمها، أما الطلاب في المدرسة فلغتهم العربية رائعة ومستواهم فيها ممتاز، وخطوهم فيها قليل وهذا يدل على مستوى الذكاء المرتفع والفهم الواسع.. فأن ترى أمازيغياً يتحدث العربية الصحيحة بطلاقة، وهي الثالثة من حيث الترتيب في الأهمية.. شيء رائع ..

والشيء اللافت للنظر مدرّس اللغة العربية هو مدرّس المادة الدينية من فقه وتفسير وتلاوة وأحكام، وتصوّر أن على مدرس اللغة العربية النصراني أن يدرّس الدين الإسلامي، وهذا ينطبق على القومي والشيوعي والملحد.. وهذا ليس عن تهاون وإهمال للدين إنما القوم لا يتصورون أن يكون العربي غير مسلم.. وأن يكون مدرّس اللغة العربية غير ملتزم بدينه ..

أما الاشتراكية التي يشربونها مع الحليب كل يوم ويأكلونها مع الخبز كل صباح ومساءً، وهذا بين عامي ١٩٧٨ - ١٩٨٠ حين كنت مدرّساً هناك، فسرعان ما تتهاوى أمام العقيدة السليمة والفترة الإيمانية الأصيلة على أن يكون المدرس الداعية أهلاً لذلك، ولا أدعي هذا فالتزكية من الله تعالى "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" ففي السنة الثانية من تدريسي يأتيني أحد تلامذتي في السنة السابقة يطلب إليّ أن أسأل مدير المدرسة أن يخصص للتلاميذ غرفة يصلون فيها، فأسأله :

-أما زلتم تصلّون يا ولدي؟

فيقول معاتباً بأدب ولطف :

-ثلاثة وعشرون طالباً من أربعة وعشرين محافظون على الصلاة يا أستاذ.. منذ أن

علمتنا الصلاة وفقهتنا الدين، وهل يترك الإنسان دينه يا أستاذي بعد أن عرف أن الصلاة عماد الدين؟!..!

سجد قلبي لله فرحاً بذلك وحمداً لله تعالى .

وإذ كانت الثقة تزداد رسوخاً مع المجتمع من حولي طلب إليّ أن أُدرّس التفسير في المسجد الجامع في بجاية، وكانت تجربة ناجحة، إذ نظرت حولي فوجدت الحجاب يكاد في ذلك الزمن يكون معدوماً فليس في الجزائر يوماً امرأة تتحجب الحجاب الشرعي، ولعل أحدهم يستنكر هذا القول، لكنني أذكر من استنكر من أهل تلك البلاد أن البرقع كان يغطي الفم والأنف فكان نصفه أو أكثر مكشوفاً وكأن الحجاب فرض على الفم والأنف فقط، وكانت الملاية البيضاء أو السوداء تشفّ عما تحتها بشكل سافر، وحين تسقط الملاية وما أكثر سقوطها تجد الزنود الفارعة والصدور العارية والثياب القصيرة تُظهر أكثر مما تُخفي .

قررت أن أبدأ بسورة النور، وهكذا كان.. ففي الدرس الأول لم يتعدّ الحاضرون العشرين، وارتفع العدد في الدرس الثاني إلى المئة، وكان المسجد غاصاً بهم في الدرس الثالث وما تلاه.. لقد كان الناس متعطشين لمعرفة دينهم، وأحكام شريعتهم، مفتقدين المعلم الناصح، والقائد الفذّ والإدارة المخلصة والنّطاسيّ البارع ليضع يده على مكنن الداء، ويحدّد لهم الدواء .

ثم تمضي عجلة الأيام فينقصدُ عام اثنين وتسعين وتسع مئة وألف، أي بعد اثني عشر عاماً مؤتمراً للمرأة الجزائرية المسلمة يحضره أكثر من نصف مليون امرأة متحجبة، فيزرق قلبي فرحاً، وتختلج أضلعي رضاً، وتنتشي نفسي سعادة، لكنّ أعداء الأمة يدقون ناقوس الخطر فيتداعى جلاوزتهم لوأد الحركة الإسلامية فيعيّبون الشباب في غياهب السجون، وظلام المعتقلات، والقبور الجماعية، ولكنّ إلى حين فلا يستطيع الوزعُ إطفاء نور الله تعالى، ولا

الظلامُ تبديدَ النور الساطع والإيمانِ العميق المتأصل في الحنايا والقلوب .  
"يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله  
بأهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ."



---

---

## رحلة إلى الجزائر ( ٢ )

---

---

### إلى سكيكدة

تحتل بجاية شاطئاً جميلاً جنوب البحر الأبيض المتوسط يكاد يكون أجمل الشواطئ في شرق الجزائر، ويعتبر الطريق المؤدي منها إلى مدينة "جيجل" على بعد تسعين كيلو متر رائعاً ففيه ميزات عديدة من أهمها :

أن هناك أربعة أنهر قصيرة جبلية غزيرة تقطعه فتصبُّ في البحر، ماؤها شديد العذوبة، تشكل في مصبها بركاً طبيعية للسباحة كثيراً ما انغمسنا فيها.. والطريق نفسه يرتفع طوراً ليدخل نفقاً أو يعلو جسراً ، وينزل طوراً ليلامس البحر أو يبتعد عنه قليلاً، فتري أعاجيب من الرمل الناعم يفصل بينهما، يتلون من أبيض إلى أصفر إلى رماديّ إلى بني، فتكتمل الصورة الطبيعية الخلّاقة المحصورة بين زرقة البحر واخضرار الجبل، وتري في منتصف الطريق مغارة للصواعد والنوازل فتذكرك بمغارة " جعيتا " اللبنانية إلا أنها صغيرة الحجم ..

ولأننا كنا زوجين شابين في بداية الثلاثين يعجبنا أن نتغدى بعد الانصراف من العمل على هذا الشاطئ الجميل أو على الخليج نفسه قرب مدينة "وقاص" الجميلة بغاباتها الممتدة على الشاطئ النظيف، أو نبعد قليلاً إلى "سوق الاثنين" حيث النهر الغزير والغابات الطبيعية لم تمتد إليها يد الإنسان أو فوق المدينة على البحر من الشمال في "زقواط" المشرفة من عل على ما حولها فنرى المياه اللازوردية تمتد أكثر من عشرين ميلاً في عرض البحر، وتري السفن تجوبه جيئة وذهاباً وتحسّ الهواء العليل يلمس بلطف وشفافية جسدك الدافئ تحت الأشعة الهادئة فتحسب أنك في جنان الخلد.. وكنا كثيراً ما نرد "زقواط" ففيها نبغ لذيذ طعمه نملأ منه

الأواني فنشره أو نستعمله في صنع الشاي فيبدو عقيقاً .

والعجيب أن الجزائريين ما كانوا ليهتموا بالساحل فلا ترى مقهى أو مطعماً أو استراحات منظمة كما تجد في الشاطئ السوري والمصري مثلاً، إلا أن هذا كان يربحنا فلا تجد عُرياً منظماً، ولا فساداً مهياً، إنما هو ساحل جميل بعيد عن يد الإنسان التي إن اهتمت به جعلته آية من آيات الجمال - من ناحية- ومفسدة من مفاسد الخنا والفجور، من ناحية أخرى .

وأهل الجزائر مضيافون يحبون الغرباء ويتقربون إليهم، خرجنا إلى "سكيكدة" وهي مدينة بين "جيجل" و"عنابة" شرق الجزائر في عطلة متوسطة، ولعلها كانت تبعد عن بجاية أكثر من مئتي كيلو متر فوصلناها بعد العشاء فإذا هي بلدة حديثة صغيرة نسبياً أبنيتها متوسطة الارتفاع، سكانها قليلون، والحركة فيها هادئة، تجولنا فيها ساعة فلم نجد فيها ما يشد الانتباه سوى معرض سوق زراعي بدائي يعرض فيه الناسُ منتوجاتهم الزراعية والحيوانية يذكرني بمعرض سوق الإنتاج الزراعي والصناعي في حلب ربيع كل سنة إلا أن معرض حلب كان فخماً وكبيراً، وهذا بديهي، فحلب قديمة ضخمة ..

وكالعادة كانت الشوارع هادئة فالمحلات في التاسعة مساءً مقفلة، والمطاعم مغلقة، وكنا نعرف هذا الأمر فحسبنا حسابه حيث حملنا معنا أنواع الطعام المناسب للسفر، ولم نرغب في العودة إلى بجاية لأننا نريد الاستمرار إلى الشرق إلى عنابة، فطرقنا كل الفنادق في البلدة وكان الجواب: نحن آسفون لا مكان لدينا، فلما أعيانا السؤال ولم نجد بداً من النوم في السيارة أو العودة إلى بجاية رأنا أحد الشباب متحيرين فدنا منا بأدب وقال :

-لعلكم لم تجدوا مأوى في فندق؟

قلنا: صدقت ..



قال: أعرض عليكم قضاء هذه الليلة في ضيافتي .

سألناه: وهل هذا الأمر ميسور؟

قال: الحقيقة أنها دار أختي وهي قريبة، ولعلكم ترون زوجها إن عاد مبكراً من عمله فهو

عادة ما يعود في الحادية عشرة كل ليلة ..

خافت زوجتي وحسبت العَرَضَ -وإن كان مغرباً- مكيدة عقباها سيئة، قلت :

لا بأس أن نجرب، فإن رأينا الأمان أتمنا الليلة، وإن ارتبنا انصرفنا .

وهكذا كان ..

كان البيت قريباً في بناء ذي طوابق ثلاثة يحوي ستَّ شقق، هو إحداها واستقبلتنا أخته بوجه باش يدل على أريحية، والتفَّ حولنا أطفالها الأربعة الصغار، فلاعبناهم وارتاحت نفوسنا فقد كنا ثلاثة أنا وزوجتي وأمها، ولم يكن رجل البيت حاضراً، فنمنا في إحدى الغرف قبل وصوله وكانت ليلة هادئة وادعة. وعند الصباح بعد صلاة الفجر عزمنا على المغادرة شاكرين أهل البيت حسن ضيافتهم، فظهر الرجل بوجهه الباسم وأخلاقه الرفيعة، يدعوننا إلى البقاء أياماً في ضيافتهم، اعتذرنا، وقدّم لنا القهوة والشاي مع الكعك وأنواع الكاتوه فأجبناه.. وكان حديث يدل على أصالة القوم ولطفهم وحسن معشرهم .

وانطلقنا إلى "عنابة" فوصلناها الضحى الباكر وطوّفنا في شوارع المدينة، وتعرفنا على معالمها فإذا هي كبيرة واسعة الأرجاء، حركة المناهج فيها (المنهاج أو المنهج يطلق على الشوارع) بطيئةٌ لكثرة السيارات وازدحام الناس، فهي العاصمة الشرقية الساحلية للجزائر، إن صحَّ التعبير، وهم يعتبرون مدينة "قسنطينة" في الداخل العاصمة الشرقية كما أن وهران العاصمة الغربية. وفجأة رأينا بعض المدرسين من بجاية منطلقين فاستبشرنا برؤيتهم، وتبعناهم

دون أن يرونا، وكنا نظنهم يقصدون بعض المنتزهات فقلنا نشاركهم هذا اليوم نزهتهم، فإذا بهم يقفون أمام القنصلية التونسية، فلما سلمنا عليهم سألناهم عن قصدهم فقالوا إنهم يريدون قضاء بعض الأيام في تونس، فهل تشاركنا؟  
قلت: هذا لطف منكم .

قالوا: إن القنصلية التونسية تعطي التأشيرة في اليوم نفسه .  
وكانت جوازات السفر معنا، فقدمنا الطلب فيمن قَدّم. وعند الظهر حصل الجميع على تأشيرة الدخول إلى الأراضي التونسية إلا عثمانَ وزوجته وحماه!! أتدرون لماذا؟ كان سبب المنع أنني في الصورة ملتصقٌ وزوجتي وأمها محجبتان، فحمدت الله على نعمة الإسلام والتزام سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فكل شيء يهون أمام رضا الله تعالى ولا يضيرنا عدمُ زيارة تونس فأرض الله كلها متشابهة والعادات واحدة.. وعدنا إلى بجاية ..

### باتنة وبسكرة

الجزائر حفظها الله من كل مكروه، غنيّة بكل شيء، بتاريخها العريق وآثارها الشاهدة على ذلك، وأخلاق أهلها، وطيب معشرهم، وصحرائها الممتدة الشاسعة وواحاتها المنتشرة، وسهولها المعطاء وجبالها الشامخة .

وحدِيثي الآن عن بعض آثارها، فقد ذهبت وزوجتي بسيارتنا مع أخ دمشقى — وهو جارنا في السكن وزميلي في ثانوية الحمادية في بجاية— عبد الرزاق البريدي أبي وسيم وزوجته وولديه بسيارته إلى مدينة "سطيف" الجبلية، وكان الطريق إليها يمر عبر جبال شاهقة تتشقق عن مياه عذبة تسيلُ في وديان بعضها سحيق وآخر قريب، لا تستطيع السيارة أن تسرع فيها لالتواء الطريق وتعرجه الشديد.. وكان المنظر إغريقياً ساحراً فنحن بين الغيوم، والشمس تطل

علينا بجيأ شديد، ومع ذلك فقد كان الجو لطيفاً، وكنا نرى على جانبي الطريق سكان الوادي من القروء الراغبة في عطاء المارة تقفز وتلعب كباراً وصغاراً وتصدر حركاتٍ بهلوانيةً وأصواتاً متتابعة موسيقية لتجذب انتباه الناس .

وقفنا على حافة مسورة فتدفقت جموع القروء تنظر إلينا نظرات الاستجداء فألقينا إليها الخبز فتخاطفته، ورمينا إليها قطع الحلوى فسارعت إليها. أما الموز الذي وزعناه فكان الأقرب إلى نفوسها، فلما قدّمنا إليها الخبز مرة أخرى أخذته على استعلاء، لا بد مما ليس منه بدّ، فلما أعطيناها الحلوى رمت بالخبز جانباً وأقبلت على الحلوى بنهم، فلما قضت عليه ورأنا ركبنا السيارة عادت أدراجها تتصارع على الخبز الذي زهدت فيه حين رأت ما هو أفضل منه. وهكذا المخلوق بكل أنواعه وأجناسه، يسعى للعلأ ما استطاع فإذا كلّ عنه رضي بما حازه وقال: رضيت به، وهو لم يرض به إلا مغلوباً على أمره .

كان غالب أهل "سطيف" -وهي على بعد تسعين كيلو متر جنوباً- من العرب، أما أهل بجاية من الأمازيغ القبائل الصغرى. وحين الوصول إلى مشارف المدينة رأينا حافة الجبل الذي ارتقىناه في طرف منه غير منحدر بل مقصوص شاقولياً، وكانت الهاوية عميقة مخيفة ذكرتني بساحة (الواقوسة) في حوران حيث هوى جيش الروم في معركة اليرموك في هاويتها الغربية وهو هارب أمام المسلمين فتردى فيها أكثر من تسعين ألفاً منهم ، فكانت وبالاً عليهم وصفعةً أليمة لهم، إذ كانوا مسلسلين (مقيدين بالسلاسل) فإذا سقط أحدهم جرّ إليه الباقين . هذا ما حصل للمجاهدين الجزائريين، فقد ألقى منهم خمسة وأربعون ألفاً -رحمهم الله- مقيدين في الهاوية ليلقوا الله شهداء أبراراً. هذا ما فعلته فرنسا المتحضرة بهم .

لم يكن المسلمون يفعلون ذلك بأسراهم بل كانوا يكرمونهم، وإذا قارنت بين جبال

سطيف وهوة الواقوسة رأيت :

١. أن الروم في الواقوسة قيّدوا جنودهم كيلا يهربوا أمام المسلمين، وكان الهروب سبباً في مقتلهم العظيمة، لم يفعل المسلمون بهم ذلك وقد فعلوه بأنفسهم .

٢. أن المجاهدين في سطيف يوضعون في شاحنات مقيدين ليُلقى بهم وهم عُزل في الهاوية العميقة لا في ساحة المعركة والحرب، وشتان شتان بين هذا وذاك .

بعد ذلك تعرّفنا على معالم المدينة، وكانت عادية ليس فيها ما يجذب سوى مكان أثري يبعد عنها قليلاً.. انطلقنا إليه فلما وصلنا شدّهتنا روعته، فقد كانت مدينة رومانية أثرية تدعى "جميلة" وهي جميلة فعلاً ما تزال أكثر أعمدتها قائمة، ومعالمُ أبنيتها واضحة، أما شوارعها فقد كانت مرصوفة أكثرها، وكانت ممتدة تدل على أنها كانت مدينة كبيرة عصرية قائمةً على سفحٍ يشرف على ما حوله ذات هواء نظيف وهدوءٍ محبب ولا أبالغ إن قلت إن مساحة ما رأيت أضعافُ مدينة جرش الأثرية الأردنية، ومع ذلك فأهلها زاهدون - كما ذكرت في مقالة سابقة- في إقامة الحفلات والمهرجانات السنوية على أنقاض القدماء، فحمدت الله أن الخير ما زال ثابتاً هنا، وعزوت ذلك أيضاً إلى جدية الإخوة في الجزائر وبعدهم عن السفاسف والمظاهر المائعة .

وزرنا بعد أشهر مدينة "باتنة" على مشارف الصحراء الجزائرية وإن لم تكن صحراوية تماماً فوجدت أهلها أكثر هدوءاً وحياتهم أقرب إلى الرتبة وشمائلهم متعددة ترتاح النفس لهم، وهم من البربر المتعربين، وقيل لي إنهم في باتنة وما حولها أكثر من أربعة ملايين أكثرهم لا يعرف إلا العربية على غير ما عليه أهل الساحل منهم .

تمتاز باتنة ومدن الجزائر بأسواقها العامة التي تشرف عليها الدولة -وحدِيثي عن فترة

السبعين والثمانين من القرن العشرين- ويسمونها "الجالوري" ولعلها كلمة فرنسية معناها "السوق العامة" وقد أمنت الدولة في ذلك الوقت عن طريق هذه الأسواق أغلب متطلبات الجزائريين من مأكّل ومشرب وملبس وأدواتٍ منزليّةٍ وكهربائيّة .

"باتنة" أو قل "فاتنة" بين قسنطينة المدينة الشرقية العريقة، و"بسكرة" وهي المدينة الصحراوية الدافئة، جوّها وسط بين أجواء هاتين المدينتين، وفيها كثير من الشرقيين تعرّفنا عليهم .

وقريب من باتنة زرنا مدينة رومانية أثرية، لا أكون مبالغاً إذا قلت أنها تمتد على مساحة هي ضعف مساحة جميلة، إنها "تمقاد" .. راعني فيها شوارعها الطويلة المرصوفة جيداً وثبات بعض أبنيتها التي كانت تحتاج إلى بعض الترميم لتكون مناسبة للسكن، فيها الكنيسة ومقرّ الحاكم، والمسرح الروماني والحمامات، والمذبح، والعُمدان المتلاصقة، ولا أظن أن هناك إدارة تشرف على المكان، وقد استقصيت فتأكد لي ذلك.. كانت مدينةً رائعة ما أزال أحن إليها وقد مضى على زيارتي لها زهاء ربع قرن ..!

ومن باتنة انطلقنا إلى بسكرة، إلى جنوب الوسط.. ولعلها تبعد عن الجزائر العاصمة سبع مئة إلى ثمان مئة كيلو متر وهي فم الصحراء تمتاز بأمور عدة منها :

١. الحمامات المعدنية التي يؤمها الناس من كل مكان، فيها أماكن للرجال وأخرى للنساء، ولعلها تساوي في الجمال الحمامات المعدنية الأردنية والحمامات المعدنية السورية. أما الحمامات المعدنية التركية فأكثر رقيّاً ..

٢. حينما تصل إليها قادماً من باتنة تمر على جسر عالٍ فوق وادٍ سحيق على حافة هذا الوادي بيوت قديمة محفورة على جدرانها بأعداد كثيرة وكأنها كانت المدينة القديمة التي قامت

على أنقاضها بسكرة. يصعب الوصول إليها ذكرتي بالبيوت المحفورة في وادي بردى قرب دمشق، ومدينة البتراء في الأردن، إلا أن هذه الأخيرة أكثر عراقية وأعظم تصميماً ..

٣. ثمر بسكرة طيب المذاق وشهرته تملأ الآفاق لاسيما تمر بلدة "طولقة" فهي واحة تبعد حوالي عشرين كيلو متر غرب بسكرة، تمتاز بمائها العذب الغزير، وبساتين النخيل الممتدة التي ما إن تدخل محرابها، حتى تطرد عنك الحر وتستقبلك بالندى والهواء العليل .

كانت المساجد تمتلئ بالمصلين في كل مدينة زرتها، لم يستطع الفرنسيون ولا الاشتراكيون بعد الثورة أن يبعدوا الناس عن دينهم، فالفطرة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلوب الجزائريين أثبتت من أن يعدوا عليها الزمن أو يغلبها غالب أو يستأصلها نظام مهما كان جباراً، فإذا ما أذن للصلاة وجدت الجموع تتجه إلى المساجد لتلقى الله تعالى وتسأله المغفرة والرحمة، ولقد وجدت في العاصمة المساجد الضخمة التي تتسع للآلاف نصلي فيها الفجر على دفتين لكثرة الناس، فماذا تقول في الصلوات الأخرى!! وهذا ينطبق على الجزائر كلها.. إنه دين الله ولا غالب إلا الله .

( كتب الله لأغلب أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ) .

### حي القصة

نحن الآن في أول تموز "يوليو" من عام تسعة وسبعين وتسع مئة وألف للميلاد.. وقد بدأت العطلة الصيفية ..

قررنا تمضية جزء من الإجازة في فرنسا فحجزنا مكاناً على إحدى البواخر ذهاباً وعودة من العاصمة الجزائرية إلى مرسيليا، ومن هذه عودة إلى الجزائر، وكانت حماي عندنا فثبتنا سفرها قبل يوم من سفرنا وقررنا أن نبيت ليلة في العاصمة نرتاح فيها ونزور بعض معالمها ولم نكن

نعرف فيها أحداً .

ركبنا السيارة إلى المطار يوم سفرها وهناك ودّعناها وتركنا سيارتنا في مرآب المطار وتوجهنا بالحافلة إلى العاصمة، كان الوقت ضحى حين وصلنا إلى أول فندق وطلبنا غرفة فكان الجواب "ما كانش" وتكررت هذه الكلمة في أكثر من ثلاثين فندقاً، وكنا نتعجب، فما نزال في أول النهار، والفنادق كلها ملاءى! لم نهدد للسبب الذي مَنَعنا أن نجد غرفة في أحدها على اختلاف مستوياتها، وانطلقنا مشياً هنا وهناك واقترينا من الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يحالفنا الحظ إلا بالكلمة التي سئمنا سماعها وكرهناها "ما كانش" ووصلنا إلى حي القصبة .

قلت لزوجتي: ما رأيك أن نتغدى ونعود أدراجنا إلى المطار لنأخذ سيارتنا أو تأخذنا هي إلى بجاية، ونعود في اليوم التالي فنستقلّ الباخرة إلى فرنسا؟

قالت: وهل هناك حل آخر ..

قلت: لا.. إلا أنني سأسأل هذا الفندق، ولن يكون الجواب خيراً مما سمعناه، ولا بد من السؤال لأقطع دابر كل شك ..

وكان الجواب كما توقعت، وخرجت منزعجاً، فهناك شيء لا أعرفه يمنعي من الحصول على غرفة.. وقف أمامي كهل في الثانية والخمسين من عمره يقول بلطف :

-السلام عليكم ..

نظرت إليه بين الابتسام المتصنّع والغضب مما أنا فيها، ورددت السلام بمثله .  
قال: سلمتُ عليك قبل دخولك الفندق فلما لم تجب تعمّدت أن أعيده عليك حين تعود .

قلت: بارك الله فيك، أنا في العاصمة منذ ثلاث ساعات أدخلتُ فندقاً وأخرج من غيره ،

ولم أحظ بغرفة أمضي فيها هذا اليوم فأنا مسافر غداً إن شاء الله تعالى إلى فرنسا ..

قال: يبسر الله تعالى لك ما تريد.. من أين أنت؟

قلت: من مدينة حلب في سورية، ونعمل مدرسين في بجاية .

قال: حياكم الله أهل بلاد الشام، ألا تزورانا فتتغديا عندنا وتستريحاً ثم تعودا للبحث عن

غرفة أو تنزلاً علينا ضيفين عزيزين هذه الليلة؟

نظرت إليه أتفحصه قبل أن أجيبه فقد كان يلبس "دشداشة" مغربية ويعتمر "طاقية"

لحيته خفيفة بطبيعتها، معتدل القامة، ثاقب النظر، صغير العينين، باسم الوجه، وضاءه..

فدخل قلبي وقلت له :

-نشكر فضلك ولكن لي شرط واحد ..

قال: ما هو؟ ..

قلت: ديننا يمنع اختلاط الرجال بالنساء .

قال: وهل تراني غير مسلم؟ إنني لم أدعكما إلا لثياب زوجتك المحتشم وحجابها الرائع،

وللحيتك الواشية بأفكارك ..

قلت: جزاك الله خيراً، فأنت ذو فراسة يا سيدي الكريم ..

كان خارجاً للتو من مسجد كتشاوة بعد أداء صلاة الظهر عائداً إلى بيته حين رأنا فاتجه

نحونا، فلم نكن نرى في الجزائر من أقصاها إلى أقصاها امرأة تلبس جلباباً أسود عريضاً يخفي

تضاريس المرأة ويحميها من الأعين الجائعة، ولا حجاباً يخفي وجهها ورأسها إلا عينيها سوى

زوجتي ثبتها الله تعالى على الإيمان والاحتشام، وقد كنت حدثكم عن شيء يسمى الحجاب

التقليدي في المقالة الأولى ..



أما اللحية فهي في الجزائر في أواخر السبعينيات فتكاد تنعدم إلا من شيخ عجوز أو أوربي سائح، أما أن ترى شاباً ملتحياً تمشي إلى جانبه زوجته المتحجبة فهذا نادر الوقوع .  
لن أحدثكم عن حي القصبة في العاصمة فهو عنوان الجهاد والتضحية أيام الاستعمار الفرنسي ..

ولن أحدثكم كذلك عن "مسجد كتشاوة" فهو رمز الإيمان والإسلام في الجزائر كلها، فقد حوَّله الفرنسيون كنيسة ثم أعاده المسلمون مسجداً.. حفظ الله بلادنا ومساجدنا من رجس أعداء الإسلام وحقدهم وفسادهم ..

سرنا في زُقاق ضيق مرصوف بالأحجار ، أبوابه وعلياتُه المشرفة تشبه كثيراً حي "الفرافرة" في حلب .. فقلت في نفسي: ها أنت قريب من دار أهلك يا عثمان ..

وفعلاً دخلنا بيت مضيفنا فكان أشبه بدار أهلي إلا أنه أصغر، فالباب الخارجي أسود تزينه المسامير الصفرة الكبيرة و"السقطة" التي يُطرق بها الباب رأس حيوان، يُفتح على دهليز صغير عن يساره مطبخ وعن يساره باب "القبو" تنزل إليه ثلاث درجات ..

بعد الدهليز المسقوف ترى نفسك في باحة المنزل وهي صغيرة ، في وسطها فسقية "بركة ماء" أضلاعها لا تتجاوز المتر أما " الليوان" – الصالون المفتوح على ساح الدار الذي جلسنا فيه فبابه قريب من الدهليز وقد أخذ طرفَ الباحة الأيسر.. وهناك غرفٌ أرضية ثلاثٌ وغرفتان فوقُ ، تصعد على درج جانبي عن يمين الدهليز.. إنها دار قريبة الشبه بدارنا.. ولعل أصحابها قريبو الشبه بنا، فنحن مسلمون نتكلم لغة واحدة.. مشاعرنا واحدة وقلوبنا متصل بعضها ببعض إن شاء الله .

صعدت زوجتي إلى "المربّع" وهي غرفة فوق القبو تصعد إليها ثلاث درجات واستقبلتها

زوجة الرجل استقبلاً حسناً ..

أما مضيفي فسألته عن نفسه فأخبرني أنه الدكتور "بلحاج شريفي" أستاذ للغة العربية في جامعة الجزائر، وعضو المجلس الأعلى الإسلامي للجزائر، ورئيس هذا المجلس الشيخ "محمد الحماني" رحمه الله.. ورحم صاحبنا فنحن الآن في أوائل العام (٢٠٠٤) بعد لقائنا هذا بخمس وعشرين سنة، أما السيد "بلحاج شريفي" فقد كان في الثانية والخمسين فهو إن كان حياً الآن ولا أدري، فعمره سبعة وسبعون عاماً .

كان لهذا الأستاذ ولد شاب في العشرين من عمره حين التقيته أول مرة عام ثمانين واسمه عليّ، وحين ظهرت جبهة الإنقاذ عام اثنين وتسعين وتسع مئة وألف كان "علي بلحاج: هذا في الثانية والثلاثين من عمره، وكان نائب رئيس جبهة الإنقاذ "عباس مدني" فهل هو يا ترى ابن الدكتور "شريفي" أم أن الأسماء متشابهة؟.. إني لأظنه هو، فقد كان بين أصحابه لولباً ونشيطاً وكانوا -وهم أتراب- يظهرون له الطاعة والودّ، وقد أهديته شريطين للمنشد الإسلامي الحلبي أبي دجانة، فأظهر اهتمامه بالنشيد الإسلامي وسألني المزيد.. ولكن تبين لي أنها تشابه أسماء ليس غير

كان الدكتور "شريفي" كريماً ودوداً يعاملني بأدب جم ، وهو الرجل العالم ويكبرني بأكثر من عشرين سنة، فتذكرت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتلطف لأصحابه حتى كان أحدهم يظن أنه الأثيرَ لديه صلى الله عليه وسلم .

قدّم الطعام على عادة أهل المغرب العربي ، وهذه كانت أول مرة أدخل فيها داراً جزائرية في وليمة، الشوربة الحارة أولاً، مع السلطة.. وترفع بعدها ليقدم نوع آخر من الشوربة فيها قطع من اللحم، مع بطاطا مقلية أو مطبوخة ، وأكلتها بالخبز وشبعت وحمدت الله تعالى فرفعها ثم

دفع إلى مائدة الطعام الأرز والأرضي شوكي المطبوخ ( الخرشوف ) مع قطع اللحم الوافرة، ولكنني اعتذرت أنني شبع، فرأيت في وجهه الامتعاض والألم وقال :

-ألا يعجبكم طعامنا؟

-قلت: بل يعجبنا ولكم الشكر على هذه الحفاوة .

قال: فلم تأخرت عنه؟

قلت: قد شبعت من النوعين السابقين .

قال: هذا هو الطعام الرئيس ..

قلت: فلم قدمته بعدهما؟ أليس أحرى بكم أن تقدّموه مع ما سبق؟ !

قال: هذه عادتنا ألا تعرفها؟

قلت: لا والله بل عادتنا في المشرق أن يوضع الطعام بأنواعه على المائدة ويأكل من يشاء

ما يشاء ..

ضحك الرجل وقال :

-معك الحق كلُّه والله، فنحن هكذا عادتنا ، ولقد زرت بلاد الشام والحجاز ومصر،

والتقيت كثيراً من العلماء والوجهاء ، وقُدّم الطعام على عادتكم، وقد نسيت أن ضيفي

شامي، أفلا أرضيتني وجبرت خاطري فأكلت لقيمات؟

قلت: سمعاً وطاعة .

وشاركته طعامه ونحن نبتسم ويداعب أحدنا الآخر ..

ودّعناهم بعد العصر وأخذنا السيارة إلى بجاية، فوصلناها عشاءً وحين دخلنا البيت طرق

أحد الجيران الباب متعجباً من عودتنا وكان دمشقياً مهذباً فأخبرته بقصة الفنادق وأسطوانة

"ما كانش" التي صكّت أسماعنا فضحك وقال :

كان عليّ أن أنبهك إلى ذلك فقد اكتويت بهذه النار حتى عرفت السبب .

قلت: وما هو رحمك الله .

قال: يعيش الجزائريون حالة تأزّم سببه أن "بومدين" حين انقلب على "ابن بيلا" جاءت

الطائرات من بلد عربي كان سنداً وعوناً "لابن بيلا" وقصفت بغزارة مرافق حيوية كثيرة في

البلاد، فأعقبت تدميراً وأمعت قتلاً فيهم، فهم يكرهونهم ولا يمدون لهم العون .

قلت: وما ذنب المثقفين والعلماء والأدباء من أبناء ذلك البلد العربي فيما اقترفته أيدي

المسؤولين الآثمين؟

قال: منذ الجاهلية كانت العادة أن يتحمل المجتمع جريرة المجرمين فيه ولم يستوعب العرب

– مع الأسف – قول الله تعالى: "ولا تزر وازرة وزر أخرى ."

قلت: ولكن الكثير ليسوا من ذاك البلد الذي أساء مسؤولوه إلى الجزائريين؟

قال: لا يستطيع غالب الجزائريين التفريق بين سوري ومصري وعراقي وفلسطيني..

فلهجاتنا عندهم متشابهة .

قلت: وما العمل؟ كيف نتفادى في قابل الأيام ما لاقيناه هذا اليوم؟ ونحن كثيرو السفر

إلى الجزائر العاصمة؟!

قال: قدّم لمن يستقبلك في الفندق جواز سفرك فقط ، ولا تكلمه فسوف يسألك ما نوع

الغرفة التي تريد؟. ونحن – السوريين – نلقى لديهم الحب والاحترام ..

لم يخطر ببالي أن أصدقه أو أكذبه، لكن الأيام التي تلت أثبتت أن الأمر صحيح، فلقد

كنا نلقى القبول ونجد ما نريد في الفنادق التي نطرقها ..

---

---

## رحلة إلى الجزائر ( ٣ )

---

---

### الزيارة الأولى إلى فرنسا

من التسهيلات التي تقدم للجزائريين ومن يقيم عندهم أن من يسافر إلى فرنسا بجزراً أو جواً يشتري بطاقة السفر إلى المدن الفرنسية التي يقصدها من الميناء أو المطار بالقطار بالعملة الجزائرية مساويةً للفرنك الفرنسي وإن كان الدينار لا يجاوز سعره في السوق الحرة أربعين في المئة من سعر الفرنك، فاشترينا بطاقة القطار من مرسيليا إلى باريس ذهاباً وإياباً.

ولكن الخطأ الذي وقعنا فيه، ولم نسأل أحداً، ولم ينبهنا إليه أحد أن درجات السفر بالباخرة ثلاث، أقلها أن تحتل كرسياً في إحدى قاعات الباخرة مدة أربع وعشرين ساعة هي المسافة الزمنية من الجزائر إلى مرسيليا، وهذا يتعب المسافر كثيراً فلا يرتاح ولا ينام ويصيبه الإرهاق، وهذا ما حصل لنا إذ كنا من أصحاب هذه الدرجة.. وأوسطها أن تحتل سريراً تستلقي عليه أو تنام فإن استرحت وجدت متعة في التجول في الباخرة والتعرف على معالمها، لكن الدرجتين هاتين لا تتضمنان تناول الطعام في مقصف الباخرة أو مطعمها إلا بالعملة الصعبة "الفرنك الفرنسي" وعلى هذا فالمسافرون يشترون ما يكفيهم من الطعام والشراب قبل أن يصعدوا السفينة.. وأعلاها أن تحتل غرفة وحدك أو مع أسرتك الصغيرة - وإن كانت الغرفة كبيرة فمع أسرة أخرى- لكن نظام تقسيم الغرف يساعد على استقلال أسرتين في غرفة واحدة، ويتضمن هذا الطعام ثلاث مرات في اليوم تدفع ثمنه مع البطاقة بالدينار الجزائري..، وفي هذه الغرف "الكبائن" وسائل الراحة والمتعة .

كانت الباخرة ضخمة، فيها ما يتسع لثلاثة آلاف مسافر على الكراسي المثبتة في قاعات

ضخمة تشبه صالات المسارح أو السينما، وهناك غرف جانبية كثيرة للدرجة الثانية، وفي الطوابق العليا نجد أصحاب الدرجة الأولى .

ولا تسل عما رأيناه في هذه القاعات وعلى جوانب السفينة وفي الزوايا من كوارث أخلاقية يندى لها الجبين، وتُنكسُ لها الرؤوس، وتنفطر لها القلوب المؤمنة، وتأسى لها النفس الطاهرة،.. فقد خرجوا من الجزائر، وليس لرب الجزائر وإلهها سلطانٌ عليهم!! وهم ذاهبون إلى فرنسا بلد الحرية!! والفسق والعهر.. فلم لا يتركون لأنفسهم العنان، فيتدربون على الفساد القادمين إليه؟! أو يمارسونه؟ أما الخمر والقمار في البارات والملاعب فحدث ولا حرج وتذكرت قول الشاعر :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً..

ولعلَّ شوقي كان حكيماً عاقلاً، فأصاب كبد الحقيقة حين نادى فردد الكون من حوله :

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ فإن هم ذهبَ أخلاقُهم ذهبوا..

كانت السفينة كبيرة يقترب طولها من مئتي متر، وعرضها مناسب لطولها، وتحمل مئات السيارات الصغيرة والكبيرة أسفل بطنها، كانت تمخر عباب البحر كأنها الطود الشامخ توحى لنا أنها ثابتة مكيئة، مما أشاع الهدوء في نفسي وزوجتي، إلى أن هبت عاصفة بحرية ضخمة أرتنا قدرة الله تعالى في هذا المخلوق الضخم، فأحسسنا أننا لعبة صغيرة جداً في بحيرة كبيرة جداً.. فدعونا الله تعالى أن يحفظنا ويرحمنا ويوصلنا سالمين .

"فإذا ركبوا في الفلك دَعَوْا الله مخلصين له الدين" ونحن مؤمنون إن شاء الله تعالى نعرف لله سبحانه فضله ومنه، ولن يصيبنا مكروه فقد دعواناه حين ركبنا السفينة "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون" ألم نقرأ صباحاً ثم مساءً الآيات الأولى

وآية الكرسي والآيات الأخيرة من سورة البقرة؟ إذاً فلنطمئن.. لكن النفس البشرية خائفة وجملة، لا يهدئ روعها إلا اللجوء إلى الله تعالى .

وصلنا قبل ظهر اليوم التالي إلى مرسيليا، فنزلنا وتوجهنا إلى أحد الفنادق القريبة، صاحبه تونسي لطيف، أخذنا غرفة ثم نزلنا إلى الشوارع نتجول فيها ونتعرف على معالمها.. فإذا هي مدينة واسعة، كبقية المدن البحرية ليس فيها ما يشد الانتباه.. إلا أن جوها هادئ، وحرارتها معتدلة ..

ركبنا القطار في اليوم التالي باكراً متجهين إلى الشمال.. باريس.. وكان القطار سريعاً فوصلنا عند الصباح قبيل طلوع الشمس إلى مدينة "أورانج" وفيها طبيب حلي أحببنا زيارته، تركنا القطار بعد أن أودعنا حقائبنا في المحطة نفسها .

نحن الآن عام تسعة وسبعين، وهذه المرة الأولى التي نزر فيها بلداً أوروبياً، وفرنسا الدولة الأولى عالمياً في مواصلات السكك الحديدية .

حين تنزل من القطار تجد في الردهات خزائن حديدية كبيرة وصغيرة، تختار ما يناسب حقائبك منها، فتودعها فيها، وتقفلهما، وتنطلق خفيفاً في أنحاء المدينة فإذا حان وقت السفر عدت إلى خزانتك، ودفعت المبلغ المرسوم على عدد زجاجي، فأخذت حقائبك وذهبت .

طرقنا باب الرجل ففتحت زوجته الفرنسية الباب واستقبلتنا بأدب ولطف، ولغة عربية مكسرة، لكنها مفهومة، وجاء صاحبنا فسلمنا عليه، وصلينا الفجر ولم نمكث عنده إلا قليلاً، ووعدناه بالعودة إن يسر الله، وأفطرنا عنده، وخرجنا معاً، هو إلى المستشفى ونحن إلى القطار ..

نزلنا في مدينة الزهور "ديجون" فكانت بحق، زهراء مليئة بالورود فساحتها تضحج بأنواع الأزاهير المختلفة الألوان.. المدينة صغيرة، ونحن نرتاح للبساطة والهدوء .

اتفقنا مع صاحب الفندق الصغير أن نمكث فيه ثلاث ليال.. ولكن حدث ما جعلنا نحزم حقائبنا في اليوم التالي.. إنهما حادثتان منفصلتان.. لكنهما دفعتنا إلى تغيير رأينا، و"تشميع الخيط" كما يقولون .

الناس في الجزائر - كما هم في كل أنحاء العالم - صالحون وطالحون.. قال أحد الأحابب منهم في بجاية "إن دعاك أحدهم إلى بيته، وعزم عليك، وأظهر اللطف والشهامة -لأنك مسلم غريب تحب مساعدتك- فلا تجبه، وأنا عنه، وإن لَجَّ في الدعوة فأظهر له الخشونة، فإن أثاقل وكان سمجاً فلا تتوانَ في الاستعانة برجال الشرطة - قلت متعجباً: على الرغم أنني سأفعل ذلك دون أن تنصحنى هذه النصيحة لأن العاقل هكذا يفعل، وأظني كذلك إلا أن إصرارك ينبئ عن مصيبة أصابتك أو أحدَ معارفك من أمثال هؤلاء ..

قال: صدقت ..

قلت: فماذا يفعلون ..

قال: إن المتسكعين منهم - وهم كثير- إذا رأوا زائراً اعتبروه صيداً ثميناً فهو لم يأت إلى بلاد الغرب إلا ومعه المال المناسب، فلم لا يسرقونه؟! ومن طرق السلب والنهب أنهم يدعونك بأسلوب منمَّق وتهذيب رفيع، فتأمنَ لهم، ويدسّون في الطعام مخدراً.. فإذا صحوتَ رأيت جيوبك.. فارغة وانتهى الأمر.. تدرجتُ وزوجتي إلى حديقة عصر ذلك اليوم فجاءنا رجل في الخمسين من عمره يسلم علينا.. رددنا عليه السلام.. وابتسم لنا فابتسمنا له، وكلمنا بلطف وأدب، فجاريناه ونحن نذكر كلام صاحبنا ونصيحته، ودعانا الرجل إلى داره فاعتذرنا بلباقة، فأصرّ، فتشددنا، لصق بنا فأمرناه أن يدعنا، فازداد لصوقاً وسماجة، وارتفع صوته، أنا أريد التعرف عليكما وإكرامكما وأنتما ترهدان؟! ما هكذا العرب والمسلمون.. هيا يا جماعة..



وكأنه بدأ يشدني.. أمسكت به بشدة، وأمرته أن ينصرف، وإلا رأى مالا يسره، وسمعت رجلاً يقول له بالعربية الجزائرية: يا غليظ، دعهما وشأهما، ليس كل الناس صيداً ..

سار مبتعداً، ونظرت إلى زوجي مبتسماً، حامداً الله على النجاة منه شاكرًا صاحبي على نصيحتته الثمينة، داعياً له من أعماق الفؤاد .

في الغرفة المجاورة لنا في الفندق، وفي منتصف الليل كنا نسمع بكاءً وأنياباً، وحركة تقترب وتبتعد، وصوتَ رجلين يتكلمان مضطربين، ثم وضُح الأنين والبكاء، فهي امرأة.. لقد كنت مستغرقةً في النوم حين أيقظتني زوجتي خائفة مما يجري خلف الباب، فلما صحوت وسمعت هذا هممت أن أستطلع الأمر، لكنَّ خوف زوجتي وعدم معرفتي الفرنسية منعاني أن أخرج، ولا أكتمكم أن الخوف بدأ يتسرب إلى نفسي، فنقلنا السرير أمام الباب، ودعّمناه بطاولة كانت في الغرفة، وعدنا إلى النوم .

وعند الصباح رأينا بقعاً من الدم أمام الغرفة، ولاحظنا حركة رجال البوليس في الفندق.. وكنا قد دفعنا أجرة الغرفة ثلاثة أيام سلفاً، فأعادوا لنا أجرة الليلتين متأسفين لما جرى، وهذا ليس من عادتهم.. أقصد إعادة الأجرة ..

كانت "ليون" قرية من "ديجون" نزلنا في محطتها الواسعة النظيفة وهناك رأينا لأول مرة المصاعد الكهربائية، والثلاجات الأوتوماتيكية، التي تعرض أنواع الحلوى والشوكولا، والمثلجات والمشروبات، فتدفع فرنكاً وتضغط على زر معين، فينزل ما تريد.. أعجبنا بهذا التقدم الرائع في بلاد الغرب، على قلة بضاعتنا، فكأننا بدويان ينزلان إلى المدينة أول مرة، ثم رأينا أنواع المعجنات والبطاطا المقلية و"البفك" و"الشيبس" على الطريقة نفسها.. كان هذا غريباً لأنه إذ ذاك لم يكن قد وصل إلى بلادنا بعد .

"ليون" مدينة ضخمة رائعة، يشقها نهران كبيران متوازيان، ويشكل أحدهما غربها بحيرة كبيرة، فيها أبنية ضخمة على الطرازين القديم والحديث، شمال هذه المدينة حدثت معركة "بواتيه" بين المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي، والفرنسيين بقيادة "شارل مارتل" وما تزال آثار المسلمين في هذه المدينة وفي مدينة أورنج.. ماذا لو انتصر المسلمون؟ إن أوروبا كلها ستكون مسلمة، لكن المسلمين الذين انتصروا أولاً كثرت بين أيديهم الغنائم والأموال، فانشغلوا بها، وتغيّرت النية من جهاد في سبيل الله إلى جمع تفاهات الدنيا ولعاعاتها، والركون إليها.. فكانت النتيجة انحسار مدّ المسلمين ومقتل قائدهم، وتخليهم عن الغنائم، وهروبهم الأول إلى الأندلس وهروبهم الثاني من الأندلس إلى المغرب.. آه.. لو أن المسلمين يفقهون دورهم لكان لهم شأن آخر في أوروبا..

ركبنا القطار إلى باريس "عاصمة النور" هكذا يقولون، ولم أر فيها نوراً اللهم إلا ساحات واسعة، وشوارع عريضة، وآثاراً ضخمة، ونهر السين وبرج إيفل، هي بمعيار العلمانيين نور ساطع، فالمسارح ودور اللهو والملاهي، والصالونات الأدبية، وكثرة التماثيل والأصنام العارية في ساحاتها، والأسواق الضخمة التي يدهل فيها الإنسان عن نفسه، والانحلال الخلقي، والتفكك الأسري، والمواصلات الكثيرة بأنواعها: فوق الأرض، وتحت الأرض.. كل ذلك يُبهر من يرى يبصره لا ببصيرته.. وبعينه لا بقلبه وعقله، فالتناس يعملون لدنياهم فقط، ولأنفسهم، أما الآخرون في مستعمراتهم فلا قيمة لهم إلا ما يقدمون لهم، وأما الآخرة وثواب الله لعباده، وعقابه لعبيده فهذا ليس في قاموسهم .

"فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وما لهم في الآخرة من خلاق". لكن -  
والحق يقال - هم يمارسون حريرتهم بمستوى عال لا نرى حدّه الأدنى في بلادنا، ويعبرون عما

في أنفسهم ويطالبون بحقوقهم دون خوف ولا وجل، ويعيشون حياتهم المادية الدنيوية بما يليق  
بالإنسان من حق العلم، والصحة والشيخوخة .

زرنا سجن الباستيل، فقد كان فندقنا قريباً منه، ولئن أصبح معلماً للوحشية السابقة إن  
في بلادنا "باستيلاّت" كثيرةً تتوطد أركانها وتزداد عدداً كل يوم، حتى تستوعب من يطالب  
بحياة حرة كريمة .

مددت يدي إلى جيبي فوجدت الفرنكات الفرنسية لا تتجاوز المئتين والخمسين، فقررنا  
العودة إلى مرسيليا لنستقل الباخرة إلى الجزائر، وقد أعلمونا أن باخرة كل يوم تغادرها إلى  
الجزائر، فلا بأس أن نقضي يومين هناك قبل الإبحار ..

ركبنا القطار وكان سريعاً فوصلنا بحدود الساعتين إليها، ولم ننتبه إلى أن القطار سيذهب  
إلى طولون، وأن علينا أن نغادره في حدود خمس دقائق إلى غيره المتجه إلى مرسيليا، إلا في  
الدقيقة الأخيرة، كانت الحقائق كثيرة، وقد انتفخ ما كان منها رقيقاً عند قدومنا، فزوجتي  
مغرمة بالتسوّق، وهذا دأب النساء كلهن، لا يهنأ لهن عيش إذا لم يشترين ما يلزم وما لا يلزم  
— وهذا لا علاقة له بالمعري في لزومه مالا يلزم— نظرت إلى اللوحة فجأة وقلت لها: أسرع  
بالنزل .

قالت: لماذا؟

قلت: أسرعي وسأخبرك .

نزلتُ ومعني حقيبتان كبيرتان في كل يد، ورمى أحدهم بالخامسة حين تحرك القطار،  
ونزلت زوجتي. كنا على الرصيف الخامس، والقطار الذهاب إلى مرسيليا على الرصيف الثالث،  
وعلينا أن ننزل الدرج ونسرع في البهو السفلي لنصعد الدرج إلى الرصيف الثالث .

حملت الحقائب الخمس وكانت ثقيلة جداً، لا يستطيع أحدٌ وأنا منهم أن يحملها في الأحوال العادية، ولكن في مثل هذه المواقف يهبنا الله تعالى قوة غير عادية تتحمل أضعاف قدراتنا، وقلت لزوجتي عليك أن تلحقي بي، وبسرعة انطلقت نازلاً إلى الممر السفلي، ثم صاعداً، ووقفت أمام أحد أبواب القطار، وأردت أن أقذف بالحقائب داخله وأرتقي، ولكن أين زوجتي؟! إنها ما تزال تمشي مسرعة - كما تظن - هيا يا ابنة الحلال، وتحرك القطار، ووصلت زوجتي في الوقت غير المناسب، لم أقل لها شيئاً فلا يفيد العتاب، ولا ينبغي قول ما لا طائل له.. فقد أسرعت ولكن القطار كان أسرع.. وهو يصل إلى مرسيليا في الثانية عشرة ظهراً .

بعد ربع ساعة ينطلق قطار آخر، فلا بأس إذاً.. وهكذا كان.. إلا أن هذا القطار كان متأنياً في سيره يحمل البريد إلى كل قرية، ومدينة صغيرة، ويحمل البضائع وينزلها.. ركابه قليلون.. من ذا يركبه إلا إلى منطقة قريبة، أو أناس مثلنا لا يأبهون للزمن، فليس لهم عمل يسرعون إليه.. ووصلنا الرابعة والنصف عصراً، وأخذنا سيارة إلى فندق قريب وتغدينا ثم ذهبنا إلى مكتب الشركة الجزائرية للنقل البحري، وكان اليوم الأربعاء لثبتت عودتنا غداً أو بعد غد.. فمعنا مئتان وخمسون فرنكاً دفعنا منها خمسين فرنكاً أجرة هذه الليلة.. وما بقي يكفي يوماً آخر.. هكذا فكرنا.. قلت للموظفة: احجزني مكانين لي ولزوجتي غداً أو بعد غد إلى الجزائر .

قلت: ليس عندنا باخرة إلا يوم الاثنين القادم .

قلت: لقد سمعت أنّ هناك باخرة كل يوم .

قلت: لا، مع الأسف .

قلت: هذه مصيبة ليس معي الفرنكات ما يكفي، هل تنطلق من طولون باخرة؟

قالت: يوم السبت القادم .

فأسقط في يدنا.. ليس معنا إلا أجرة النوم في الفندق، وسنبقى دون طعام خمسة أيام؟!!

أو نستجدي الناس؟ هذه مصيبة أكبر، ماذا نفعل؟

قلت لها: متى ذهبت آخر سفينة؟

قالت: اليوم الساعة الخامسة أي قبل نصف ساعة من الآن .

قلت: أرجوك - ليس معنا من المال شيء- أسألي الميناء هل انطلقت السفينة أو لا؟

كانت الموظفة لطيفة، أحسست بما يعتمل في صدري من حيرة وأسى، فاتصلت بالميناء

فقالوا: لما تُبحر، وهناك بعض المسافرين عند شباك الجوازات، فطلبتُ إليهم أن يترثوا فهناك

مسافران .

يا الله، ما أكرمك، وما أرحمك، هيا يا زوجتي أسرعي إلى الفندق نحضر الحقائب .. إنني

مسرع فالحقي بي ..

كان مكتب الشركة بين الفندق والميناء، فأسرعت إلى الغرفة، وحزمت من الحقائب ما

كنا فتحناه، فلما انتهيت كانت الزوجة على باب الغرفة.. قلت لها خذي حقبتك الصغيرة

وانزلي ريثما أحمل الحقائب وأطلبُ سيارة .

وحملت الحقائب مرة أخرى، بقوة خارقة لا أدري كيف حُزمتها إلا أن الله سبحانه يمنحنا

القوة الزائدة في الأوقات الحرجة ونسينا بعض الأشياء في الغرفة، وانطلقت السيارة بنا ..

المسافة بين الفندق والميناء كيلو متر واحد.. لكن هناك سبع إشارات للمرور.. كان

نصيبنا أن نقف عندها جميعاً.. فعيونها تحمُرُ حين نصل إليها حزناً على فراقنا، ولم تَدْرِ أننا لم

نكن حريصين على البقاء، فقد نفذ المال، وفرغ الجيب .

وصلنا في دقائق، ولكنه كان زمناً طويلاً ثقيلاً.. هكذا أحسنا وحملت الحقائب في سباق الماراثون، ودخلت الميناء، وقفزت فوق الحاجز غير المرتفع .

صاح شرطي: جزائري متخلف.. وقام لينهرني أو يدفعني فصحت فيه: بل أنت المتخلف.. وكأن جوايي السريع فاجأه فوقف ساكتاً مبهوتاً .

سمعتني رجل مسافر فهدأ من روعي وقال: تمهّل تمهّل.. خذ قلمي، وسأنتظرك إلى أن تنتهي... شكرته سريعاً وقدّمت جَوَازِي السفر للواقف خلف النافذة بعد أن ملأت ورقة الخروج بقلم هذا السيد اللطيف، ثم ناولني الجوازين وحملت الحقائب وأسرعنا تتبعنا الزوجة، فلما وقفنا على الباخرة رُفِع السلم المتحرك.. وهناك تصببت عرقاً.. وشعرت بالإرهاق والتعب.. جلسنا فوق كرسيين وحولنا الحقائب نأكل بعض اللفائف الصغيرة، ومن ثم حاولت أن أبدّل الكرسيين بسريرين، فقد نالنا النصب والتعب في الرحلة السابقة، فلم يسعفني الحظ، فقضينا الليلة نائمين على الحقائب فكانت أهون من سابقتها.. ووصلنا ميناء الجزائر يوم الخميس في الساعة الثالثة عصراً..

لم يكن معي سوى مئة فرنك فرنسي حين دخلتُ ميناء الجزائر العاصمة، إلا أن لي بدمتهم خمس مئة دينار.. فلماذا؟

حين ختم على جوازي في ميناء الجزائر وأنا مسافر إلى مرسيليا قالت لي موظفة الجمارك أمعك دنانير؟ قلت: معي خمس مئة دينار. قالت: هاها. قلت: ولم؟ أنا أحتاجها حين أعود . قالت: أعطيك وصلاً بها، تبرزه فتسترد الدنانير .

قلت: ليتني لم أخبرك بذلك .

قالت: لو لم تخبرنا ثم فتشناك، فوجدناها معك، صادرتها وغرّمتك ضعفيها.. ألف

دينار .

وهذا ما تفعله الدول الاشتراكية ذات النظام الشمولي.. ظانّة أنها تحافظ على ثروتها.. ولو فكروا قليلاً لوجدوا أنهم بهذا التصرف الأخرق جعلوا الفرنك الفرنسي أكثر من ضعفي الدينار الجزائري... ولما عدت ذهبت إلى المرأة نفسها التي أخذت الدنانير مني، وقدّمت لها الوصل، فدلّنتني إلى المصرف القريب من الميناء.. والمصرف يوم الخميس يغلق أبوابه في الثانية والنصف ويفتحها يوم السبت فالأمر جد خطير.. والسيارة في مرآب المطار، ونحن بحاجة إلى سيارة نستقلها إلى المطار، وإلى دفع أجرة المرآب، وثمان بنزين سيارتنا، وثمان الطعام الذي نحن بحاجة إليه في طريق عودتنا إلى بجاية، إن المسافة نقطعها عادة بين أربع ساعات وخمس.. سألت الله العون وتركت زوجتي مع الحقايب وهرولت إلى المصرف.. كان فيها رجلان فقط، المحاسب والمدير ..

-أأغلقتما وانتهى الأمر؟

قالا: وماذا ترى؟ تعال يوم السبت .

ضربت على الوتر الحساس قائلاً: يا أخويّ الكريمين ليس معي دينار واحد فكيف أصل إلى بجاية؟ وليس المبلغ كبيراً إنه خمس مئة دينار .

قالا: عد يوم السبت. قلت: بارك الله فيكما أنتما رجلان كريمان وأنا سوري، والجزائري والسوري متحابان أليس كذلك؟

ابتسما قائلين: ظنناك من... وذكرنا بلداً عربياً لا يجابانه.. ناولني المحاسب خمس مئة دينار من جيبه وحوّلت صرف الوصل باسمه ليقبضه يوم السبت.. وعدنا إلى بجاية الحماديين .

## الزيارة الثانية إلى فرنسا

بين الزيارة الأولى والثانية شهر واحد، فالأولى أول تموز "يوليو"، والثانية آخر آب "أوجست" واستغرقت الأولى أسبوعين والثانية ثلاثة أسابيع، لكنّ الثانية كانت مرتبة مريحة، زرنا فيها شمال فرنسا والساحل الجنوبي الشرقي ..

حجزت سريرين في الدرجة الأولى من بجاية إلى مرسيليا وحددت موعد الذهاب والإياب كي لا نقع فيما وقعنا فيه في الرحلة الأولى، ونصحتني أحد المجرّبين أن أسجل اسمينا في المطعم فور دخولنا السفينة وقبل دخول "الكابينة" المخصصة لنا، فعملتُ بنصيحتته، وكان ما فعلته مناسباً، فقد بگرت في الصعود إلى الباخرة، وانطلقت فوراً إلى المطعم، وثبتت الاسمين، فجاء موعد الإفطار والغداء والعشاء مناسباً، فلكل وجبة وقت يستغرق الساعة والنصف إلا الإفطار فساعة. وتصوّر أن الغداء من الثانية والنصف إلى الرابعة أما العشاء فمن السابعة والنصف إلى التاسعة، وكنا في الفوج الثاني وهذا يعني أن الفوج الأول يبگر في تناول الطعام، والفوج الثالث يأكل دائماً متأخراً .

في الغرفة أربعة أسرة، كل اثنين في طرف منفصل بشكل هندسي عن الطرف الآخر، لكن الحمام واحد.. وهناك نافذتان وأربع "كنبات" مجالس إلا أن شريكنا في الغرفة وزوجته كانا من طاقم السفينة، فلم نرهما لأنهما رغبا أن يكونا عند ربّان السفينة، فارتحنا في الغرفة ..

كان منظر بجاية وأنت تتبعد عنها رائعاً، وكان لون البحر على الضفة من بعيد أخضر لازوردياً، ثم صار أزرق، ثم اغمق قليلاً حين بدأت الشمس تصفرّ، وكان القمر في تلك الليلة بدراناً فصعدنا إلى ظهر السفينة لنرى عظمة الخالق في مخلوقه الكبير -البحر- صفحة الماء تعكس حيوط القمر الفضيّة، فتتألأ الأمواج مرايا.. مهرجانات ممتدة عشرات الأميال فتحسُّ



بالجمال ممزوجاً بالرهبة، وتنظر حولك فتري أضواءً منبعثة من سفن تمخر عباب البحر قريبة وبعيدة، ويمتزج الهدوء من حولك بأنغام "الروك أندول أو الجاز" المنبعثة من الكافيتريا وترى نفسك بين بحرين علوي وسفلي وأنت تسبح على أحدهما تحت الآخر معلقاً برحمة الله، متعلقاً بفضلته ومنه، فتصيح من أعماق أعماقك "لا إله إلا الله.. اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ."  
وتستيقظ صباحاً، فتجلس بعد الصلاة لترى الشمس تشق البحر، وتخرج منه، فتحيل الجوّ ضوءاً ساطعاً أحمر، أبيض شفافاً، ثم تتوضّع زرقاً البحر.. وترى من تحتك أسماكاً ضخمة يتراوح طولها بين خمسة أمتار وعشرة تسير السفينة تبحث في مخلفاتها عن غذاء لها ..  
وترى من بعيد سفينة تعادل حجم عقلة الإصبع، فتخاف على ركبها أن يغرقوا وتحمد الله تعالى أنك على ظهر سفينة ضخمة، فتعربّ عما في نفسك لأحد العاملين في السفينة، فيجيبك دون مبالاة: عقلة الإصبع تلك أكبر حجماً من هذه السفينة.. فينخلع الفؤاد خوفاً من الله تعالى لا من البحر، فتقول بلهجة الواثق: يا بحر.. ربي وربك الله.. وتقرأ قول الله تعالى: "وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون" وتلهج بالشناء على الخالق العظيم .

استقبلنا مرسلينا كما ودعنا بجابة، فما إن لاحت أبنيتها ودنونا منها حتى دخلنا الحمام ولبسنا ثياباً نظيفة، وانطلقنا إلى أحد الفنادق في قلب المدينة، وأخذنا غرفة ثم نزلنا نتجوّل في الشوارع، فإذا نحن في الحي العربي، كل الناس يتكلمون لغة نفهمها، ويتصرفون بعفوية العربي دون تكلف، وأكثرهم من تونس والجزائر، وبعضهم من العراق وسورية ولبنان .

طلبت زوجتي شراء غسالة صغيرة "فضّاضة" فجبنا الشوارع من حولنا فوصلنا إلى شارع فيه أدوات كهربائية.. ورأينا حاجتنا عند رجل يتكلّم العربيّة، فلما اشتريناها سألناه عن أصله

فإذا به يهودي من لبنان، قال: إنه يحب العرب كما يحب بني دينه، ويقول بلهجة الواثق: إنَّ إسرائيل ستحكم العالم لأنها تفكر وتعمل، وحكامها مخلصون لبني جنسهم على العكس من العرب والمسلمين وذكر أنه سمع من أحد معارفه المقربين من الساسة اليهود أن من مخططاتهم إعادة احتلال البلاد العربية، وتقسيمها من جديد.. ولن يمر هذا القرن إلا وأكثر ما يعملون له سيتحقق.. لم أناقشه لأنني أعلم المستنقع الذي نعيش فيه، والفقْر والجهل المرسومين لنا، وأعلم حقيقة الدُمى التي تجثم على قلوبنا والضعف والاستكانة اللذين تعيشهما أمتنا، والشَّرْذَمَةُ المتأصلة في أفئدتنا، والتفرّق الذي نسعى إليه قبل أن يُفرض علينا، كل حاكم قزم يتمسك بكرسيه ويقدم التنازلات للعدو، ويبيع أهله ووطنه ودينه كي يبقى حياته متسلطاً علينا مع احتفاظهم بالألقاب الرنانة، والكنى الضخمة، فأشعرُ بالتقزز والاشمئزاز. وأذكر قول الشاعر الأندلسي في ملوك الطوائف :

مما يُزهدني في أرض أندلس      أسماء معتمد فيها ومعتضد  
ألقاب مملكة في غير موضعها      كاهرٌ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وأذكر أبياتاً لي قصّها الرقيب من ديواني "نبضات قلب" أقول فيها :

وهُمُ بألقاب الفخامة والرياسة يرفلون  
وبكل أوصاف الزعامة والريادة يُنعتون  
هذا أمير المؤمنين وذاك حامٍ للحصون  
وجلالةُ الملك الهمام حمته أهداب العيون  
وسمّوه جبل عظيم يفتديه الحائرون  
وفخامةٌ وسيادةٌ وبغيرها لا يرتضون

وعدوهم يكويهمُ بالكره والحقد الدفينُ

وهمُ على أعتابه في ذلم يتمرغونُ

لو داسهم بوقاحة ضحكوا وهم يستبشرونُ

لو جَّهَّم بصفاقة عادوا وهم يتمسحونُ

مكثنا في الفندق ليلتين ثم قلنا لصاحبتة الفرنسية سنغيب ليلة ثم نعود فقد قررنا زيارة

"كان" و"نيس" و"مونتكارلو".

وأخذنا القطار إلى كان، فرأيناها مدينة حلوة جميلة، تجمع بين هدوء الحياة وصخبها، فهي هادئة في النهار على البحر صاحبة فيه وسطها، وهي تضحج بالحركة بعد العصر على الشاطئ هادئة في الطرف الآخر.. ولا تنس أنها مدينة السينما أما نيس وشاطئ الريفييرا فليتينا لم نره إذ كان في ساعات الضحى الأولى في المكان الذي نزلناه شاطئاً للعراة.. فقد رأينا كهلين في الخمسين تقريباً، وطفلاً وطفلة لا يسترون أجسامهم مطلقاً، بهائم رتّع والتفتنا على بعد خمسين متراً فإذا شاب وصبية يزيان ثم يعودان إليهم وكأن شيئاً لم يكن. صدمنا من هذه الحيوانية الهمجية، إلى هذا القدر من البهيمة يصل هؤلاء الناس، أهؤلاء هم قدوتنا في الحياة ومنتهى أمل الناعقين بالحضارة الأوربية؟! أي حياة هذه التي لا دين فيها ولا شرف ولا عرض ولا حياء؟! أسرعنا بعدين عن الشاطئ نخاف أن تغور الأرض بمن فيها، فنكون مع هؤلاء إلى يوم القيامة.. أستغفرك ربي وأتوب إليك ..

هيا يا زوجتي الحبيبة الطاهرة المحجة النقية.. هيا نبتعد.. فوجدتها سبقتني بأمطار كثيرة، ثم ركبنا القطار إلى مونتكارلو، نسير إلى الجبل الذي يقوم عليه قصر الأمير وزوجته غريس كيلي التي ماتت بعد ذلك بسنين قليلة.. ونرى بعض اللقطات الفولكلورية في تبادل الحرس والجوقة

الموسيقية المصاحبة لذلك، وإذا اقتصاد الإمارة وحياتها يقوم على القمار والرهان والفساد الخلقى المتأصل في أهلها، فلا نشتهي طعامهم، ولا نرتاح لأرضهم، ونسرع إلى مرسيليا فنصل بعد المغرب، لنسأل في الفندق نفسه عن غرفة فلا نجد لأننا تركناها هذه الليلة بملء إرادتنا، ونبحث عن مأوى في فنادق أخرى فلا نجد، ونعود إلى الفندق نفسه لتأخذنا إحدى العاملات فيه إلى بيت أخيها على بعد مئات الأمتار منه، فننام في غرفتها.. أتدرون أين نامت؟ على كرسي في المطبخ ولعلكم تسألون: أليس في البيت مكانٌ تنام فيه سوى المطبخ..؟ نعم هناك أمكنة عدة، في الصالون، في غرفة أبناء أخيها.. لم لم تنم هناك؟ تقول هذه المرأة وهي مغربية: إن زوجها يعمل في الكويت لم يستطع أخذها معه فاشتغلت في الفندق الذي ننزل فيه، واستأجرت عند أخيها غرفة أعطينا إياها هذه الليلة، ولا يجوز لها في شرع الأخ القاسي أن تدخل غير غرفتها.. فهي - وإن كانت أخته- لا ينبغي أن تتجاوز حدودها- له أن يسألها عن وقت عملها وذهابها إليه، وعودتها منه فشرفه شرفها، وعرضه عرضها، والويل لها إن خرجت عن المألوف فليس لها إلا القتل شفاءً.. وهي في الوقت نفسه غريبة لا تأكل معهم، ولا تشرب معهم، وتنام في غرفتها دون أن تتدخل في شؤونهم، ولا بأس أن تجلب لهم الهدايا وتلاعبهم على أن تكون معطاء دائماً ..

وانطلقنا بعد أيام إلى الشمال لنمرّ على المدن "أورانج" و"ديجون" و"ليون" فنتمتع فيها دون أن نمكث كثيراً.. وذهبنا إلى الفندق المسمى بالباستيل فرحب بنا صاحبه إذ صرنا زبونين، وقام الشاب التونسي مديره يرافقنا إلى متحف اللوفر وقصر الإيليزيه، فكان يوماً حافلاً ..

وزرنا المسجد الكبير في باريس، وإمامه جزائري فصلينا فيه، وتعرفنا على كثير من المصلين والمصليات - طبعاً كل واحد منا مع بني وبنات جنسه فلا اختلاط إلا في حدود الواجب

والمعقول، إلا أن النشاط المسجدي لم يكن كما ينبغي، ولعل القائمين عليه إذ ذاك لم يكونوا على المستوى الدعوي، فهم موظفون لا دعاة.. والفرق كبير بين هذا وذاك ..

وقضينا بعد ذلك يوماً كاملاً في برج إيفل وعلى ضفاف نهر السين وركبنا قارباً طاف بنا شواطئه .

وكنا نحب الذهاب إلى ساحة "الكونكورد" وما حولها بُعيدَ العصر من كل يوم، وزرنا "الجالوري" السوق الضخم المؤلف من خمس بنايات كبيرة، كل واحدة ذات أربع طوابق، فيها ما يحتاجه المرء، ومالا يحتاجه.. ولم نشتر شيئاً، فقد تعلمنا من الرحلة السابقة أن نكون مقتصدين واعين.. وجملة " لم نشتر شيئاً " صحيحة مع بعض التحفظ!! فلا يستطيع المرء أن يمتنع عن التسوّق تماماً، ومعه نصفه الآخر .

وتعرّفنا بشكل جيّد على أحياء باريس عن طريق "مترو الأنفاق" الذي يخترق العاصمة بشكل يثير العجب، فهو يعتبر بلا شك أعقد من مثيله في روما، وأوسع من "أندر جراوند" ما تحت الأرض في لندن، أما نيويورك فعلى ضخامتها وعلوّ شأنها فمستوى الأنفاق عندها أقلّ شأناً من أنفاق باريس .

في مساء أحد الأيام دخلنا بقالة تباع أنواعاً من الجبن راقية، وكنت أشتاق إلى الجبن السوري المشلشل والمكعب، فقلت لعلي أجد بعيتي، ففرنسا يجي إليها كل شيء، من الشرق والغرب، لكنني لم أجد ما أريد، ورآني صاحب المتجر ألقب ناظريّ فيما عنده، لا أستقر على شيء فأرشدني إلى جبنه فيها اخضرار - تعفن - قائلاً إنها أرقى ما عنده من الأجبان فأخذتها، وفي غرفة الفندق وضعت قطعة في فمي فلم استسغها، ومثلي كانت زوجتي.. فقلنا: غشنا أو هو صادق فيما فعل، وللناس فيما يتذوقون مذاهب!! عند الصباح جاء النادل لترتيب الغرفة

فأعطيناه ما اشتريناه أمس، فأخذه شاكراً لا يصدّق أذنيه ولا يديه.. فعلمنا أنها عندهم حين  
فاخر.. فقلنا صدق المثل القائل: لولا اختلاف الأذواق ما عمّرت الأسواق ..

وفي الحي اللاتيني دخلنا مطعماً مغريباً تذوقنا فيه لأول مرة "الكسكس: المطبوخ  
ب"الأرضي شوكي" ذي التبلّة والأفاوية التي تشتهر بها المغرب، وتناولنا الحريرة المغربية، فلم  
أستسغها على الرغم أنها من أشهر المقبّلات عندهم، وكان الرجال والنساء يجلسون في المقاهي  
فأستنكر ما تفعله النساء وأقول: أمّن المعقول أن نكون مثلهم في يوم من الأيام وتصير المرأة  
مبتذلة عندنا ابتذالها في فرنسا؟! وتجيبي الأيام بعد عشرين سنة إجابة عملية، فقد سابقتهنّ  
نساؤنا في كل عُجْرَهِنَّ وَجُرْهِنَّ، وأصبحن يقلدنهنّ في كل ما هبّ ودبّ، إن الإنسان حين  
يفقد دينه ينجر إلى الهاوية، وهو يحسب أنه على شيء، فتذكرت قول النبي صلى الله عليه  
وسلم: "التبّعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه  
وراءهم.. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمّن؟

رأى الشاعر القروي في الثلاثينيات من القرن الماضي، وهو نصراني: امرأة تلبس ثوباً إلى  
ما تحت الركبة فقال بيته المشهور :

لحد الركبتين تُشَمِّرِينَا      بربك أيّ نهر تعبرِينَا!

ولو عاش إلى أيامنا فماذا يمكن أن يقول لها بعد أن تهاونت حتى بورقة التوت؟! لعله

يقول ما أقول أنا أصالة عن نفسي ونيابة عنه، وعنكم أيضاً إن كنتم على مذهبي :

تركت الدينَ والخلقَ المتينا      فصرتِ بضاعةً للمفسدينا

وقلّدتِ الكوافرَ دون وعي      فعشتِ مهينةً دنيا ودينا



---

---

## رحلة إلى الجزائر ( ٤ )

---

---

### إلى ورقلة وغرداية

أعلنت ثانوية ابن سينا - في مدينة بجاية - عن رحلة إلى الجنوب الجزائري في العطلة الشتوية فقررتُ وزوجتي المدرّسةُ فيها أن نغتني هذه الفرصة فتتعرّف عليه، مُدناً وقرىً ، وهكذا كان.. انطلقنا أول أيام الإجازة إلى مدينة "الواد" فوصلنا إليها عصر ذلك اليوم والواد مدينة صحراوية هواؤها جاف منعش تقع على الحدود الليبية، سكانها بسطاء يجنون الضيف، ويتكلمون العربية أفصح من أهل الغرب، ولعل سبب ذلك قربهم من البداوة، وبُعدهم عن التأثير بالفرنسيّة. زرنا أسواقها، وواحتها الظليلة، وكان ماؤها عذباً خفيفاً كأنّه ماء الفيحة في دمشق الشام.. وقضينا الليل في مدرسة داخلية سافر طلابها المقيمون فيها إلى أهلهم يقضون العطلة معهم. كنت ترى الليبيين يذهبون ويجيئون بتجارهم، واشترينا من السوق "ملوخيّة" فنحن نحبها ناعمة.. هكذا تعودنا في حلب وهكذا كانت، فأكثرنا منها .

ثم انطلقنا غرباً فتوقفنا قليلاً بباتنه وبسكرة ثم انعطفنا جنوباً إلى ورقلة.. كانت المسافة طويلة تقارب ألف كيلو متر فوجدناها عاصمة الجنوب، صحراويةً، بعضُ شوارعها مرصوف بالإسفلت، والبعض الآخر رملي مضغوط.. استقبلنا هناك مدير المعهد التكنولوجي وزوجته ولعلهما صديقان لمديرة ابن سينا الثانوية، واللقاءُ يصحبه المصافحةُ والعناق.. هكذا سلم بعضُهم على بعض، وهكذا سلمتُ على الرجل، لكنني اعتذرت للمرأة حين مدّت يدها، وصافحتُ زوجتي زوجته واعتذرت عن مصافحة الرجل، فظهر الانزعاج والامتناع عليهما، ولا أغالي إن قلت إن المثقفين الجزائريين الذين بلغوا العشرين حين خرجت فرنسا من الجزائر

عام اثنين وستين كانوا متفرنسين في حديثهم وعاداتهم، إلا مَنْ رحم الله ..  
فما كان من المديرة إلا أن وصفتنا بـ"المسلمين الأرثوذكس" أي نحن ملتزمان أصوليان،  
فلما عرفنا ذلك تغاضيا، ولم يكن المجال مناسباً لتفهم هؤلاء "المثقفين" أن ما نفعله من  
الإسلام ..

هذا يذكرني أول ما بدأنا نعمل في بجاية أنني قبضت الراتب الأول، ولم تقبضه زوجتي،  
ولم ندر لماذا؟.. إلا أن القدر ساق إليّ رجلاً وزوجته فسألما عليّ وأنا ذاهب إلى المدرسة يوماً  
فصافحت الرجل، وأعرضت عن زوجته فسأل: هل هذا من اللياقة والأدب؟  
قلت: هذا من الدين والأخلاق .

قال: محتدماً ومن أين جئت بهذا ولم أسمع به في حياتي؟  
قلت: عدم سماعك بحرمته يدل على جهل به، لا على حِلّه  
قال: إن أساتذة التربية في معهدنا -فهو أستاذ في المعهد التكنولوجي في بجاية- لا يرون  
حرجاً في مصافحة المرأة وهم رجال الدين .

قلت: ليس في ديننا من يمثله. كلنا رجال الدين، في النصرانية حوارنة وقساوسة يشرّعون  
 ويمثلون دينهم.. أما نحن معشر المسلمين، فعلى كل واحد أن يكون مسلماً ملتزماً، وأساتذتك  
الذين ذكرتهم لا يمثلون إلا أنفسهم، وليسوا قدوة لنا إنما قدوتنا الرسول الكريم صلى الله عليه  
وسلم .

قال: وأين دليلك من القرآن والسنة؟  
ذكرت له ذلك، ووضّحت الأمر.. فاقتنع وكانت زوجته إلى جانبه تسمع ولا تشارك،  
فهي متبرجة متزينة، فسألتها أتصلين؟ سكتت... أتقرئين القرآن جيداً؟.. سكتت.. سبرّت



غورها فوجدتها لا تفقه شيئاً ..

قال الرجل متأسفاً: حدّثني مقتصدٌ ثانوية ابن سينا أن مُدْرِسَةً جديدةً جاءتهم، فمدّ يده ليصافحها، فامتنعت، فأقسم ليؤخّرَ راتبها ما استطاع جزاءً ما استهانت به.. والمقتصدُ محاسب المدرسة .

قلت له: يا صاحبي هذه زوجتي.. كان الأجدر به أن يسألها سبب امتناعها عن مصافحته، لا أن يمنعها حقها، فقد وقع في خطأ مرّكب، إذ كان جاهلاً في دينه وظالماً لغيره.  
قال: سأجمعك به قريباً

قلت: سأزوره غداً إن شاء الله لأزيل الالتباس، وأتعرّف عليه.. قابلته وكان رجلاً لطيفاً.. تفهّم الأمر واعتذر لزوجتي ونقدها راتبها متأسفاً .

أهل ورقلة فيهم العرب والبربر من الطوارق إلا أن المثلثين منهم أهل "تمنراست" في الجنوب الأعمق من الجزائر على الحدود السفلى.. وفيهم بعض ذوي البشرة السوداء الفاتحة.. والداكنة. وللطوارق المثلثين لغةً خاصة يتحدثون بها فيما بينهم لكنّ الوجه العام للمدينة "ورقلة" العربية والعروبة، ويقع قريباً منها آبار البترول، فقد كانت سماؤها حمراء، والليل فيها واضحاً جلياً وقد كان ضائفونا كراماً حيث أقاموا حفلة رائعة وسهرة ممتعة ..

وفي اليوم التالي انطلقت بنا الحافلات إلى غرب ورقلة مسيرة ساعتين إلى منطقة الواحات.. فزرنا بلدة "غرداية" وهي واحة تقع في وادٍ ليس بالعميق، فيه بساتين خضراء كثيرة ونخيل مشهور.. لكنّ الأشهر أن أهله كلهم رجالاً ونساءً أهل دين وتقوى، هذا ما بدا لي ..

رجالهم يلبسون القمصان، تحتها السراويلات العربية، وعلى رأسهم القلنسوات البيضاء المزركشة، وهم ملتحون، ومن الخطأ أن يخلق الرجل لحيته.. ذكرني منظرهم بأهل حماة في

الخمسينات من القرن الماضي - العشرين - وحات حلب الشعبية.. أما نساؤهم فحجائهنّ  
سابع لا ترى منهنّ شيئاً ، وبراقيهنّ على وجوههنّ.. قضينا ليلتنا في غرداية، والتقينا بعضهم..  
ولغتهم العربية فصيحة أما لغتهم الأصلية فهي البربرية لأنهم من الأمازيغ الجنوبيين، ومذهبهم  
الإباضيّة، ومدارسهم الدينية مشهورة، فيها يتخرج علماءهم وعلماء سلطنة عمان وبعض  
الليبيين، وقد ذكرت أن الدكتور شريفي بلحاج المدرس للغة العربية في جامعة الجزائر عضو  
المجلس الأعلى الإسلامي من بلدة غرداية ..

أنست لهم وارتحت لزيارتهم، فأعدت الكرّة في السنة التالية مع بعض أصحابنا لكنّ الملل  
قد يعتريك إذا مكثت أكثر من يومين فليس في هذا الوادي من وسائل الحضارة المادية ما في  
الشمال والغرب، لكنك تشعر بالطهارة والتدين وراحة النفس وهدوء القلب.. ولن يملّ  
الإنسان إذا كان من طلبة هذه الأمور.. سيما إذا كان عمله في هذه الأماكن، وتعرف إلى  
أهلها، فخيرهم، وخبروه، وتوطدت الآصرة بينهم، فالمؤمن ألفٌ مألوف .

### عشاء في الأغواط

سكان الجزائر عام ثمانين وتسع مئة وألف عشرون مليوناً، ونسبة الغرباء أمثالنا إليهم  
خمسة بالمئة - فلا يتجاوز عددنا عرباً وأوربيين وغير ذلك المليون، وهذه النسبة "05%"  
تجعلهم - إلى كرمهم ولطفهم - يعاملوننا معاملة الضيف، فيقدموننا على أنفسهم في الحافلة،  
والبقالة والبيع والشراء فتتجه إليهم شاكرين، ولأفضالهم حامدين، بينما تجد الأمر في الخليج  
معكوساً، ولعلّ هذا ناتج عن أمور كثيرة، سيأتي ذكرها حين نصل في رحلتنا هذه إلى  
بلادهم - إن شاء الله .

ففي الكافيتيريا إذ يراك صاحبها مدرساً غريباً، ولم لم يكن له أولاد أو أقارب في المدرسة

يأبى أن يأخذ ثمن كأس الشاي أو فنجان القهوة، إلا أن تدفع أولاً وقبل أن تتسلم منه ما طلبته، وإذا عرفوا أنك تؤم بهم في المسجد أو تحاضرهم أو تعظهم ازدادوا احتراماً لك، ولعلّ أحدهم يمتنع أن يأخذ أجرة تصليح السيارة أو العجلة.. فتشعر بالإحراج الشديد، وتتمنى أن تتسوّق في مدينة أخرى كي لا يضيع ثواب الآخرة في حدود الحياة الدنيا، وكنتُ شاباً.. والشابُّ أكثرُ تصلباً، فهو إن فعل خيراً رغب أن يثاب في الآخرة فقط! ولعله يظنُّ أن تكريمه في الدنيا يخفّضُ من أجر الآخرة ..

لكن.. لا علينا أن أبثُّ بعض مكنونات نفسي على الرغم أن المقدمة لا تمت لزيارتنا الأغواط بصلة إلا تلميحاً، ومن بعيد، فقد وصلنا في إحدى السياحات الداخلية عن طريق بسكرة وجرادية حين انحرفنا للشمال الغربي إلى المدينة الهادئة "الأغواط" في عودتنا إلى الجزائر العاصمة.. وصلت وصاحباي الحليان، صالح الزعتري وماجد الدندشي وأسُرنا في سيارتين كنت أسوق إحداهما قبيل الغروب وكنا جائعين فوجدنا الأسواق مغلقةً والمطاعم مقفلة.. لعل القارئ يقول: لماذا لا تشترون الطعام من الاستراحات على الطريق بين المدن؟ وأراني أضحك من هذا السؤال، لأن القارئ يظنُّ أن هذه الخدمة يجب أن تكون كما هي في سورية - مثلاً - حيث يجد المسافر الاستراحات والمطاعم والمساجد وورشات تصليح السيارات والأسواق ومحطات البنزين حيثما التفت!!.. أذكر أنني سافرت من بجاية إلى الجزائر العاصمة، فوقفنا قرب "البويرة" على كافيتيريا فدخلت لأشتري لفافة "سندويشة" أسدُّ بها رمقي.. أتدري قارئ العزيز ما كان حشوها؟ "قرن فليفلة مسلوقة مملّح" نظرت إليها وقلت رحم الله أيام "سندويشة الفلافل" في "النبك" وهي بلدة قرب دمشق على الطريق دمشق - حمص - يُقشّر الرغيفُ فيُدهنُ بمعجون الحمص، وتُهرس فيه قطع الفلافل، ثم يُيسط فوقها سلطة الخيار والبندورة أو

الحس، ويُرش عليها شراب الطحينية الممزوج بالحمض، فتأكل أصابعك وراءها.. وتطلب غيرها.. ونسيت أن أقول يقدم معها البصل الأخضر أو الخيار المخلل أو اللفت المخلل.. حين وجدنا الأسواق في "الأغواط" مقفلة أيقنا أن لا عشاء اليوم.. ثم لمعت في أذهاننا أن نقصد الفندق الصحراوي الضخم، وأجره الليلة فيه غالية ١٠٠ / مئة دينار وهذا يعني أننا سنجد ما نقتات به.. بل سنأكل كل ما لذ وطاب.. وهكذا كان.. فما إن دخل كل منا إلى غرفته - وكانت فخمة - واغتسلنا من وعشاء السفر، ولبسنا ثياباً تليق بفندق فخم. ثم خرجنا نولي وجوهنا شطر المطعم حتى صدق علينا المثل القائل: "أمل إبليس في الجنة" فالساعة الآن الثامنة والنصف مساءً والمطعم يغلق أبوابه في الثامنة.. حاولنا أن نناقش و.. ولكن لا حياة لمن تنادي ..

نزلنا بسيارتينا إلى المدينة نتجوّل فيها، علنا نجد دكاناً حرق النظام وأعلن العصيان، فشرع أبوابه للضعفاء أمثالنا.. ولكن هيهات، هيهات.. فالناس يحبون النظام ويكرهون خلافه.. ولكن جاء الفرج فقد دخلنا شارعاً ضيقاً - نوعاً ما - وسمعنا من إحدى الشقق - اللهم صلّ على محمد، يا رب صل عليه وسلم.. أهو ذكرٌ أو مولدٌ أو حفلة دينية؟ أيا ما كان ففي نهايته العشاء... وقفنا على الباب نسأل ما هذه الحفلة؟ وكأننا إخوان أشعب الطفيلي المشهور .

قالوا: "ميلود" مولد.. عقيقة ..

قلت: نحن من سورية ونحب حفلة المولد.. أسمحون بالدخول؟

قالوا: على الرحب والسعة شرفتم.. أهلاً وسهلاً ..

دخل الرجال على الرجال، والنساء على النساء ..

كانوا جالسين على الأرض فوق سجادة كبيرة، يذكرون الله تعالى، ويصلون على النبي

الكريم، ويميلون نحو اليمين والشمال بحركة خفيفة مقبولة، ليس فيها شطط، ولا يجاوزون هذا..  
شاركناهم من قلوبنا المحبة ذكر الله والصلاة على نبيه، ونسينا الجوع مؤقتاً، فهناك ما هو  
أهم.. فلما سكتوا قليلاً.. استأذنتهم فحدثتهم بإيجاز عن العقيقة وأحكامها، وواجب الوالدين  
نحو أبنائهم من ولادتهم إلى أن يشبوا.. ثم بدأت أنشد

طلع البدر علينا      من ثنيات الوداع  
وجب الشكر علينا      ما دعا لله داع  
أيها المبعوث فينا      جئت بالأمر المطاع  
جئت شرف المدينة      مرحباً يا خير داع..

ورأيت القوم يشاركوني الأنشودة، وقد أخذهم الوجد، واشتد ميلانهم، وأشرقت وجوههم،  
وكانت دقائق رائعة.. ولا أنسى أن أقول لقد كان صوتي فيه قدر مقبول من الجمال يمتاز  
بالبُحّة.. هكذا يقولون.. وما زال هذا الجمال فيه إلى اليوم، ولكن نسبته أقل.. فليست  
الكهولة والشيخوخة كالشباب .

ثم تباعد الناس، واقترب الفتیان فمدّوا الخُوان - بضم الخاء وكسرهما - على الأرض ثم  
جاءوا بالطعام وتوابعه.. ثم طُلب إلى شيخهم ومنشدهم أن يبدأ أولاً.. - أعني نفسي ، فقد  
صرت شيخ حضرتهم - وهكذا مددت يدي بعد التسمية، وغابت الملاعق في الأطباق  
والصحون، فما كنت تسمع همساً ولا نباحاً.. حتى لم يبق مكان للفاكهة والشراب.. وكان  
صاحباي فارسين مجليين، أطبقا على ما وقع تحت أيديهما بجرأة وبسالة ونشاط ..

ثم ودعناهم شاكرين فضلهم بعد أن وعدناهم أن نزرهم إن جئنا الأغواط مرة أخرى ..  
وانطلقنا سعداء إلى الفندق، كنا نودُّ السهر، لكنّ النوم غلبنا والأكل دفعنا إلى السرير ..

لقد كان عشاء دسماً لذيذاً زاد من لذته الجوعُ الذي كنا نعانيه... بالله عليك قارئ العزير.. ألسنا نستحقُّ هذا العشاء بعد الذي أبليناه في الدرس والإنشاد؟ ..

## الأيام الأخيرة ..

بدأت مجلة "النذير" تصلني تباعاً من فرنسا.. وفيها أخبار سورية.. إضراب الشعب، ومسيرات النقابات بأنواعها تملأ المدن السورية احتجاجاً على النظام الحزبي البعثي الجائر الذي تربع على سدّته طائفيون، حاقدون على الإسلام والمسلمين، إذ رأوا في الحركة الإسلامية المتنامية في مختلف قطاعات الشعب خطراً على نفوذهم، فقال الظلمة -تغدى بالإسلاميين قبل أن يتعشوا بنا.. ولو أعملوا الفكر الحرّ، والتزموا المنطق، وأعطوا الحقوق لأصحابها.. ولم يبطشوا بالناس، ولم يسرقوا مال الأمة.. لعلموا أن الإسلاميين هم قلب الأمة النابض، وعقلها المفكر الرصين، وأنه ليس في منهاجهم استلاب السلطة كما يفعل غيرهم من اللصوص الذين يقومون بانقلاب على النظم الديمقراطية ثم يسمون الانقلاب ثورة، وتصحيحاً، والدموية تطهيراً، والقتل والتصفية الجسدية وطنيّة وتقدماً ..

فإذا باللص وطنياً، والمجرم مجاهداً، والفاسق العريد حضارياً، والخائن العميل مثقفاً متحرراً ...

في أواخر عام تسعة وسبعين نقلوا الآلاف من المدرسين الإسلاميين إلى وظائف إدارية في وزارات غير وزارة التربية ليحرموا شباب الأمة من معين الدين والأخلاق، وفي الأشهر الأولى من عام ثمانين أحوالوا آلافاً أخرى إلى البطالة والتسريح، وكنت من هؤلاء الذين سرّحو من التدريس وأنا مُعارٌ إلى الجزائر !! ..

فلما انتفض الشعب من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، ومادت الأرض

تحت أقدام المعتصبين للسلطة قتلوا الآلاف وسجنوا عشرات الآلاف في حلب، وحماة وهدموا المساجد ودفعوا بالجيش الذي مهمته الدفاع عن الوطن والأمة على الحدود ضد اليهود.. إلى صدور الآباء والأمهات والاحوة والأخوات، فما من مدينة أو قرية أو حي إلا وندسوا حُرُماته بحثاً عن الشرفاء.. ثم قام مجلس شعبهم بإصدار قانون العار /٤٩/ تسعة وأربعين يقضي بالإعدام لكل مسلم ملتزم ينتمي إلى الإخوان المسلمين أو يناصرهم.. وبدأت المجازر في كل بقعة من سورية ...

في أيار مايو من عام ثمانين ذهبت إلى السفارة لأستبدل الجواز القديم الذي ينتهي بعد ثلاثة أشهر بواحد جديد.. وقدمت الطلب في الساعة الثانية عشرة ظهراً، فقيل لي انتظر إلى الثانية.. وانتظرت.. وشعرت حين قاربت الواحدة ظهراً ودخل رجل يحمل البريد من سورية أن عُمامة سوداء دخلت معه.. وانقبضت نفسي.. فاستعدت بالله من كل سوء.. ولجأت إليه أن يزيل الهمَّ والغمَّ عني.. وجاءت الساعة الثانية.. وأخذت جواز سنوي وانطلقت إلى بجاية. حامداً الله تعالى، فهو أهل الحمد والشكر ..

قلب المؤمن دليله، فقد كان في البريد ما يخصني، فالبريد يوزع في اليوم التالي وفيه استدعاء لي للتوصل من حركة الإخوان المسلمين. والعودة إلى سورية ليزج بي في غياهب المعتقلات، عذاب، وإهانات، وقتل... كما فعل بعشرات الآلاف من مثقفي الأمة وعقلائها ومفكريها ..

أرسل في اليوم نفسه طلب المثول في السفارة أمام ضابط الأمن فيها.. فوصل الخطاب في اليوم التالي.. واستلمته.. وما زال في حقيبي حتى الآن.. عام /٢٠٠٤/ رأيتم فضل الله تعالى على عبده عثمان؟ لو تأخرت يوماً واحداً لما صُرف لي جواز السفر.. ويمكرون ويمكر الله، والله

خير الماكين "

بعد أيام أغلقت المدارس أبوابها وبدأت العطلة الصيفية، بجاية مصيف جميل وهادئ ورائع، ولكنّ البقاء مع عيون النظام يحصون علينا الحركات والسكنات أمر غير مرغوب فيه، والاحتكاك معهم في أيام عصبية كهذه ليس من مصلحة الأهل في سورية، إن الجبان حين لا يدرك أربه من غريمه يصبُّ أذاه على أهله المساكين في قبضة المجرمين .

وكان قريب لنا يعمل مدرساً في الصحراء أراد قضاء الصيف في البليدة والأربعاء لأنهما هادئتان معتدلتا الجو فرغبت أن نكون معه، فهو لطيف المعشر، والبليدة والأربعاء مدينتان صغيرتان تقعان في الجنوب الغربي من العاصمة الجزائر على بعد ثلاثين كيلو متر، معروفتان بأثما مدينتا الزهور والورود، فشوارعهما وبيوتهما عامرة بأنواع رائعة من الأزاهير تفوح رائحتها فتملاً كل زاوية وكل ساحة وأهلها حضاريون مهذبون، أغلب أبنيتها من الآجرّ ذوات الدور الواحد الذي تحيط به من كل جانب الحدائق والأشجار.. فيعتدل الجو وتبرد النسومات، يعمل غالب أهلها في العاصمة ثم يعودون إليهما .

كنا في رمضان نستروح بركاته وخيراته فنعيش نوراً على نور وسعادة على سعادة إلا أن شيئاً من عدم الاستقرار يراودنا بين الفترة والأخرى.. إلى أن جاءنا أن الحكومة السورية طلبت من الجزائر تسليمها ثمانية وعشرين "مطلوباً" لأجهزة أمنها بحجة أنهم إرهابيون مجرمون.. خطرون على المجتمع وكنت -لحسن حظي- واحداً منهم.. وتذكرت قول الله تعالى

"وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض والله

على كل شيء شهيد "

نصحني الأحبة أن أخرج من الجزائر، لأن الحكومة إن استجابت لطلب سورية فلن يمنعها



أحد ..

واستخرنا الله تعالى وبعنا السيارة والأثاث القليل الذي صنعه بيديّ من الخشب فقط - حيث اكتشفت أنني نجار لكن غير ماهر - فما صنعه كان بدائياً فالسرير وحده يحتاج إلى أربعة كي يحملوه.. إلا أنه والحقّ يقال يتحمل دبابة لو سارت عليه.. ونصحتي الأخ المرحوم أحمد حلمي خوجة الذي اعتقله المجرمون بعد ذلك بثلاثة أشهر في حلب عام ثمانين، ثم دفعوه إلى أهله عام أربعة وتسعين جثة هامدة.. ثم مضت عشر سنوات أخرى (٢٠٠٤) لم تعلن الحكومة عن وفاته رحمه الله.. وهذا إن دلّ على شيء فإنه ينبيء عن عظيم رحمة هؤلاء الظلمة بالأمة ورأفتهم، ونبيل أخلاقهم!! و... حسبنا الله ونعم الوكيل. وأخبرني المرحوم أنني سأجد إن جئت الأردن بعض إخواننا الذين نجوا بأنفسهم وأسره من الجلاوزة وأزلام السلطة الجائرين، لعلّ الله سبحانه وتعالى يجمعنا بهم ..

ركبنا الطائرة الإيطالية إلى روما ومنها إلى عمان حرسها الله. بعض الإخوة قرروا البقاء في الجزائر.. وقد استسلموا لما تجري به المقادير، ووطنوا أنفسهم على الرضا بكل شيء.. وحفظهم الله تعالى بفضله ورعاهم بعنايته، فقد أبي الرئيس الشاذلي بن جديد أن يعتبر هؤلاء مجرمين. وأجاب: إنهم معارضون سياسيون، لا تنطبق عليهم معاهدة تسليم المجرمين الفارين، مما أغضب النظام، وكان عوناً عليه، فساعد الجنرال خالد نزار على إسقاط ابن جديد بعد سنوات .

لقد كان هذا الرئيس ، رائعاً في توجهاته، ديمقراطياً في تعامله مع شعبه، نهض ببلاده بعد ابن مدين نهضة رائعة، وكانت شخصيته مستقلة.. ومؤثرة وهذا يعتبر في قاموس المتخاذلين نشازاً واستثناءً ينبغي إسقاطه، فتكالبوا عليه حتى أسقطوه عام اثنين وتسعين وتسع مئة

وألف.. لكنّ التاريخ يشهد أنهم هم الساقطون !!



## الوصول إلى عمان

حطت بنا الطائرة في مطار عمان في الأسبوع الأخير من تموز "يوليو" عام ثمانين وتسع مئة وألف.. ونزلنا من الطائرة وفي نفسينا أمل وألم، أما الأمل فأن نتعرف سريعاً على الفائزين بدينهم من النظام السوري الجائر، الذين دخلوا الأردن فتنفسوا الصعداء، وحمدوا الله تعالى أن نجاهم من القوم الظالمين، ففي الأردن حرية نسبية لا نجدها في بلدان العالم الثالث إلا قليلاً عسى الله تعالى أن يجمعنا بهم، فتخف غربتنا حين نلتقي إخواننا وأحبابنا.

وأما الألم فلأننا تركنا الجزائر خوفاً أن نكون ضحية صفقة بين النظامين، ولأننا حين عدنا لم نعد إلى بلدنا ومدينتنا، ولن نلقى الأهل والأصحاب والأحباب الذين غبنا عنهم سنتين من عمر الزمان، فنحن مقبلان على مجهول لا ندرية، وجيران - وإن كانوا عرباً مسلمين - لا نعرفهم. عاداتهم عاداتنا، ولسانهم لساننا، وهم شاميون مثلنا، إنما الغربية قاسية.. اللهم يسّر لنا أمورنا ..

أخذ موظف الدخول جوازي سفرنا ونظر إلينا مبتسماً وقال: أهلاً بكما في بلدكما ثم أردف: جلاب طويل للزوجة، ولحية مهذبة للزوج.. مثير للشبهة في سورية ولا يتكونكما تمضيان!!.. ابتسمنا لكلماته.. وخرجنا فيمنا شطر سيارة أجرة حملتنا إلى فندق فخم على جبل عمان.. ونمنا فقد كنا تعبين.. والصبح رباح ..

وحين استيقظنا وصلينا الفجر كان أول ما فكرنا فيه ترك هذا الفندق الغالي فلا ندري كم نمكث، وما لا ينبع ينتهي.. والمال بين أيدينا قليل ..

عمّان عام ثمانين غيرها بعد أربعة وعشرين عاماً، فهي اليوم أضعاف ما كانت عليه اتساعاً وجمالاً، أصلها شارع الملك ظلال وهو -إن صح التعبير- قعر المدينة وسوقها ومركزها وعنه تتفرع الشوارع والأحياء والحواريّ.. وفيه المسجد الحسيني القديم وبعض الحمامات الشامية، ويصل شرقيّ المدينة بغربيّها والحياة فيه شبيهة بأسواق دمشق وحلب، فما من صنعة إلا ولها في هذا السوق مكان.. والشارع في الأصل وادٍ ترتفع عنه الأحياء السكنية، وبارتفاعها تتدنيّ درجات الحرارة فكل الأحياء على الإطلاق فوق جبال متقاربة أو متباعدة، وأنت بينها طالع نازل، ونازل وطالع .

استهوتنا الحركة في هذا الشارع فحملنا أمتعتنا إلى فندق بسيط جداً، الليلة فيه لغرفة واحدة ديناران، ولا يدخله عليه القوم كما في فندق فيلادلفيا، فيه إيجابيات وسلبيات، أما الإيجابيات فكونه في شارع الملك ظلال، وحوله ما يحتاجه المسافر من مطعم ومشرب وملبس، ومساجد وأماكن انطلاق السيارات في أنحاء العاصمة، وإلى المدن الأخرى .

أما سلبياته فتتجلى في افتقاره إلى النظافة، وإلى ضعف الخدمات.. لم نستطع المكوث فيه سوى ليلتين انتقلنا بعدها إلى فندق "أطلس" في الشارع نفسه حيث يرتفع المستوى وتحسّن الخدمات وترتاح النفس.. مكثنا فيه أسبوعاً قمنا فيه بما يلي :

١. قصدنا القنصلية السعودية للتدريس في المملكة فقبلت زوجتي مساعدة لمديرة الثانوية في تيماء المدينة، وقيل لي: قد اكتفينا من المدرسين ولعلك تجد عملاً حين تسافر مع زوجتك إلى مركز عملها ..

٢. زرنا بعض الأماكن التي نظنّ أن إخواننا هناك، أو أنّ هناك من يدلنا عليهم فلم نظفر

بطائل .

٣. اتصلنا بأهلنا فزارنا بعضهم على رأسهم الوالدان رحمهما الله، ثم تولى الأقرب فالأقرب .

صليت الجمعة في الجامع الحسيني فهو أقرب المساجد إلى فندق أطلس الذي انقلب بعد سنوات إلى مكاتب ومحلات تجارية.. وخرجت أتصفح الوجوه عَليّ أقع على هاد يهديني إلى أحبابي فيتصل ما انفرط من عقد، وترتاح نفسي، وأشعر أنني في سربي ومأمني.. فوجدت شاباً يخرج من المسجد ينظر يمناً ويسرة وكأنه يبحث عن صديق جاء معه للصلاة فغاب عنه .. ناديته: يا أبا محيو.. التفت إليّ ثم تبسّم وأقبل مسلماً: أهلاً أبا قدرتي.. ماذا تفعل هنا وأنت في الجزائر مدرّس؟

قلت: كما ترى جئت إليكم ..

قال: حللت أهلاً ونزلت سهلاً ..

كان أبو محيو صديقاً لأخويّ برهان ومروان يزورهما ويزورانهم فهما أصدقاء المدرسة وإخوة المسجد.. وأكبرهم أنا بأكثر من عشر سنوات .

قال: وأين تنزل؟

قلت: في هذا الفندق، وأشارت إليه ..

قال: لماذا؟ إن شقة كبيرة أرخص وأكثر راحة ..

قلت: ولكنني لم ألتق أحداً منكم ولم أكن أعرف إليكم سبيلاً ..

ابتسم وقال: هيا إذاً إلى الأخ أبي سامي .

قلت: ومن أبو سامي؟

قال: الأستاذ عبد الله الطنطاوي .

لو لم أتمالك نفسي وأنا في الشارع بين زحمة الناس أن خرت على الأرض ساجداً لله تعالى شكراً.. ولا يَحْطُرَانَّ ببال القارئ أنني أخطأت.. فالشكر لله واجب، وهكذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين بُشِّرَ بما يَسُرُّ .

أخبرت زوجتي أنني أمسكت برأس الخيط.. وأني ذاهب إلى مكتب الأخ عبد الله ..  
ركبنا الباص إلى الزرقاء.. وقبل الوصول إليها نزلنا في مكان على الطريق الرئيس هو أقرب إلى الزرقاء منه إلى عمان ..

فوجئ الأستاذ الكريم أبو أسامة، فولده البكر أسامة، بوجودي، وأقبل يعانقني، فكأنما رُذِّت إليّ رُوحِي.. وبشَّ في وجهي، وهذه عادته مع إخوانه والناس جميعاً، وحدثني - باختصار- عما جرى في السنة الأخيرة في سورية -البلد الحبيب- وأخبرني أن ثلثة من الأحاب هنا، منهم الأستاذان الشاعران محمد الحسناوي، وعبد الله عيسى السلامة، والأخ الفاضل زهير سالم، والمراقب العام للإخوان المسلمين الآن الأستاذ الحبيب علي صدر الدين البيانوني حفظهم الله تعالى، وسدّد خطاهم ..

قال أبو أسامة: ترك أحد الأحاب بيته المفروش فرشاً بسيطاً في الزرقاء ليعمل في اليمن وسأخذكما إليه إن شاء الله، قلت الآن إذاً.. قال: ليس قبل أن نتغدى عندنا، فأم أسامة تنتظرنا ..

وعدت إلى الفندق فأخذت الزوجة وحملنا حقائبنا ودفعت أجرة الغرفة لأنني أتوقع وصول الوالد ليسأل عنا، فليَنَم في الغرفة، وسنأتيه إن شاء الله صباح اليوم التالي .

وهكذا كان، فقد أوصلنا الأخ أبو أسامة بعد الغداء، أو سمّه العشاء إلى بيتنا الجديد فشرعنا بالأمان والطمأنينة ورحنا في سبات عميق.. وعند الصباح، أو قل في آخر الضحى كنا

في الفندق نسأل عن الوالد رحمه الله تعالى فإذا به ينتظرنا.. وما أجمل اللقاء.. وما أحلى أن  
يحتضن الولد أباه وسيده وتاج رأسه، ويقبل يديه ورأسه وقدميه!!.. إنه العزّ ما بعده عز، وإنه  
البرّ.. رحمه الله تعالى ورحم الوالدة الحبيبة وأسكنهما جناته.. وقد أهديت ديواني الأول:  
"نبضات قلب" للوالدة رحمها الله تعالى فقلت :

يا من زرعت الخيرَ في داري

وسقيتِ بالتحنان أشجاري

ورويتِ بالإيمان أفكاري

أهديكِ -أمي- بكرِ أشعاري

وكانت القصيدة الأولى في هذا الديوان رثاء الوالد رحمه الله تعالى، منها :

صورٌ تراءى في خيالي كلما      حنَّ الفؤاد إليك أو أضناني

أو شاقني نور المحيّا أو سرى      في خاطري طيفٌ لوجهك ران

أو رتل القرآن تالٍ ذاكرٌ      للوالدين روائع الإحسانِ

الزرقاء مدينة حديثة كانت فيما مضى واحة يستظل بظلها المسافرون وقد ورد ذكرها في  
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أول الدعوة المباركة إذ كفر أبو لهب به وأمر ولديه عتبة وعتيبة  
أن يطلقا بنتي النبي الكريم رقية وأم كلثوم -ولم يكونا قد دخلا بهما- استصغاراً منهم لدعوة  
النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وزاد عتبة أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأسمعه قارص  
الكلام وسبه سباً قبيحاً، فدعا عليه صلى الله عليه وسلم: "اللهم سلط عليه كلباً من كلابك  
ينهشه ."

وخرج عتبة في قافلة إلى الشام فما وصل مسبعة تدعى الزرقاء سمع زئير أسد فاصفرّ

وجهه، وارتعدت فرائصه، واصطكَّت ركبته، قال له أصحابه: أتخاف ونحن معك؟ قال: إن محمداً دعا عليّ وهو صادق الدعوة.. قدّموا له الطعام فعافته نفسه.. وضعوه بينهم، وأحاطوه بأمّعتهم، فلجا جنّ الليل وناموا جاء أسد يشمهم واحداً واحداً، فلما وصل إليه دقّ صدره ونهش كتفه.. سمعه أصحابه في الرمق الأخير يقول: ألم أقل لكم إن محمداً صادق الدعوة.. وهي الآن منظمة تنظيمياً جيداً على أرض منبسطة، بنيت لأفراد الجيش وأسره ثم توسعت بسرعة لتصبح ثاني مدن المملكة الأردنية حجماً وسكاناً..

جوّها صحراوي والحياة بسيطة، وهي قرية من العاصمة عمان، فيها أعداد من الشركس ولهم فيها مسجدهم الخاص "جامع الصديق أبي بكر". وأغلب سكان حي معصوم من الدروز.. وللنصارى حي خاص بهم.. وهكذا..

لم نجد صعوبة في التأقلم مع مَنْ حولنا ولم نتأثر بالغربة، فالناس أغلبهم في هذه المدينة مهاجرون، من فلسطين أو بلاد القوقاز أو المدن الأردنية البعيدة كالأزرق أو الطفيلة ومعان، وتكاليف الحياة القاسية تدفعهم إلى البحث عن لقمة العيش والانشغال بهموم الدنيا.. وتجد أيضاً طيبة، وأخلاقاً تحكمها قوانين العشيرة وأعراف القبيلة، وترى النظام سائداً، وهناك هامش لا بأس به من الحرية التي افتقدناها في سورية .

عملت زوجتي معاونة لمديرة كلية المجتمع الإسلامي في الزرقاء سنتين كاملتين، وتحوّلت إلى العمل الحر من بيع وشراء وسمسة وكنا مرتاحين والحمد لله .

### "الحمة الأردنية"

انطلقنا إلى الشمال من عمان إلى مدينة "جرش" التي تبعد عنها مسيرة نصف ساعة أو أكثر وكان الطريق عريضاً، على جانبيه الأشجار المزروعة مؤلفة سياجاً أخضر جميلاً، يصل



بينهما قرى صغيرة أبنيتها تقارب أبنية المدن، تريح العين، وتبهج النفس وتشعرك بالأمان، يتفرع عنها طرق صغيرة جانبية إلى قرى داخلية تمتاز بانتشار الأرض الخضراء ووفرة المياه، كثيراً ما كنا نقصدها في أيام العطل المشمسة. ومدينة جرش هادئة صغيرة وعلى طرفها الغربي تنتشر الآثار الرومانية القديمة بعمداتها، وشوارعها، وساحاتها، وزخارفها، لكنها لن تبلغ عظمة آثار "جميلة وتمقاد" في الجزائر.. إلا أن الأردنيين اهتموا بها وجعلوها منطقة سياحية يقصدها أفواج الزائرين دون انقطاع .

فإذا سارت بنا السيارة نصف ساعة أخرى فقطعنا من عمان ستين كيلو متر إلى الشمال وصلنا إلى "إربد" عاصمة الشمال إلا أن الأرض بينها وبين جرش تكاد تكون خالية من الخضرة والمناظر الجميلة .

إربد مدينة أكبر من جرش، منظمة فيها مدنيّة واضحة، وحوها قرى كثيرة، وكثير من أهلها مثقف وهي جزء من حوران السورية، فهي تبعد عن مدينة درعا عشرين كيلو متر بل أقل من ذلك ..

فإذا ما سلكت الطريق الغربي الشمالي فسوف ترى نفسك ترتفع فإذا وصلت إلى قرية "أم قيس" بدأت تنحدر.. فتوقّف لترى من بعيد أيام الصحو مدينة القدس التي تبعد أكثر من ثلاثين كيلو متر، فتفهو نفسك لها وتشتاق إليها، وتتمنى لو تطير فتصلي في مسجدها المبارك.. المسجد الأقصى، فتندرد الدموع من عينيك حزناً على ماض عريق كنا فيه سادة الدنيا، وعلى حاضر كئيب صرنا فيه حثالة الأمم، وما ذاك إلا لبعدنا عن الله سبحانه وشرعه الرائع الذي قال عنه الفاروق رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله" فيا ليت قومي يعلمون ..

والانحدار قاس وطويل تتغير فيه درجات الحرارة بسرعة وهو يشرف على الوادي السوري  
-الحمة السورية- التي احتلها اليهود عام سبعة وستين وتسع مئة وألف، وعلى الجبال العالية  
التي تحيط بالحمة الأردنية، وهذه الجبال كذلك بيد اليهود.. تنتشر البيوت في الحمة الأردنية  
دون نظام إلا أن بساتينهم وحقولهم جميلة ومعنى بها.. لتصل بعد ذلك إلى مجمع الحمة  
الأردنية الذي يضم: ١- غرفاً وشاليهات سياحية. ٢- مطعماً ذا مستوى جيد. ٣- بركة  
سباحة كبريتية كبيرة مكشوفة حولها استراحات جيدة. ٤- بناء يحوي عدة برك كبريتية مختلفة  
الحرارة، فهناك "المقلي" تلسع حرارته لشدها ولا يتحملها إلا القليل، وهناك "البلسم" حرارته  
مقبولة نوعاً ما، وهو أكبر من المقلي.. وهناك بركة السباحة الداخلية ..

يقصد هذا المكان أهل الأردن وسورية والعراق ومصر.. وقد رأيت منهم أعداداً كثيرة..  
ولأن المكان منخفض وحرارته مرتفعة فإن الزوّار يكثرون في الشتاء أو في الفصلين المعتدلين  
الخريف والربيع .

### "البحر الميت"

أو بحيرة لوط عليه السلام على الحدود الأردنية الفلسطينية، يبعد عن عمان مسيرة مئة  
دقيقة وهو أخدود أسفل سطح البحر بثلاث مئة وخمسين متراً والحرارة فيه مرتفعة، لذا كان  
مشقى يقصده الناس يستروحون من قر الشتاء، يكاد البحر يكون جزأين متطاولين، يرى أحدنا  
وهو على الشاطئ الأردني ساحله على الأرض الفلسطينية، ليس فيه حياة فمأوه مالح أكثر من  
ماء البحار، يرفع الأجسام فتطفو دون سباحة، ويستطيع أحدنا أن يقرأ كتاباً دون أن يحتاج  
إلى تحريك يديه فالماء يحمله إلى أسفل صدره، وطينه أسود كالمعجون يستشفي به الناس .

يصب فيه نهر الأردن القادم من بحيرتي الحولة وطبرية، وبعض الينابيع الكبريتية الصغيرة .

وقصدناه كثيراً في أوقات مختلفة نهاراً أو ليلاً، وعلى شواطئه بعض النوادي السياحية غير الراقية والشعبية .

والطريق إليه من وادي شعيب على حدود مدينة السلط يجري فيه نبع لذيذ طعمه، يصطاد الناس فيه السمك فيضعون الشباك في منحدره فيتساقط فيها السمك، وحول النبع غابات صغيرة يقصدها الناس، وهناك طريق آخر ناحية "ناعور" القرية من مطار علياء الدولي .

### "عجلون"

مرتفع جبلي فيه مدينة "عجلون" و"بيت جنة" جوّه في الصيف رائع، وحدائقه كثيرة، وأشجاره كثيفة تصل إليه من مدينة جرش، يتصل غرباً بالأراضي الفلسطينية، فيه قلعة متوسطة كانت غي عصر الأيوبيين وما بعده ثغراً يدافع عن المسلمين وديارهم من هجمات الصليبيين الطامعين، واشتهر من أمرائها "أسامة بن منقذ" وهي على تل مرتفع يشرف على مساحات واسعة حولها، فكأنها رأس يرتفع شامخاً يرنو إلى المناطق المنبسطة من كل الجهات .

### "البتراء"

وهي مدينة جنوب غرب عمان على مسيرة أكثر من ساعتين، بين جبال عالية مدخلها ضيق، وهو المنفذ الوحيد إليها، ويميزها أن قصورها وبيوتها وأسواقها منحوتة في الصخر نحتاً رائعاً راقياً يدل على مهارة أهلها في هذا الفنّ، وهي عاصمة الأنباط الذين حكموا البلاد قبل الإسلام، وسيطروا على طرق التجارة وأسسوا دولة قوية .

## إلى مصر ..

لا أكتممكم أن إخوتي في حلب حين رأوا الحملة المسعورة على كل مسلم ملتزم عام ثمانين وسؤال النظام الجائر عني بإلحاح الذي انتقل بدوره إلى السؤال عنهم فاعتقل اثنين منهم ثم أطلق أحدهما -خطأ- وبقي الثاني في سجونته ومعتقلاته أكثر من ثمانية عشر عاماً لا ندري عنه شيئاً.. هذا النظام الذي لم يترك له صاحباً إلا الخائفين أو المنافقين، إذ لم يزوج بكثير من الأحرار حين خرجوا من سورية أراد الانتقام من آبائهم، فقتل في حلب وحدها أربعة عشر أباً.. وكان والدي عند والدته حين داهموا دارنا يريدون قتله.. أرايتم أسوأ من نظام تهتم مخابراته وعناصر أمنه بإذلال المسلمين، وكتم أنفاس المواطنين، وسلب خيرات البلاد، ثم هو يرتقي عند أقدام سادته من يهود ومتهوِّدين.. فرأى الوالد ورأى معه المحبون أن ينتقل إلى الأردن عند أولاده إلى أن تنجلي هذه الداهية.. وهكذا كان.. ذهب أخي كمال إلى صنعاء مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية عام ثمانين، وجاءنا زائراً في الصيف، ورغب أن يتزوج.. فعدنا له على زوجته، وكانت دار الوالد صغيرة، وكنت عازماً على قضاء أسبوع في مصر فتركت له بيتي وسافرت وزوجتي إلى القاهرة .

اشترينا بطاقة السفر من الزرقاء من مكتب أكّد لنا يوم الذهاب ويوم الإياب، وكان مطار عمان إذ ذاك في حي "ماركا" في الشمال الشرقي من المدينة .

وطارت الطائرة بنا على بركة الله.. وهناك.. وما أدراك ما هناك استوقفونا وسألونا إن كنا أخذنا لقاحاً للكوليرا، ولما أجبنا بالنفي أخذونا إلى مستوصف بدائي، وأخذوا دماً وغيره لفحصها واحتجزونا، كلّ في غرفة لا طعام ولا شراب، لا أدري لو كنا من دولة أوريبيّة أيفعلون بنا هكذا؟!!!.. لا أظن. ولكن العربي المهذور الدم في بلده لا كرامة له في غيرها.. أما الأخوة

وحسن الضيافة والإكرام، فنراه عند العرب في القصص والروايات وعند من يحترمون أنفسهم ورحم الله الشاعر إذ قال :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

فناديت عسكرياً أعطيته أجره أولاً، ثم ثمن ما يشتريه لنا من مأكّل ومشرب، وبعد عشرين ساعة أو أكثر تبين أننا لا نحمل جرثومة الكوليرا فسمح لنا بالخروج حرين غير كريمين.. وتمنيت لو أنني لم أزرها ولم أعتب دارها. وكان المغرب قد أذن فركبنا سيارة إلى دار رجل من أصحابنا لعله كان من آل الشيط ووجدت عنده الأخ الأستاذ عبد الله السلقيني الذي أنهى مناقشة رسالة الدكتوراه ونالها بجدارة فقضينا تلك الليلة بصحبتهم وكانوا كراماً، أنسونا مساء اليوم الأول .

ونزلنا فندقاً في شارع الملك فؤاد.. يتوسط المدينة الضخمة ذات المآذن الألف، وفي اليوم التالي كنا نتجول بصحبة سائق التاكسي الذي عرفنا على المعالم البارزة والمناطق الأثرية في القاهرة.. وما أزال أذكر الأزهر الشريف وتلاميذته وأساتذته والحلقات العلمية فيه، ومسجد السيدة زينب وزيارة الناس لها والعبارات التي يقولونها وكأنها حيّة تسمع، أو قادرة على قضاء حوائجهم التي لا تنتهي، ولا يقدر على قضائها إلا الله تعالى، ومسجد سيدنا الحسين واعتقاد الناس الخاطئ القائم على جهل إذ يجعلون من الأولياء أنصاف آلهة.. وزرنا كذلك المتحف المصري ورأينا الفراعنة الذين تجبروا وطغوا، وكان أولهم فرعون موسى عليه السلام وتذكرت الآية الكريمة: (فاليوم ننحيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) يونس ( ٩٢ ).

فقد نجى الله تعالى بدن فرعون ليكون عبرة للناس، فلا الملك يدوم، ولا السلطان يدوم،

ولا وسائل الطغيان والظلم من أعوان وجند ومال وقوة تدوم.. ولكنّ الناس -مع الأسف- يرونه وأمثاله فلا يتعظون، ولا يروعون، ويمرون عليهم وكأنهم لا يرون، فهم غافلون عن المصير الذي ينتظرهم ..

وزرنا متحف الشمع بجلوان فهو رائع يدل على فن وذوق، وصعدنا إلى البرج الدائري وتغدينا هناك، فدار بنا من علّ على القاهرة وكانت أمسية خريفية ذات أنسام عليلة .  
وفي اليوم التالي زرنا القناطر الخيرية فرأيناها كما قرأنا عنها في الكتب المدرسية حين كنا تلاميذ في المرحلة الابتدائية هادئة جميلة المنظر خضرتها تجلو العين وتنعش الفؤاد .

وركبنا سفينة طافت بنا نهر النيل تعرّفنا الحواريّ والشوارع المطلة عليه وتذكرت قصص نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله رحمه الله تعالى، فقد دخل هذا الأخير إلى أعماق أعماقي في قصصه: غصن الزيتون، وشجرة اللباب ولقيطة.. فقد كان رومانسياً ذا أخلاق وحياء .

أما المساجد والمراكز الإسلامية فقد أخذتني إلى دروس الإمام حسن البنا والأستاذ سيد قطب رحمهما الله رحمة واسعة .

كان الناس طبيين، والتعامل معهم يدلّ على كرم أخلاقهم وأصالة معدنهم، فحمدت الله تعالى أنني تعرفت إلى إخواني المصريين الذين مسحوا الألم أو كادوا مما رأيت في الليلة الأولى من إهمال وسوء تصرف الذين احتجزونا دون أن يقوموا بحق ضيافة من احتجزوهم، وقلت في نفسي بعد ذلك: الحمد لله أنهم اكتفوا بالإهمال ورحم الله أخواننا الدعاة الذين نالهم ما نالهم من تعذيب وقهر.. وكانت الأهرامات قمة الحضارة المادية عند الفراعنة.. ولئن كان بناؤها معلماً فريداً في ذلك الوقت السحيق لقد كان بقاءه إلى عصرنا هذا دليلاً أيضاً على الظلم

والهمجية والأناية، فقد قُتل عشرات الآلاف من العمال وديست كرامتهم، وهُدرت حياتهم وجهودهم، لتسكن موميات الطغاة في هذه الصروح الضخمة، فهل هذا يشرف الإنسانية أو يسيء إليها؟! ..

بعد ثلاثة أيام قضيناها في القاهرة عقدنا العزم أن نزر الإسكندرية ولكن الحرارة على مدى ثلاثة أيام فاجأتني فلزمت الفندق وكانت زوجتي حفظها الله تعالى وأحسن إليها رفيقتي وطبيبتى، أصحو فأراها تعتني بي، وأنا م وهي قائمة إلى جانبي، تجود عليّ بعطفها وحنانها، فلما مضى أسبوع أو أكثر على وصولنا القاهرة لم يعد هناك مجال لزيارات أخرى، فقررنا العودة إلى عمان .

### دار الإخوان

نزلنا من الفندق في شارع الملك فؤاد إلى شارع الأوبرا القريب منه نتسوق قبل السفر.. لكن ارتأينا أن نثبت الحجز ونتأكد من اليوم الذي سنسافر فيه أولاً، فتوجهنا إلى أقرب مكتب للطيران المصري فقد جئنا على متن إحدى طائراته، ففوجئنا ونحن في أول أيام أيلول "سبتمبر" أن تأكيد العودة في مكتبها في عمان كان مزيفاً، فقد وضع ال "ok" دون العودة إلى جداول السفر، فهو يريد أن يبيعنا التذكرة، ولا بأس أن يغشنا فسنندبر أمرنا في مصر!! ..

قلت للموظف: ما أقرب يوم نعود فيه إلى عمان؟

قال بعد النظر في الكمبيوتر: في التاسع عشر من تشرين الثاني "نوفمبر" .

قلت: ما هذا؟! أمتأكد أنت؟

قال: كل الأيام محجوزة، والعمال المصريون في العراق بالملايين وفي هذه الأشهر الثلاثة

يعودون إلى أعمالهم هناك ..

قلت: وماذا نفعل إذا كنا مضطرين للعودة إلى عمان؟

قال: لا أدري إلا أنني أحجز لكم مكانين في ١٩ / ١١، فلما لم أظفر منه بطائل.. ولا أعرف أحداً في القاهرة يمت شطر دار مجلة "الدعوة" ومعى زوجتي.. كان الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته هناك، فسلمنا عليه ثم سألنا أحد الجالسين هناك.. نحن من إخوانكم وفي مأزق فهل من مساعدة تقدمونها لنا؟

قال: أهلاً بكما وسهلاً.. ودخل.. ثم خرج علينا رجل رأينا صورته وقرأنا مقالاته وأحبهنا إنه الأستاذ كمال السناني رحمه الله تعالى .

رحب بنا بلطفه المعتاد وضيّفنا ثم سألنا إن كان هناك ما يستطيع مساعدتنا به.. ودلنا على مكتب للطيران فذهبنا إليه وتعرفنا على أخ كريم حاول جهده مساعدتنا لكنّ الأبواب كانت مسدودة ..

عزّجنا على مكتب الطيران الأردني واشترينا بطاقة على أن يحملنا بعد يومين على إحدى طائراته.. لكن طائرة أردنية في اليوم الثاني كبيرة تعطلت على مدرج القاهرة فزاد الطين بلة.. فاعتذر المكتب وأجلنا أسبوعين.. والأسبوعان طويلاً.. فماذا نفعل؟ اهتدينا إلى الطيران اليوناني فحملنا في اليوم التالي إلى أثينا ثم إلى عمان ..

حين اطمأننا إلى أن العودة صارت قاب قوسين أو أدنى نزلنا إلى شارع الأوبرا، وكان فحماً فيه الأسواق الكبيرة والمحلات الكثيرة وكان الناس غادين ورائحين بزخم عجيب، والزحام شديد يجعلك تسير متمهلاً.. كنا نرى في الأفلام السينمائية كيف تتكلم الصديقتان في الشارع بصوت عال فيسمع الجميع كلامهما، فنقول: لماذا تتحدثان وكأنهما تصرخان، ثم نجيب: إنّ هذا فيلم سينمائي، والحقيقة غير هذا.. لكننا رأينا وسمعنا.. تتكلم إحداهما وكأنها وحدها، لا



تبا لي أن يسمعها الآخرون ما دامت مسترسلة في الحديث مع جارّتها فلا سرّ تخبئه، تنطلق في الحديث على سجيتها فيسمعها القاضي والداني، ويعرف قصتها، وتذكرت أغنية عبد الوهاب:

"يا واپور رايح على فين ."

### هرب اللص خائباً

قال أحد الأصدقاء قبل السفر إلى القاهرة: سمعت أن جاري العائد من مصر سرقه أحد العيّارين هناك بأسلوب متحضر، ولم يدر أنه مغفل حتى وضع يده في جيبه فرأى المال قد طار .

قلت له: كيف سرقه؟ وما هي الطريقة الحضارية المفتعلة؟

قال: رمى أحدهم -وهو شريك للصوص- زرق طير على الرجل فجاءه اللص يقول له: "فيه طير زرق عليك أمسحهو لك" أي هناك طير سلح عليك، أتحب أن أمسحه؟ فقال الرجل شاكرًا: افعل ذلك، فقال له أعندك ورق؟ فأعطاه محارم الورق فجرّه اللص إلى مدخل أحد الأبنية، ومسح وسخ الطير، ومسح له جيوبه دون أن يشعر ..

قلت لصاحبي: لعلّ هذا يحدث لي، لا سمح الله؟ قال: نبهتك إلى ما قد يكون، فكن حذرًا ..

دخلت زوجتي محلات كثيرة واشترينا ما رغبنا، ثم خرجنا إلى الشارع وبمنا شطر الفندق نرتاح قليلاً ثم نعود إلى مطعم نتعشى فيه، وكان الوقت قريب العشاء .

قلت زوجتي فجأة هناك حقيبة يد لم تطاوعني نفسي أن أدها. قلت لها: اشترىها .

قلت: هات عشرين جنيهاً. أخرجت من جيبني وفي الشارع دون حذر مبلغاً قدّمته لها،

وكان معي خمس مئة جنيه وسبع مئة دينار وألف دولار.. ووضعت ذلك في جيب قميصي

الأيمن وكنت ألبس "السفاري" والسفاري بنطال وقميص قماشهما واحد ..

شعرت ببرد على ظهري من الناحية اليمنى لم أدر سببه، ثم مرّ إلى جانبي رجل يسرع بخطوات قصيرة ويقول لي: "الطير زرق عليك" أتحب أن أمسحه؟ قلت: نعم.. قال: أمعك ورق؟.. أعطيته، فشدّني إلى مدخل عمارة وبدأ يمسح، ويده تلعب بزر الجيب.. غاب عني ما قاله صاحبي في عمان إلا أن الله تعالى كان رحيماً بي، فتنبهت بعد لحظات إلى أن الرجل يحاول فتح الجيب لكن الزر كان -والحمد لله تعالى- لا يستجيب فأمسكت بيده بقوة، فعرف أنني انتبهت له فأطلق ساقيه للريح دون أنم يظفر بشيء .

خرجت من مدخل العمارة، وكانت زوجتي قادمة فابتسمت لها، ثم أخبرتها بقصة الرجل

في عمان، وترجمتها العملية هنا، وفضل الله تعالى علينا.. وكان عشاؤنا لذيذاً جداً !!



## إلى العراق

كانت المعارك بين العراق وإيران متأججة حين زارنا في الزرقاء أحد المعارف قادمًا من بغداد، وذكرها قائلاً: إنها تكبر وتنمو بسرعة، فقد أنشئ فيها على نهر دجلة في بداية الثمانين إلى الاثنتين والثمانين ثلاثة جسور فخمة، تصل بين الكرخ والرصافة، وأن كثيراً من الشوارع شقّت طويلة عريضة وذكر مثلاً على ذلك شارع

فلسطين الذي يقطع العاصمة من الشرق إلى الغرب بطول اثني عشر كيلو متر، أما المعابر من جسور وأنفاق فحدّث ولا حرج، كما أن كثيراً من الحدائق والمتنزهات جعلت من بغداد قرة العين وبهجة النفس.

قلت: كيف ذاك، والقتال محتدم بين الجارتين؟! لا يكاد يمر يوم إلا ونسمع عن موجات بشرية يتقاذف بعضها بعضاً على كلا الجانبين؟

قال: كما قلت لك، لا يشعر الإنسان في العاصمة أن هناك شيئاً مما ذكرت إلا من الإذاعة والتلفاز، وعلى هذا فالأمان والأمن سمة بارزة في العاصمة العراقية .

قلت: أمن الممكن زيارتها دون عوائق؟ وهل الحياة فيها غالية؟

ضحك الرجل وقال: ليس من رأى كمن سمع، وأنا عائد بعد أيام فكن ضيفي في عاصمة الرشيد .

كنت وما أزال راغباً في التعرف على المجتمعات القريبة والبعيدة، فَوَجَدْتُ هذه الدعوة مني أذنًا سمّعة ونفساً راغبة، والرحلة صحبةً عارف خير منها وحدي فالمصروف يقل، والتعرف

أسهل وأوسع وأسرع .

أتذهب معنا يا أبا معاذ؟ قال: نعم. وتغنى بقول الإمام علي (رضي الله عنه):

تغزّب عن الأوطان في طلب العلا      وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائدٍ

تفرّجُ همُّ واكتسابُ معيشةٍ      وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةٌ ماجدٍ

وأبو معاذ -عبد الرحيم- حفظه الله تعالى "مثل طاسة الجان" فهو فقيه، خطاط،

كهربائي، كيميائي، إعلامي، إلا أنه كما يقول المثل العامي "كثير الكارات قليل البارات"

والكارات جمع "كار" بمعنى عمل والبارات جمع "بارة" وهي عملة صغيرة، ولعل الكلمتين

تركبتان أو إيرانيتان، فهو ماهر في الأعمال يتقنها أما رزقه فقليل.. رزقه الله وإيانا وإياكم من

فضله العميم .

دخلنا حدود العراق من بلدة "الرطبة" بعيدة عن عمان بخمس مئة كيلو متر تقريباً قريبة

إلى البداوة، وكان العاملون على هذا الثغر لطفاء، استقبلوا المسافرين بوجوه باسمة، وسلّم أبو

معاذ على أحدهم فردّ عليه الرجل "الله بالخير" وقليلاً ما يقولون "وعليكم السلام" ثم أردف

الرجل مخاطباً أبا معاذ "الله يساعذك". تغير وجه صاحبنا حين سمع "الله يساعذك" وقال: ماذا

فعلتُ معه حتى هددني؟! أريد أن أعود، لن أدخل العراق، إذا هددني الرجل ولما أدخل بلده

فماذا يفعل أقرانه معي حين أكون في عاصمتهم؟

ضحك ضيفنا المقيم في بغداد، وقال لأبي معاذ: إن معنى "الله يساعذك" في العراق

يختلف عن معناها في سورية.. في سورية حقاً تعني هذه الجملة أن ما ينتظرك أمر عسير

وخطب جليل نسأل الله أن يعينك، أما في العراق فهي بمعنى "أعطاك الله العافية" وهذا دعاء

واستلطاف، فهدأ روع أبي معاذ ثم انفرجت أساريره وقال للعراقي: "الله يساعذك" وضحكنا ...

من المفارقات أنّ "أعطاك الله العافية" في تونس أو ليبيا -على ما أظن- تعبير غير مرغوب فيه، "فالعافية" عندهم "النار" وكأنك تدعو على المخاطب بدخولها والعياذ بالله. ولا أدري كيف فهموها هكذا؟! فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو الله تعالى "اللهم إنا نسألك العفو والعافية" "اللهم عافنا واعف عنا".

وعلى الطريق إلى الرمادي كانت الصحراء غالبية، أما مطاعمهم على الطريق فخيّام يقدّمون فيها "اللحم المشوي والأرز والمرقة" فإذا برّد الجوّ التفّ المسافرون على مناقل الفحم وإذا كان الحرّ استظلّوا بأجنحة الخيمة .

حين وصلنا إلى الرمادي وهذه مدينة متوسطة آنذاك، أكثر بنائها أدوار واحدة ترتاح النفس لها، فهي هادئة يمر فيها نهر الفرات أو قريباً منها، وإلى الجنوب الغربي من هذه المدينة بحيرة الحبانيّة الكبيرة يقوم إلى القرب منها معسكر كبير للجيش ومنتزهات كبيرة وفنادق سياحية فخمة، وجوّ المدينة وما حولها أكثر اعتدالاً من جو بغداد لأنها قريبة من بلاد الشام، ويقصد المنطقة سياح كثيرون من الداخل والخارج .

فإذا ما اقتربنا من بغداد بدأت مظاهر الحضارة والرقّيّ، فالشوارع تتسع، والفيلات السمة البارزة في البناء البغدادي، والجزر الخضراء في وسط الطرقات، وتتجلى النظافة، وتبدو الأبنية في كل ناحية منها.. واخترقت السيارة بنا الشوارع المتعددة صوب مركز المدينة "العلاوي" فترجلنا لتتعدى في أحد المطاعم السورية القريبة من ساحة الباصات والسيارات.. ثم عزّجنا على بيت صاحبنا في حيّ العامرية الذي قتل في أحد ملاحئه عام واحد وتسعين المئات من الأبرياء إثر قصف صاروخي أمريكي يَدُلُّ على رحمة هؤلاء الأعداء وشفقتهم بالأمم الأخرى، ويبرهن على تحضرهم وإنسانيتهم !!

كان البيت واسعاً مؤلفاً من خمس غرف كبيرة نوافذها واسعة، وحديقتها تحيط بالغرف ضيقة خلفها، واسعة أمامها على الشارع الفرعي .

قضينا أياماً حلوة على شاطئ نهر دجلة الواسع.. كان ماؤه منخفض المستوى إلا أنه غزير عميق، وكنت ترى حركة عمرانية دؤوبة في هذا العام، اثنين وثمانين وتسع مئة وألف، وكثير من معالم الشوارع تتبدل، فيُزال بناء هنا قديم، ويُشاد هنا بناء ضخم حديث وتُرصف الشوارع، وكأن أهل بغداد غير معينين بما يجري على الحدود الشرقية ..

في العاصمة ملايين المصريين والعرب الآخرين يعملون، ولقد رأيت سائقاً باكستانياً يقود أحد الباصات العامة في المدينة، ومما لفت نظري أمور ثلاثة :

أولها: أن المكتبات عامرة بأنواع الكتب والأسفار الضخمة، تباع بأثمان زهيدة، فما يباع بدينار عراقي نجده في عمّان بأضعاف كثيرة.. فاقتنيت منها ما استطعت .

وثانيها: الأسواق الكبيرة "سوبر ماركت" المدعومة تبيع الثياب والعطور والأثاث بأسعار مغرية جداً، وكانت تلك الأيام عهد رخاء للعراقيين وأقصد الرخاء الماديّ، أما الأمور الأخرى من كبت سياسي واحتناق أمّني، وحكم فردي، فالإخوة العراقيون أُخْبِرُ به، ويعانون منه ما نعاني نحن السوريين منه .

وثالثها: حديقة الزوراء الكبيرة للحيوانات، ففيها أكبر أسد رأيته في حياتي، إلا أن الحديقة لم تحظ بالاعتناء اللازم، وسرعان ما قارنتها بحديقة الحيوان في "مونتكارلو" في فرنسا، فمساحة الحديقة هناك لا يتجاوز عُشر حديقة الزوراء، لكن تنظيمها وترتيبها جعلها تتسع أضعاف ما في الزوراء من حيوانات، هذا بالإضافة إلى سهولة الانتقال ضمن مساحتها الصغيرة .

## بانوراما القادسية

على بعد ثلاثين كيلو متر شمال شرقي بغداد تقع "المدائن" عاصمة كسرى، ويسميتها العراقيون "سلمان باك" نسبة إلى أول الولاة المسلمين الذين حكموا العراق بعد فتحها سيدنا سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، وكان أبوه دهقاناً عظيماً كثير الأموال مسؤولاً عن نار الجحوس في منطقته، حاول أن يمهد الأمور لولده سلمان لكنّ الله تعالى هدى هذا الفتى إليه سبحانه، ففرّ من العزّ المادي إلى الفقر وخدمة العلماء والأحبار في الشام، ثم رضي أن يباع عبداً في يثرب قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم إليها فتكون مدينته المنورة، ليكون من أتباع هذا الرسول الكريم، ويعود بعد ذلك إلى المدائن حاكماً مكان كسرى، وهادياً إلى شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وصلنا إلى ما تبقى من قصر كسرى، إلى الإيوان المتصدّع، وما يزال الصدع قائماً إلى الآن شاهداً على زوال الباطل ودوام الحق، ولئن دخلت الوحوش "المتحضرة" العراق الآن إن مصيرهم إلى زوال بإذن الله، ما دام في المسلمين عرق ينبض وأرحام الأمهات المؤمنات يدفعن سيلاً من المجاهدين المؤمنين، وليكونّ حال الغاصبين أسوأ من نهاية التتار.. وإن غداً لناظره قريب، وما ذلك على الله بعزيز .

وعلى مقربة من الإيوان بناء ضخّم فيه بانوراما القادسية بأيامها الثلاثة، صوّر فيه المبدعون من المثّالين على شكل دائري هذه المعركة الخالدة من بدايتها إلى نهايتها، فقد رُسمت على الجدران البعيدة أرض المعركة والمقاتلون من كلا الطرفين، فإذا ما اقترب المشهد وجدته ينقلب إلى شخوص وأجسام وشجر وصخور، ورمل.. منظر بديع يتجلّى فيه أمران اثنان :

الأول: جلال التاريخ وعظّمته وقادة التاريخ ورجالاته .

الثاني: إبداع الفنانين الذين دمجوا بين الرسم البديع والنحت الرائع حتى لكأنك ترى المعركة وتسمع أصوات المقاتلين وصليل السيوف وقعقعة السلاح.. وتذكرت وأنا في هذا المكان الرائع البحتري الشاعر حين حضرته الهموم وهو في بغداد في المرة الأولى، ولم يلق حظوة فيها أراد أن يبث شكواه فجاء إلى المدينة البيضاء "المدائن" فزار قصر كسرى ويبدو من وصفه أن القصر كان لا يزال سالماً في ذلك الحين، وخصوصاً بما كان فيه من رسوم لمعركة أنطاكية بين الروم والفرس تتصل على جدران الإيوان، فرددت ما قاله في حسن الصنع وجمال التصوير والنحت والترتيب المعجب "

فإذا ما رأيت صورة أنطا	كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشر	وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرارٍ من الثياب على أص	فر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه	في خفوتٍ منهم وإغماض جرس
من مُشِيحٍ يهوى بعامل رُمح	ومُليحٍ من السنانِ بترس
تصف العينُ أنهم جدُّ أحياء	ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى	تتقرّاهم يداي بلمس

### إلى الموصل

وانطلقنا بعد أيام إلى الموصل على بعد أربع مئة كيلو متر شمال بغداد، وفي الثلث الأول من الطريق تقع مدينة "سُرّ من رأى" سامراء التي بناها المعتصم الخليفة لجنوده من الأتراك حين اشتكت منهم بغداد، وجعلها عاصمته فترة من الزمان، فلفت انتباهنا المسجد ذو المئذنة الملوية فصعدنا إليها وكأنها طريق جبلي صغير، ما أظن أني رأيت مثلها إلا في الإمارات -على ما



أظن - وتوقفنا في مكان قريب منها رأينا الناس يدخلون فيه، فسألنا، فقيل لنا: إن الإخوة من الشيعة يعتقدون أن الإمام المنتظر سيخرج من مكان ضيق في مغارة" ودخلنا لنرى دائرة صغيرة لا يتجاوز قطرها عشرين سنتيمتر مسدودة بملاط، فتعجبنا كيف يعتقد الناس دون تمحيص خروج طفل صغير بِلَّةَ الكبير من مكان ضيق من أعماق الأرض، ولماذا من هذا المكان بالذات؟ ولمْ لمْ يكن في السماء كعيسى عليه السلام؟ وهم يعتقدون كما قال الخميني في كتابه "الحكومة الإسلامية" أنهم خير من الرسل قاطبة ومن الملائكة المقربين؟! !!

فتحت عنوان "الولاية التكوينية" يقول الخميني: "وإن من ضرورات مذهبنا أنّ لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل" وأن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون!!! ولا تخضع ذرات الكون إلا لله سبحانه وتعالى فهل أصبح أئمة الشيعة شركاء لله أو أنصاف آلهة.. أستغفر الله العظيم من الشرك وفساد العقيدة .

استقبلنا الموصل بجوها القريب من جوّ الشام وهوائها العليل، فقد انتقلنا نقلة واسعة من الحرّ الجاف في بغداد إلى الاعتدال واللطف.. ودخلنا أسواقها فإذا هي شبيهة بأسواق حلب وإذا فيها الأسواق المسقوفة، وأصحاب كل صنعة في سوق يخصّهم، والخانات الكبيرة والحمامات، فتذكرت قول الوالد رحمه الله: اقرأ يا ولدي التاريخ تجد أن الموصل وحلب توأمان وقد حكمهما في آن واحد الزنكيون ثم الحمدانيون، وبين هاتين المدينتين نسب وصهر، والعادات واحدة .

وزرنا فيها مقام النبي يونس بن متى عليه الصلاة والسلام، وتذكرنا عدّاساً في الطائف يقدم للنبي صلى الله عليه وسلم قطعاً من عنب فيقول عليه الصلاة والسلام "بسم الله الرحمن

الرحيم" فيتعجب عداس ويقول: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من نينوى (الموصل) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟ فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبّ عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّل رأسه ويديه وقدميه .

وكنت أسمع كثيراً بلبن أربيل وكباجها.. فلم يتسنّ لنا زيارتها لكن أكلنا بعد ساعات من الطواف في المدينة لبّن أربيل مع كباب الموصل عسى أن ننسى التعب، فنسيناه لكن النعاس بعد الأكل هجم علينا هجوم الحرس فأسرعنا إلى بيت أحد المعارف نرتاح قليلاً أو كثيراً ..

## إلى الإمارات ..

العمل في الأردن مجالاته التجارية - بالنسبة لي على الأقل - محدودة، يعمل الإنسان فيه كثيراً فينال قليلاً.. وحديثي هذا عن العمالة الغالبة في هذا البلد فكنت أعمل أحياناً وأحياناً أتعثر أما زوجتي فلم ترغب بالعمل في المملكة السعودية - كما ذكرت سابقاً - مديرة مساعدة في ثانوية تيماء المدينة، فعملت مديرة مساعدة لكلية المجتمع الإسلامي في الزرقاء ..

التقيت بأخ أردني كان نائباً في البرلمان يسألني عن الأحوال المادية والنفسية في الأردن، فكان جوابي أنني من الناحية المعنوية النفسية مرتاح جداً، فالوالدان رحمهما الله تعالى معي في الأردن، وقد كانا يسكنان في الزرقاء، فانتقلا إلى عمان في الحي الهاشمي الشمالي حيث المكان المرتفع، ذو الهواء المتجدد، والدار المريحة، القريبة من أختي المتزوجة حديثاً، أما الأمور المادية فتحتاج إلى ممارسة أكثر من عمل.. فسألني أتعلم في الإمارات؟ قلت: نعم.. فرؤدني برسالة

إلى صديق له أردني جاء مع البعثة الإماراتية لتختار بعض المدرسين .

ذهبت إلى مقر البعثة المؤقت في حي "اللويذة" وكان اليوم الخميس، وهو آخر أيام المقابلات، سلمت على الأستاذ سليمان وأبلغته سلام أبي أنس وأعطيته الرسالة، وكانت زوجتي معي، فرحب بنا.. وعلى الرغم أننا كنا لا نملك الأوراق الرسمية فقد أخذ صورة عن الصورة، وقدّمنا إلى موجه اللغة العربية، فأجرى المقابلة الفنية والعلمية معنا، ودفعنا إلى اللجنة المقررة التي بيدها البتّ في أمر التعاقد ..

أذكر أنهما كانا اثنين أما رئيس اللجنة فهو إماراتي واسمه عبد الحكيم وكان الثاني سودانياً نسيت اسمه، وهو الآن مسؤول كبير في تلفزيون السودان؟. أول الأسئلة كان: لماذا توّد العمل في الإمارات؟

قلت: لأبني مستقبلي وأرتفع بمستواي المادي، ثم لأشارك في بناء جيل عربي مسلم في الإمارات فهذا واجب إسلامي ..

ضحك عبد الحكيم وصاحبه، فسألتهما: أهنأك ما يستدعي الضحك؟! قال: أنت الوحيد الذي صدق معنا، فتحدّث عن نفسه أولاً، وعن المسيرة التعليمية في الإمارات ثانياً.. كان الجميع يتناسون أنفسهم، ولا يذكرون سوى تنشئة جيل عربي في دولة الإمارات "الشقيقة" وعلى هذا فأنت -وإن كنت آخرهم مقابلة- أولهم تعييناً.. قلت: الحمد لله، هذا ديدني في الحياة، فقد علمنا الخليفة الثاني الفاروق رضي الله عنه: أن نأكل اللقمة بعز، فما قُدّر لنا فهو كائن، فقال: "ويحك كلها بعز ولا تأكلها بذل ."

سألني أتعرف الإمارات؟ قلت: درسنا ونحن صغار إمارة الشارقة، وكنا نسمع في الستينيات إذاعتها وأسمع بـ "أبي ظبي" قال: وديي؟ قلت: لم أسمع بها ..

قال: هي الآن العاصمة التربوية والاقتصادية.. كان الأمر يسيراً بعون الله تعالى، فالمدرسون يقدمون أوراقهم ضمن شروط إذا انطبقت عليهم أخذتها البعثة التعليمية الإماراتية في شهر أيار ( مايو ) ثم ينتخبون في دبي أصلح الطلبات، ويعلنون في سفارتهم في عمان أسماء المرشحين للمقابلة.. ويحددون أسبوعاً لها.. ونحن قدمنا إلى مكان المقابلة في اليوم الأخير معنا أمران اثنان: التوصية.. وقل واسطة، ثم الخبرة التربوية والثقة في النفس، ولا أكون بذلك مغالياً إلا أن الفضل أوله وآخره لله سبحانه وتعالى ثم للأخ ثم لأخي أنس والأستاذ سليمان، أما السويدي عبد الحكيم فقد كان واعياً ولطيفاً وظريفاً، والأخ السوداني كان دائم البسمة ذكي النظرة .

نحن الآن في الزرقاء وفي شهر آب "أغسطس" تقول لي زوجتي: أمن العدل أن تزور العراق أكثر من مرة دون أن أراها؟

قلت: ترينها إن شاء الله في الصيف. قالت: وأين نحن من الصيف القادم؟ أمانا عشرون يوماً للسفر إلى الإمارات، والكلية أغلقت أبوابها ونحن في العطلة الصيفية.. ما رأيك في السفر إلى بغداد؟ وباعتباري رجلاً والكلمة الأخيرة لي قلت لها: أنا حاضر.. وهل يملك الزوج المطيع إلا أن يطيع؟!.. كانت الوالدة رحمها الله تعالى تقول لي: اسمك الآن مطيع وليس عثمان..

— والمقصد معروف - فكنت أرد وما اسم والدي الآن يا أمي؟ فتعبس عبوس الضاحك، وتجيّب أنت مثل أبيك يا ولد؟ فأقول لها: من شابه أباه فما ظلم، فترشقني بعبارات لا أحلى ولا أجمل، تملؤني نشوة فأسترسل في الضحك والمداعبة، فتدفعني بلطف فأمسك بيديها أقبلهما وأحوطها بذراعيّ فتقبلني كأنني طفل صغير.. نعم، أنا صغير بين يديها، وطفل عند قدميها..

رحمها الله تعالى، ورحم أمهاتكم وآباءكم .

حملنا إلى بغداد حقائبنا وفي بعضها بضاعة يرغبها العراقيون فبعناها هناك وربحنا ثمن

بطاقتي السفر إلى الإمارات.. وطوّفت بزوجتي كثيراً من الأماكن الأثرية والدينية في بغداد..  
وعدنا لنستقل الطائرة إلى دبي ونبدأ رحلة جديدة إلى المجهول.. وهذه هي الحياة .



## الإمارات ( ١ )

مساء العشرين من أيلول عام اثنين وثمانين وتسع مئة وألف ودعت الوالدين رحمهما الله تعالى في بيتهما وانطلقنا أنا وزوجتي إلى مطار عمان في بلدة (ماركا) وانتظمتنا في الصف المؤدي إلى إجراءات السفر والتأكد من صلاحية التذاكر ووزن الأمتعة.. وجاء دورنا، فقدمت إليه البطاقتين إلى دبي ودفعت المتاع إلى الوزن، وكانت الأمتعة كثيرة فنحن مسافران من الأردن نهائياً - كما كنا نظن فهي ليست بلدنا وإن احتضنتنا أكثر من سنتين ونحن، كما كنا نظن، عائدون إلى سورية إن عاجلاً أو آجلاً. و(آجلاً) هذه ما كنا نتخيل أنها ستطول ثلاثة عقود تقريباً . وعلى هذا فالوزن زاد خمسين كيلو جراماً عن الأربعين المجانية، وقد ندفع للوزن مبلغاً يتجاوز خمس مئة دولار، كل هذا كان في الحسبان، أما ما كان من تقدير الله تعالى فقد كان لصالحنا دون أن ندري ولو خططنا له لما كان أفضل مما حصل ..

قال الموظف: ليست عندكم OK .

قلت: وكيف؟ هاتان البطاقتان فيهما ذلك .

قال: كان يجب أن تثبتا الحجز قبل السفر بيومين .

قلت: والآن ماذا نفعل؟ وأمتعتنا معنا وقد ودعنا الأهل والأصدقاء؟! !

قال: تذهبان إلى أقرب مركز تابع لشركة طيران عالية، فتثبتان الحجز في أول طائرة متجهة

إلى دبي، وسيكون حظكما رائعاً إن وجدتما مكانين، فهذه أيام العودة إلى الخليج، وقلّ أن يجد

أحدهم مكاناً في الوقت الذي يريد ..

نظر أحدنا إلى الآخر محوقلاً، مسترجعاً. لقد تركنا بيتنا وسلّمنا مفتاحه لصاحبه وسنعود

لنبقى في بيت الوالدين .

قال أحد العاملين :

-انتظرا قليلاً، فقد يتأخر بعض المسافرين فتأخذان كرسيين ولا تبتعدا عن المكان ..

وبعد قليل سمعنا من يقول :

-النداء الأخير إلى المسافرين على خطوط الملكية الأردنية (عالية) التوجه فوراً إلى

القاعة ...

وجاء أحد الموظفين مسرعاً يقول لمسؤوله :

-هناك عشرة أماكن، أرجو الإسراع ..

طلب إلينا الموظف، وكنا سبعة، أن نعطيه البطاقات وجوازات السفر وحملنا الأمتعة

فدفعناها إلى الوزن -دون أن توزن- فهم مسرعون.. وهكذا.. كنا على متن الطائرة بعد أقل

من نصف الساعة، وأخذنا مكاننا بين المسافرين ووفروا علينا مبلغ خمس مئة دولار.. كنا

سندفعها لو أننا ثبتنا الحجز قبل يومين من السفر.. وأقلعت الطائرة نحو المجهول.. وسلمنا أمرنا

إلى الله تعالى ..

### الإمارات في اليوم الأول

وصلت الطائرة إلى مطار دبي قبل الفجر من يوم الجمعة بساعتين تقريباً وفتح باب

الطائرة، وبدأ الناس يخرجون منها، وحين وصلت إلى الباب وصرت أمامه عدت فجأة خطوة

إلى الخلف فقد لفحني الهواء الحار المبلل وظننت نفسي داخلاً إلى حمام شامي - لقد كانت

درجة الحرارة مرتفعة ويزيدها حرارة أن نسبة الرطوبة فيها عالية.. هذا الجو عايشناه ستة عشر

عاماً فأنسانا - تقريباً - جو الشام الرائع حتى عدنا إليه .

واستقبلنا مندوبان عن وزارة التربية الإماراتية.. كنا حوالي اثني عشر مدرساً ومدرسة، وركبنا باصاً صغيراً، كانوا يريدون استضافتنا في مسكن للمدرسات العزباوات أو اللواتي جئن دون أزواجهن، إحدى المدرسات اللواتي كن يعملن مع زوجتي في كلية المجتمع الإسلامي في الزرقاء لحقت بزوجها في الإمارات قبل أشهر من سفرنا أعطتها رقم الهاتف وطلبت إليها بالراح -لأنها صديقتها- أن ننزل عندهما في الأيام الأولى من مجيئنا وذكرت أنهما يسكنان في عجمان، وكان زوجها عبد الله الخطيب مدرساً للتربية الإسلامية في عجمان نفسها، وارتقى موجهاً للمادة نفسها قبل أن نترك الإمارات عائدين إلى الأردن بعد ستة عشر عاماً من ذهابنا إليها .

قلت للمندوب، وكان فلسطينياً مثل صاحبنا الخطيب :

-أتعرف الأستاذ عبد الله الخطيب في عجمان؟

قال هو صاحبي .

قلنا: خذنا إلى بيته، جزاك الله خيراً .

قال برحابة صدر: كما تشاءان ..

وانطلق الباص يحملنا جميعاً، وأنزل بعض الزملاء في مساكن قريبة من أماكن عملهم

وأوصلنا إلى عجمان.. إلى بيت الأستاذ عبد الله ..

وطرقنا الباب قائلين: إنه قد أذن للفجر أو كاد ولا بد أن هذا الأخ يجهز نفسه لصلاة

الفجر، فلن نكون ثقلاء حين نطرق بابه ..

لم يفتح الباب لأن الرجل وأسرته ذهبوا في عطلة نهاية الأسبوع إلى الفجيرة في زيارة أخته

هناك .



هذا ما قاله الأستاذ الحموي أحمد منصور مدرس اللغة العربية، جاره، حين رنَّ جرس البيت كثيراً.. كان المندوب معنا فقال: آخذكما إلى بيتي أو إلى أحد المساكن - كما تشاءان ..

فقلنا له: بل خذنا إلى أقرب مسجد كبير في البلدة ..

وهكذا كان ففي مدخل مدينة عجمان وعلى بعد مئات الأمتار على اليمين بناءان كبيران في ذلك الوقت كل منهما يحوي ثمانية طوابق، في كل طابق أربع شقق وأمامهما مسجد كبير، بناهما والمسجد ثري من الكويت لقبه (الحساوي) وله في الشارقة برج عال كان يعد أعلى بناء فيها، ارتفاعه سبعة عشر طابقاً (دوراً) .

دخلنا المسجد، ووضعنا الحقيب في مدخله، وكان المصلون يتقاطرون إلى محرابه، وكان دخول زوجتي - صلاة الفجر - خارجاً عن المألوف، فقد كانت النساء يصلين الفجر خاصة في بيوتهن، فرأيت نظرات المصلين ترسم علامات الاستفهام والتعجب إذ رأوها تتجه إلى خلف صفوفهم في الزاوية البعيدة ذات الضوء الخافت، وخطوت إلى الصف الثالث فصليت تحية المسجد وسنة الفجر، ثم جاءت عينا في وجوه المصلين تبحث عن وجه شامي ترتاحان إليه.. ورأيته فقد كان دمشقياً في الأربعين من عمره لطيف النظر حيي المنظر، تقدمت إليه، وعرفته بنفسي وسألته إن كان بين المصلين حلي يعرفني عليه فأمضي الليلة عنده.. ابتسم وابتسمت بدوري ثم أقيمت الصلاة، فأديناها ثم صحبنا الرجل إلى شقته وحمل معي الحقيب، وكان بيته في أحد البناءين المقابلين للمسجد .

كانت زوجته مثله لطفاً وأخلاقاً فاستقبلت أم حسان كعادة "الشوام" الدمشقيين، وقدمنا لنا شيئاً من خفيف الطعام ثم قادانا إلى غرفة صغيرة نظيفة سرعان ما استلقينا على فراش مُعد

نظيف وغططنا في سبات عميق .

بعد ثلاث ساعات سمعنا طرقاتاً على الباب، وصوتاً نسائياً عرفنا فيه صاحبة البيت التي قدمت لزوجتي إفطاراً أقل ما يوصف أنه يدل على ذوق وفهم، ثم عدنا إلى النوم لنصحو على صوت الرجل يدعوني إلى صلاة الجمعة، فتوضأت ونزلت معه.. ما أجمل أن يكون المسجد على خطوات من البيت !!

كان الخطيب حمويًا اسمه إبراهيم اليوسف، وكانت خطبته نارية كال فيها للنظام السوري من الهجاء وهاجمه فيها هجومًا عنيفًا، وهذا الرجل كان يظن أن أيام البعث قاربت على الانتهاء فركب موجة المعارضة الإسلامية، فلما طال الأمر عليه زار السفير السوري في الإمارات واعتذر عما بدر من "سوء أدبه" وزعم أنه رأى حافظ الأسد في المنام يدعو إليه، إلى الحق والهدى!! وتاب عن دينه وخلقه وأتاب إلى النظام وتاب ونزل إلى دمشق معززاً مكرماً يلهج بالثناء ويكيل المديح لمن ذبح من أبناء مدينته فقط أكثر من ثلاثين ألفاً على رواية "باتريك سيل" خمسة وأربعين ألفاً منهم.. ويوم القيامة قريب لذوي الأبصار والعقول: "إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ."

وعدنا إلى بيت الرجل، وأنا أفكر أن أعتذر إليه بعد الغداء، وأطلب منه أن يوصلنا إلى أقرب فندق، فقد أحجلني كرمه ولطفه، وما إن استقرّ بنا المقام حتى قرع جرس البيت وكانت المفاجأة السارة التي ردت إليّ روحي، وملاّت بالبشر جوانحي.. لقد دخل الأخ الحبيب وليد الحجار "أبو بكرى" ولم أكن رأيت منذ اثني عشر عاماً، أو يزيد، فقد كنا في جامعة حلب، هو في العلوم السياسية والإدارية، وأنا في الآداب وكان عناق وشوق وسلام حار، يقول مضيفنا :

-من رأى أحبابه نسي أصحابه .

قلت صادقاً: لا أنسى -والله- فضلك، فقد غمرتني به وأحطتني وقت الحاجة بالأخوة، وهيات لي أسباب الراحة، فأنا وزوجتي مدينان لأسرتك مقرّان بشمائلكم السامية إلى يوم لذيذ، فجزاكم الله كل خير، وحباكم وافر الأجر .

وانتقلنا بعد الغداء إلى الطابق الرابع.. إلى دار أبي بكري، فتمم وزوجته الفضل الذي بدأه صاحبنا الدمشقي، وأبياً إلا أن نمكث عندهما إلى أن نستلم العمل الذي جئنا به .  
حين كلمنا الوالدين في عمان أخبرناهما أننا في الإمارات نفتح نوافذ الغرف كي يدخل الهواء الساخن فينعش النفوس.. والعادة في بلاد الشام وغيرها من البلدان المعتدلة أن الإنسان يفتح النوافذ لتدخل النسائم الباردة اللطيفة في الصيف إلى الغرف فتدغدغه وتبعث لشديد البرودة في أعطافه وتخفف من الجو القاتم فيها. أما عند أبي بكري والهواء البارد المنبعث من المكيفات المركزية يقرص الأجسام فنضطر إلى فتح النوافذ قليلاً للهواء الرطب الحار فنوازن الحرارة ونجعلها معتدلة ..

قضينا عند الأخ وليد أسبوعين ثم أصرّ الأخ أبو مجاهد أن ننتقل إليه، فأجبنا طلبه، وكي لا نثقل على الأخ وليد.. فمن أبو مجاهد؟

أخ حلبي من دار الأصيل اسمه زهير، كان في الصف الثالث الابتدائي في مدرسة العرفان في سوق الحمص قرب مسجد بني أمية الكبير في حلب، حين كنت وأخوه منذر في الصف الرابع ونجلس معاً في مقعد كبير واحد، وعلى الرغم من أنه أصغر منا كان أطول قليلاً، وكثير الحركة، يسابق هذا ويصارع هذا، وكان ما يزال لطيف المعشر حلو الحديث، دائم البسمة، كريم الطبع، جميل الصورة والصوت وما أكثر الأمسيات التي تعد بالمئات قضيناها في ربوع الإمارات نستمتع إلى "مواويله" وأناشيده يؤديها بإتقان، فتتهتر نفوسنا طرباً وأرواحنا نشوة..

مكثنا عنده أسبوعين آخرين إلى أن التحقت أم حسان بإعدادية الشارقة وعينت في إعدادية "السعيدية" في دبي.. واستأجرنا شقة في الشارقة قريبة من مدرستها ست عشرة سنة.. منذ قدمنا الإمارات إلى أن غادرناها .

## دبي

فما دبي؟.. صدق من سماها لؤلؤة الخليج ..

تقسم الإمارات العربية المتحدة إلى سبع هي على التوالي من الغرب إلى الشرق: أبو ظبي، دبي، الشارقة، عجمان، أم القيوين، رأس الخيمة، الفجيرة .  
وإمارة أبو ظبي - العمود الفقري لهذه الدولة - تحتل -تقريباً- خمسة أسداس مساحة الدولة، والسدس الباقي للإمارات الست مجتمعة .

تأتي بعدها في المكانة والترتيب إلى الشرق: دبي.. وهي مدينة ساحلية على الخليج، كانت فيما مضى شرق خور دبي، بينه وبين الشارقة ويسمى "الديرة" وهو أصل دبي، فلما اتسع العمران وكبرت المدينة تجاوزت الخور إلى الغرب، فكان هذا القسم أكبر وأرحب وأنشئ بشكل عصري يأخذ بالألباب وسمي "البرّ" .

والقائمون على هذه المدينة -شيوخها وحكامها- أكثر انفتاحاً من غيرهم على الحضارة والمدنيّة، يسايرونها ويسرعون في تجميلها والاعتناء بها، وجعلها إمارة عصرية وسوقاً عالمياً للتجارة.. اعتمدت على البترول في نهضتها التجارية، إلا أنها تتجه أن تكون "هونج كونج" الشرق الأوسط فهي تستقطب الشركات العالمية، والمؤسسات الضخمة في ميناء "جبل علي" وكل مناحي الإمارة .

شوارعها عريضة، وأبنيتها ضخمة متناسقة، تتفنّن في أشكالها، حدائقها كثيرة وكبيرة

ومجهزة بما يريح القاصدين ويمتع المتنزهين ويستجلبهم من الإمارات الأخرى والبلدان القريبة والبعيدة، فهي تستقطب الزائرين في مهرجاناتها الشتوية والصيفية على حد سواء .

وعلى الرغم من أنها مدينة تستهوي النفوس والمشاعر، قامت السياحة فيها على تيسير كل السبل للقادمين من فساد أخلاقي مقنن وديني متعمد قائم على الاقتصاد الربوي والميوعة والانحلال والسقوط الذريع في عنف المادية .

ولعل القصيدة التالية التي ألقيتها في أحد الاحتفالات باليويل الفضي لاتحاد الإمارات ينبئ عن مرارة في القلب فارت وآهات في الفؤاد ثارت، لم أستطع كبتها فكانت من أسباب انتهاء العمل والخروج من الإمارات ..

قلت هذه القصيدة بعنوان: "إلى الأحباب "

كنتُ قد زوّيتُ في نفسي كلاماً عاطفياً

كي أجازي الصحب شعراً، يعبقُ الأنفاس ربّياً

أسأل الله لإخواني.. صفاءً أبدياً

في الإمارات وفضلاً من عطاياه ندياً

ثم أمضي.. قد زعمتُ أنني قدّمت شيئاً

أو يقول الناس: إني شاعر طلق المحيّا

عاش دهرًا بين قومٍ فانبرى فيهم وحيّا

كان ذوقاً منه أن يُهدي وشاحاً سندسيا

ثم قلت: الفرخُ فرحي، كلنا مني إليّا

إن يكونوا من دبي.. أو أكنّي حلبيا

فالإمارات بلادي.. حبها فرضٌ عليّا  
عشت فيها خير أيامي شباباً حيويّا  
نلتُ فيها الأمن، والأنس، وقد كان عصيّا  
نلت فيها الراحة الكبرى، وقد عشتُ هنيّا  
فالهوى يطلب مني نصحهم نصحاً رضيّا  
ليس فيه من مرءٍ، لا أحابيهم دجيّا  
إنما فيه وداد خالص ينمو زكيّا  
أسسه "التقوى" وقد أفلح من كان تقيّا

\* \* \*

هل من "التقوى" اقتصادٌ قد تفسى رويّا  
يغضب المولى، فيودي من تعاطاه صليّا  
هل من "التقوى" اهتمام صارخ يبدو جليّا؟!  
بالأغاني مائعاتٍ، قد ملأن الجو غيّا  
والصبايا مائلات، والحننا يهوي دنيّا؟  
فانزوى الطهر حزينا، واختفى الدين حيّا  
هل من "التقوى" شيوعٌ للهوى للهوى دويّا  
وانفلاتٌ من عرى الأخلاق ينسأح عتيّا؟  
يجعل الشبان بالإفساد.. مسخاً آدميّا!  
لا إلى الإسلام يُنمى، بل هجينا أميّا

\* \* \*

وحدة قامت على الأخلاق أولى أن تزيًا

بالهدى يرفع ذكراً، والضيا يسمو عليًا

ثم شرع الله، يحيا الشعب فيه عبقرًا

\* \* \*

أفلح الإنسان لما كان لله "تقيًا".

وهذا لا يعني أن الإمارة تخلو من الجمعيات الخيرية، والمؤسسات الأخلاقية التربوية، والمهرجانات الإسلامية التي تقام في المناسبات، ويدعى إليها العلماء والأساتذة.. ويصرف لها المال الوافر، إلا أنها "ديكورات كرتونية" أو ورود متفتحة في مزابل تكتم الروائح العطرة وتندھا في عاتي أسنها وتنتھا. ولا ينطبق هذا على دبي وحدها إنما تتسابق إلى تلك الحمأة باقي الإمارات ..

### الشارقة

إلى الشرق من دبي على ساحل الخليج مدينة كدبي إلا أن صارخ الإثارة فيها أقل، والهدوء فيها أكثر، وكثير من شوارعها عريض أما غالب البناء فيها فمكتظ دون نظام، وتكاد تختنق وأنت تسير في بعض أحيائها لقرب البناء بعضه من بعض، كحي "البوطنية" مثلاً، فعلى الرغم من كثرة البناء والسيارات فإن الشوارع والأزقة ضيقة، والترتيب فيها يكاد ينعدم، أما في الطرف الجنوبي منها وقرب المطار فالشوارع عريضة نظيفة، يسكنها المواطنون الإماراتيون من أبناء الطبقة الغنيّة، وهي في معظمها قصور وفيلات، ويحيط بالمدينة بعض المنتزهات الواسعة يقصدها أهل المدينة والزائرون ومطار الشارقة أصغر من مطار دبي بكثير إلا أنه مرتّب ومنظّم

ويهتم حاكمها -وهو مثقف- بالعلوم والثقافة.. إذ ساعد على أن تكون حاضرتة مركزاً ثقافياً مرموقاً، فأسس جامعة الشارقة، والجامعة الأمريكية، وقاعة أفريقيا.. ودعم كثيراً من الأنشطة المكتبية والمهرجانات الأدبية، ومعرض الكتب "أكسبو" في الشارقة، ومعرض التاريخ والأحياء المائية على طريق المطار خير دليل على ذلك .

وكان بين دبي والشارقة فراغ يتجاوز أربعة كيلو مترات لم تكن إحداها تسمح للأخرى في السبعينيات والثمانينيات أن تمتد إليها، لكن الاكتظاظ السكاني والتقارب الإداري السياسي أدى إلى عمارها واتصال البناء بينهما .

من معالم الشارقة أيضاً البحيرة المستديرة ونافورتها العالية.. والدورات الكبيرة التي تحيط بها الأبنية الحكومية على الطريقة الرومانية، ولا أنسى أحد الدورات كتب فيه بالزهور والورود على الناحية الشمالية، وباللغة الإنجليزية ابتسم أنت في الشارقة smile you are in sharjah وفي العربية كتبت الجملة نفسها على الجانب الجنوبي، وكنت في عام خمسة وثمانين قد اشتريت لزوجتي سيارة صغيرة جديدة من الوكالة وكان نوعها MAZDA مازدا فصدمت إحدى السيارات فاتصلت بي قائلة :

-صدمتُ إحدى السيارات عند ابتسم أنت في الشارقة ناحية اللغة الإنجليزية .

وكانت خائفة مرتبكة فقلت لها :

هذا لأنك لا تعرفين هذه اللغة، ولو كنت تعرفينها لما حصل شيء .

فقلت حين وافيتها بعد دقائق :

-لقد هدأت نفسي حين ألقيت هذه الدعابة ..

كان البيت كما ذكرت قريباً من مدرسة أم حسان أما مدرستي فكانت تبعد عن البيت



قريب خمسة وعشرين كيلو متر، في برّ دبي، بعد الخور في حيّ جديد تدعى المدرسة "إعدادية السعيدية" مديرتها أخ فلسطيني "محمد صلاح مسّاد" يمتاز بالنشاط وعلو الهمة وقوة الشخصية وحب الخير، وهذه الصفات قلّ أن تجتمع في إنسان، ولكن الله إذا أراد إكرام عبد فعل ما شاء وقد ذكّرني بقصة الأشج ابن عبد قيس حين مدحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقال :  
"إن فيك خصلتين يجبهما الله ورسوله: الحلم والأناة ."

وتعرفت إلى الأخ الحبيب الكريم العراقي "جاسم الدوري" وهو غاية في اللطف والأدب وحسن الأخلاق وكان مدرساً للتربية الإسلامية، وتعرفت إلى أخ فلسطيني مهذب يدرس التربية الإسلامية كذلك يدعى "عبد الله القيسي" دائم البسمة .

كان الوالد والوالدة وحدهما في عمان وقد تفرّق أولادهما إلى البلاد العربية الأخرى يعملون فأنا في الإمارات والثاني في اليمن، الثالث طالب في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، والرابع لا يكاد يستقر في عمان والبنت الكبيرة اعتقل زوجها وأخوها الخامس في حلب فلم تتبعنا والصغيرة تزوجت ثم سافرت وزوجها إلى اليمن .

وجد الوالدان نفسيهما وحيدين في عمان فسافرا شتاء إلى الديار المقدسة للحج فلما عادا بدأ العدّ العكسي للوالد رحمه الله تعالى، وكنت أتصل بهما كثيراً أتابع حالته الصحية، وحين زرتهما في الصيف في "جبل التاج" في عمان رأيت أن من الأفضل أن يكونا في بيتي وتحت رعايتي، وتذكرت كلمة "عندك" في قوله تعالى: ( إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ) ..

عدت إلى دبي وقصدت المحكمة مع الأستاذين "الدوري والقيسي" ليشهدا أنني كفيل الوالد فأستخرج -بناء على ذلك- إقامة الوالدين في الإمارات.. وكان القاضي "سودانياً" ذكياً

لبيباً فسألني سؤالاً واحداً :

-أليس لوالدك أولاد غيرك وأملاك تكفيه؟

قلت: له أولاد غيري لكنني أكبرهم وأيسرهم، أما ما يملكه ففي حلب وليس له هناك من يخدمهما، ولا يستطيعان الذهاب، فقد أهدر النظام دم الوالد لأنه أب لشباب مسلمين مؤمنين يطاردهم النظام .

قال موجهاً خطابه للأستاذين الدوري والقيسي :

-عراقي وفلسطيني يشهدان لسوري في والده الذي لا يعرفانه ولم يرياه؟

قالا: خبرنا صدق زميلنا طيلة السنة الدراسية الماضية، فهل من بأس؟

قال: حيّا الله أصلكما.. إن الطيور على أشكالها تقع ..

ثم أمضى الأمر وهو يقول :

-برّ والديك وأحسن إليهما حياتهما .

ونظر إليّ مبتسماً وأكمل :

-يعتبر محتاجاً من ملك المال ولم يستطع التصرف فيه ..

ثم شيعنا وهو يوصيني :

- كن لهما كلّ أولادهما، فلعل الله تعالى يريد بك الخير واجعلهما تحت جناحيك..

فالجنة عندهما وتحت أقدامهما ..

نعم يا سيدي القاضي أحسنَ الله إليك، ومتّع الله بك، وأجزل المثوبة إليك. يا رب

اجعلني عند حسن ظنّك بي .

وخرجنا وأنا أبكي من الفرح .

## الإمارات ( ٢ )

### "عجمان"

لئن كان ما بين الشارقة ودبي أقل من خمسة كيلو مترات من المسافة التي كانت فارغة - وقد بنيت اليوم بشكل عصري يبهج المنظر - فليس بين الشارقة وعجمان، وهي إلى الشرق من الشارقة، أي فاصل، إلا الشارع على يمينه دور ومحلات تتبع الشارقة وعلى الطرف المقابل دور ومحلات تتبع عجمان، وتقف سيارة شرطة كل منهما على حدودها لا تتدخل فيما يجري في الطرف الآخر إلا للمساعدة - إن طلبت - أو للزيارة.. وهذا يذكرنا بأصابع البريطانيين الخبيثة في زرع الفتن والكراهية بين الناس، والحكام.. فهذا لي وهذا لك، ولا تتعد حدودي" وكن مني على حذر" وإياك والاقتراب من عريني.. وما إلى ذلك من خلق للضغائن وتثبيت للأناية، وقضاء على الشعور بالأخوة .

عجمان شبه منحرف قاعدته على شاطئ الخليج أحد عشر كيلو متراً، وقاعدته الأخرى في الصحراء ثلاثة عشر كيلو متراً وبينهما ضلعان طولهما ستة وعشرون كيلو متراً.. وهذه "المزرعة" الصغيرة تدعى إمارة لها ما للدول الكبرى من حكومة وتوابع وهيكل الدولة..!! واقتصادها يقوم على مساعدة الأخت الكبرى لها "أبو ظبي" وما تبيعه من خمور محلية ومستوردة للإمارات الأخرى فهي بحمد الله إمارة مسلمة واقتصادها حلال !!..

وقد سمح للعرب أن يبنوا جنوب عجمان مدينة "النعيميّة" وأن يملكوا فيها البيوت والمحلات التجارية، وكانت الشارقة مثلها تسمح للعرب أن يشتروا العمارات والدور، ولكن بضغط من حكومة "أبي ظبي" منعنا ذلك، فلا يجوز بعد عام سبعة وتسعين وتسع مئة وألف

إلا للإماراتيين أن يملكوا الأرض وما عليها.. ولا أنسى أن أقول: لم تكن "دبي" تسمح لأهل "أبو ظبي" ولا "أبو ظبي" لأهل "دبي" أن يشتروا الأرض أو العقارات في الإمارة الأخرى، فهل يُسمح للعربي "الوافد" أن يفعل ذلك؟

ونحمد الله تعالى أنهم يسموننا في الإمارات "وافدين" وهي -أي هذه الكلمة- إشعار لنا بالغبرة، فلو عشت أيها العربي عقوداً من الزمن في الخليج فأنت غريب.. غريب.. نحمد الله أننا "وافدون" فالسعودية تطلق على العرب والمسلمين القادمين إليها "الأجانب" وهي كلمة أشدّ وطأً من "الوافدين" وأكثر إيلاماً.. وقد كان ما أرادت بريطانيا وأوروبا من زرع الفرقة والتباعد بين المسلمين، والإيهام لكل أهل بلد أن لهم سمات تخالف بعض سمات إخوانهم في البلدان الإسلامية المجاورة، ونجحت في طريقتها "فرّق تسدّ" في بعثرة الأمة، وإضعافها إلى أزمان، لا يعلم إلا الله متى تعود فيه إلى رشدها .

### "أم القيوين"

خامس الإمارات من حيث الترتيب الجغرافي إلى الشرق الجنوبي من عجمان، وهي أصغر منها عدد سكان، فما كان أهلها الأصليون يتجاوزون سبعة آلاف نسمة.. ومساحتها أكبر من مساحة عجمان، وتقع على رأس يحيط به الخليج وبحيرة كبيرة تكاد تكون مستديرة الشكل تبهج الناظرين، أكثر سكانها صيادون، وأميرها الضاحك دائماً لا يفارق رئيس الدولة في الحل والترحال، وحسب التعداد السكاني لعام ستة وثمانين وتسع مئة وألف كان عدد الناس من كل الأعراق مليوناً وست مئة ألف ١٨% ثمان عشرة بالمئة منهم مواطنون ومتجنّسون وأكثر هؤلاء المتجنّسين من إيران "بلوشستان" ومن الهند وأغلب المواطنين يتكلمون "الأوردو" لغة الهند والباكستان .

أما الهنود فذكرت الإحصائية أنهم ٣٦% ستة وثلاثون بالمئة، والباكستانيون ٢٦% ستة وعشرون بالمئة، وهذا يعني أن ٧٥% خمسة وسبعين بالمئة من سكان الإمارات يتحدثون الأوردو، فلما جاءت "أنديرا غاندي" رئيسة وزراء الهند إلى دولة الإمارات، واستقبلها الهنود قالت: أشعر أنني في إحدى ولايات الهند، واقترح أحدهم تسمية جديدة لدولة الإمارات فقال: "دولة الإمارات الهندية المتحدة" ولعل في هذه التسمية كثيراً من الحق.. فنسبة من يتكلم العربية في الإمارات نفسها لا تتجاوز ٣٠% الثلاثين في المئة .

-وسباق "الهجن" مواسمه كثيرة في كل إمارة، ويصرف على هذه المهرجانات أموال طائلة جعلت المدرسين الاتحاديين بين عام اثنين وثمانين وستة وثمانين يتمنون أن يعملوا مروضين للإبل لا مربين للأولاد، فقد كانت الرواتب تتأخر في هذه الأعوام كثيراً، وضج الموظفون الاتحاديون، وأذكر أننا عام ستة وثمانين أخذنا راتب شهر تشرين الأول في نهاية تشرين الثاني، وقد قلت والمرارة تملأ نفسي ساخراً مما يجري بعد أن علت الهمسات، وبدا التساؤل واضحاً عن التبذير في الصرف على "الهجن" والتأخير عن مربى الأجيال :

راتب الشهر تولى	صرفه للهجن أولى
أو لتجديف ولهوٍ	طعمه أنقى وأحلى
أو لخيلٍ وسباقٍ	أو لهزّ الخصر أهلا
لا تظنّوا أجركم يا	تي إليكم ! ألف كلاً
هذه أحلامٌ غُفِلَ	ترتجي أشياء جُلّي!
كلّ شهر ترتجون الرّ	اتب الطيّار؟ مهلا
فكّروا في غير هذا	لا تعيشوا الدهر جهلا

## "رأس الخيمة"

سادس الإمارات شرقاً بعد أم القيوين، والمسافة بينها وبين الشارقة حوالي ثمانين كيلو متر، تمتاز أرضها أنها ترابية، والزراعة فيها متقدمة نوعاً ما وأمرؤها وأمراء الشارقة من عشائر "القاسميّة" المعروفة بجهادها القديم ضد البرتغاليين والإنجليز، وعلاقة حكاهما متميزة، والتمسك بالدين في هاتين الإمارتين أربى من غيرهما ..

ورأس الخيمة يقسمها خور بحري إلى قسمين جديدهما إلى الشرق على حدود عُمان "الهرمزية" فرأس هرمز على فم الخليج يتبع عُمان، وهذه المنطقة من عُمان يفصل بينها وبين الدولة الأم رأس الخيمة "وخورفكان" وهي تابعة للشارقة ثم إمارة الفجيرة .

وهذا التداخل بين الإمارات وعمان كثير، صنعه الإنجليز حتى يظلوا المرجع لنزاعات هذه الإمارات .

وكانت الإمارات تسمى في أوائل القرن العشرين "المشيخات المتصارعة" ثم صار اسمها "المشيخات المتهادنة" ثم "المشيخات المتصالحة" ثم "الإمارات العربية المتحدة" .

ففي منطقة "الرّدة" دبا حيث حروب الرّدة بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين مسيلمة الكذاب، نجد سهلاً تقاسمه دولة عمان وإمارة الفجيرة وإمارة الشارقة، وحين تذهب إلى "العين" وهي مدينة تابعة لإمارة أبي ظبي من طريق دبي تدخل عدة كيلو مترات في ولاية "البريمي" التابعة لعمان، وتجد بين "خورفكان" و"الفجيرة" قرية تابعة لعمان، ناهيك عن تداخل القرى والأفلاج بين مجموع الإمارات وكل واحدة تتبع إمارة أخرى.. وتعارف الناس على هذا ورضي كل أمير بقسمته، وقد تطفو على السطح فيها بعض النزاعات غير المؤثرة في الحياة اليومية كثيراً .

فإذا ما انطلقت من الشارقة جنوباً خمسين كيلو متراً مررت على مطار الشارقة وبعض  
المنتزهات الجميلة لهذه الإمارة، فوصلت إلى بلدة "الذيد" التابعة للشارقة، وهي واحة عذبة  
المياه كثيرة المزارع طيبة الهواء، بدأت المدينة تغلفها من نواحيها كلها، وإلى شرقها الشمالي "فلج  
المعلا" التابعة لأم القيوين، وهي امتداد لواحة الذيد، بدأت كذلك الحضارة تدخلها فإذا  
انطلقت إلى الشرق الجنوبي باتجاه الفجيرة وصلت بعد أربعة عشر كيلو متر إلى منطقة تابعة  
للفجيرة تدعى "السيحي" وما أدراك ما السيحي؟! قبل الدخول إليها تتوقف الصحراء وتبدو  
الأرض ترابية تمتزج ببعض الصخور، فيها وادٍ تملؤه المياه حين تكثر الأمطار، فيجري نهيراً جميلاً  
عذباً رقيقاً.. وفي قرية السيحي سدّ صغير في فم الوادي يجبس الماء فيكون وراءه بركة عمقها  
يزيد على ثلاثة أمتار ومساحتها حوالي أربعة دونمات، ثم تنزل المياه على شكل شلال، فيملأ  
الحفر الطبيعية بين الصخور، فتكون بركاً صغيرة يسبح فيها الصغار والكبار ثم تستوي الأرض  
في وادٍ - كما ذكرت - تستفيد المزارع حوله من مائه، وكثيراً ما كنا نذهب والمطر منهمر إلى  
السيحي لنجلس في السيارة مطلين على السدّ والشلال والبرك، وقد نذهب في اليوم التالي بعد  
الدوام المدرسي لننعم بالغداء هناك بجمال الطبيعة الغناء .

فإذا انطلقنا إلى الشرق كان الوادي رقيقنا، وكثيراً ما ننزل فيه، فنشوي اللحم ونحوض في  
مياهه فيأسرنا إلى الليل فنعود أدراجنا إلى الشارقة، وقد نغالب أسره، فنصل إلى الفجيرة .  
ذُكرني هذا الوادي الجميل ذو الأثر الطيب في نفوسنا ودعوته إيانا للنزول فيه بقصيدة أبي  
الطيب المتنبي يصف "شعب بَوّان" فيها وجذبته الفرسان وخيلهم بجماله وطيب هوائه وكثرة  
مائه وشجره :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

طبت فرساننا والخيل حتى خشيت، وإن كُرم من الحران

## "الفجيرة"

هي الإمارة السابعة على بحر العرب يحدّها من الجنوب سلطنة عُمان، ومن الشمال مدينة خورفكان، وهي ثغر الإمارات الأول على هذا البحر، هواؤها حار، وحرارتها جافة، تعتبر من أفقر الإمارات لكنها في الآونة الأخيرة تحسنت تحسناً ملحوظاً كجارتها خورفكان، اتصلت ببلدة تابعة للشارقة في الشرق "كلباء" ثم عمان، وكان سبب تحسنها حرب العراق الأولى فهي بعيدة عن الخليج، وليست عرضة لصواريخ العراق -إذ ذاك- كما هي أبو ظبي ودبي والشارقة، فإذا سرنا نحو الشمال عشرين كيلو متر وجدنا مدينة "خورفكان" وسميت كذلك لأن البحر دخل فيها خليجاً يحده من طرفيه رأسان من اليابسة، فكأنهما فكان والخليج تجويف الفم.. والمسافة بين هذه المدينة والشارقة مئة وعشرون كيلو متر يستغرق ذهابنا إليها ساعتين تقريباً وكنت أمازح زوجتي فأقول لها لو كانت هذه المدينة حور فك واحدًا لذهبنا إليها في ساعة واحدة، ولكنها "خورفكان".

## "العين"

واحة في صحراء إمارة "أبي ظبي" تبعد عنها مئة وخمسين كيلو متر، وعن دبي مئة وسبعين، كان الطريق إليها في الثمانينات من دبي مزعجاً لكنه في التسعينات صار عريضاً ومريحاً، والاستراحات على الجانبين جيدة، دورها صحراوية واسعة الفناء، شوارعها كلها مزدوجة عريضة، على أطرافها الأشجار الباسقة، والرياض الغناء، وقصور أمرائها كثيرة فخمة وأحيائها نظيفة مريحة تسرّ العين لأنها العين، وتبهج الفؤاد. كلما زرناها شعرنا بالهدوء والراحة



والجمال، تقل الرطوبة فيها على عكس المدن الأخرى، وتشتد حرارتها في النهار بسبب الصحراء وتعتدل في النصف الثاني منه وفي الليل .

فيها حديقة للحيوانات ومنتزه كبير يقضي أحدنا نهاره كله فيه مستروحاً، وفيها منتزه "العين الفايضة" واستراحتها، وهي ماء عذبة أقيم عليها بركة كبيرة، وشقق مفروشة، يقصدها الناس أيام العطل والأعياد من كل أنحاء الدولة، فيستمتعون بجوها وخضرتها، وإلى الغرب منها جبل "حفيت" العالي شقت الطرقات فيه، وجُهزت الاستراحات، فإذا صعدت إليه في النهار -في شدة الحر- داعبتك النسيمات الباردة، وصافحتك لطافتها، فمسحت العرق ولبست شيئاً يشعرك بالدفء، ثم نظرت من بعيد إلى العين وبدأت تترنم وتغني ثم تسبح الله تعالى في بديع صنعه .

كنا نقطع المسافة بين الشارقة والعين الفايضة، وهي قريب المئتين من الكيلو مترات ذهاباً ومثلها إياباً في الأيام العادية، فنصل العصر ونتعدى في هذا المنتزه -على أن يكون ذلك في الليالي المقمرة- ثم نرتقي جبل حفيت، فنطل على الكون من حولنا بضع ساعات لنعود في النصف الثاني من الليل دون تعب أو ملل لنصحو مبكرين إلى صلاة الفجر ثم إلى المدرسة، وكنا إذ ذاك شابين، رحم الله أيام الشباب:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

لقد فعل فعلته فصرنا كهلين بل قريب الستين، ولا تقل :

ليت، وهل ينفع شيئاً ليت ليت شباباً بيع فاشترت

لماذا؟ طبعاً لا تقلها فلكل عمر لذته "وما له بداية له نهاية" أما "مسافى" وهي تابعة

للفجيرة بعد "الذيد" ويتفرع عنها طريقان أحدهما لليمين إلى الفجيرة، والثاني ليسار إلى دبا ،

فجبالها شامخة، ووديانها تجري فيها الجداول وتسكنها الحيوانات الأهلية والضارية، أطللنا عليها كثيراً فهي على إيجاشها رفيق الرومانسيين.. ونحن كذلك .

## "أبو ظبي"

أما العاصمة الاتحادية، فحدّث ولا حرج.. مدينة صرّف على رفع مستواها المعماري حاكمها، فجعلها رائعة البنيان، تسامق السماء، وتطاول السحاب، هي جزيرة موصولة باليابسة بجسر صناعي تنظيمها يأخذ بالألباب، تكثر فيها الحدائق الكبيرة الغناء، وشوارعها مزدوجة عريضة يفصل بين طرفي الشارع جزيرة خضراء، فيها فنادق ضخمة من الدرجات الأولى ذوات النجوم الكثيرة، شاطئها من أقصاه إلى أقصاه بساط أخضر واستراحات فخمة، أما كاسر الأمواج الضخم الممتد حول الجزيرة فهو صرح رائع كلّف الإمارة مئات الملايين من الدراهم ليبدو معلماً حضارياً يقصده الزوّار من كل مكان، وتطل منه على أبي ظبي بأنوارها الكثيرة اللامعة .

هذا من الناحية الإيجابية، أما إذا عدنا إلى قوله تعالى: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" فإننا نجد مصداق ذلك في مناحي الحياة جلّها من فنادق تستقطب العاهرين والعاهرات، وكثرة الخمر، وأماكن البغاء، وصلالات القمار، والمهرجانات المتتابعة على مدار السنة، التي تعكس الفراغ الديني والنفسي، وأبو ظبي في سباق محموم مع دبي في استقدام العروض الفنية والمياعة الخلقية، ويتبدّى أمام كل مؤمن نهاية لا تسرّ الفؤاد لكل المترفين، حين يتلو قوله تعالى :

" وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحقّ عليها القول، فدمرناها

تدميراً ."

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يردهم إلى دينه رداً جميلاً، وأن يدهم على الخير، ويرأف بهم، فما نريد لإخواننا أهل الإمارات ولغيرهم من المسلمين سوى الأمن والأمان والحياة النظيفة الشريفة في ظل شرع الله تعالى .

### "أمر عجيب "

قدمت مرة من أم القيوين وكنت في زيارة للأستاذ الفاضل ذياب القدومي المدرس فيها، عائداً إلى بيتي في الشارقة، ودخلت عجمان حتى وصلت إلى الدوّار قرب جامعة عجمان التكنولوجية، فأذّن للعصر فدخلت مسجد الجامعة، ولما انتهت الصلاة اتجهت نحو الباب، ومما لفت نظري أن شاباً عملاقاً ذا لحية لطيفة كان ينظر إليّ نظرات حسبتها فضولية، ولم أعرفه، فسلمت عليه قائلاً في نفسي لعله ينتظر أحد المصلين من إخوانه أو رفاقه الطلاب فردّ السلام، ولما خرجت من الباب رأيته يناديني باسمي: أستاذ عثمان.. أنا أنتظر، فلم تجاهلتي؟

قلت: ومَنْ أنت يا ولدي؟ وأنى لي أن أعرفك حتى أتجاهلك؟

قال: أنا أحد تلاميذك في ثانوية دبي يا أستاذي .

نظرت إليه متعجباً ثم قلت له مبتسماً: لا أتذكر أن أحد تلاميذي بطول خشبة الكهرباء .

ضحك الشاب وقال: هذه عادتك يا أستاذي، لم تعيّرّها، تدخل إلى القلوب بأسلوبك

الفكاهي المتميز .

قلت: أمتأكد أنك أحد تلاميذي؟ كيف كنت تدخل بين الكرسي والطاولة في الصف؟

ضحك الشاب وقال: لن أذكر اسمي لأنك ستعرفه لو نبهتك إلى جملة كنت تقولها لي .

قلت: هات يا ولدي.. وما أظني أتذكر فأنا كثير النسيان .

قال: لا.. إنك تعرفني جيداً يا أستاذ.. كنت تقول لي: إن اسمك يا ولدي لا يسمى المسلمون أولادهم به في بلاد الشام، فهو خاص بالنصارى، وكنت تقول أيضاً: إنك التلميذ الليبي الوحيد الذي تتلمذ على يديك ..

فتحت له ذراعي وقلبي بآن واحد، وقلت له: أهلاً يا وليد إلياس.. انزل قليلاً حتى أقبل وجنتيك، وأضمك إلى صدري.. كم أنا مشتاق إليك.. كيف غبت عني فلم أعرفك.. حجبك هذا الطول المفرط وهذه اللحية المحببة، والشباب الناهد، حفظك الله يا ولدي .

قال والابتسامة تملأ فمه، ووجهه يشرق بالإيمان :

. أتذكر يا أستاذي ما كنت تغرسه فينا من معاني الإيمان ، وأفكار التوحيد؟ أتذكر قصصك الهادفة والأفكار الإسلامية التي غذيتنا بها؟ لقد نما غرسك يا أستاذي وجاء من يقطف ثمرته، فالفضل لله سبحانه في السير على درب الهداية ثم إليك.. لقد كان كلامك نوراً أضاء لي ولكثير من زملائي في الصف فجزاك الله خيراً عنّا.. وأجزل لك المثوبة .

كانت الدموع تتساقط بغزارة، وأنا الذي لم تعد عيناه الدموع إلا وحيداً كما تساقطت وأنا أسترجع ما قاله لي وأسطر مقاله على هذه الصفحة، وكان قلبي كما هو الآن ينبض بشدة، يا الله إن عملنا معشر المعلمين عمل الأنبياء والمرسلين، اللهم اجعله في صحائف أعمالي ..

ودّعت الشاب على لقاء قريب يشاؤه الله تعالى ونحده نحن مع بعض رفاقه الشباب، وانطلقت إلى الشارقة عن طريق "النعيمية" كان الطريق أمام الجامعة عريضاً مزدوجاً، فما إن انعطفت يميناً في شارع واحد ذي اتجاهين حتى كنت أسير بسرعة ستين كيلو متر في الساعة، وعلى اليسار من الشارع، وسيارة تقترب مني مسرعة أكثر من سيارتي.. لم أنتبه إلا والمسافة

بيننا لا تتجاوز الخمسين متراً، وسيكون الاصطدام مرّوعاً بقوة مئة وخمسين كيلو متر في الساعة، يا الله يا رب.. وحاولت كبّح السيارة وكبّح الرجل اندفاع سيارته، ثم توقفنا وجهاً لوجه.. اصطدم قلبي بقلبه وارتعش جسيمي وارتعش جسمه، لكن السيارتين لم تصطدما، ولم تهتزّا.. نزلت من السيارة لأرى المسافة المتبقية بينهما ..

أتدري أخي القارئ كم كانت؟ لن تصدق إذا قلت لك، كاد صدمّاما السيارتين يلتصقان، بل إنهما ملتصقان، فلم أستطع رؤية الأرض بينهما وسجدت لله سبحانه هو الحفيظ الرؤوف، البر الرحيم.. يا رب لك الحمد، وأنت وليي في الدنيا والآخرة.. ما أعظمك وما أرحمك بعبادك ..



---

---

## الحج الأول

---

---

وصلت إلى البيت مبتهجاً، وأخبرت زوجتي بما كان في المحكمة من تيسير فابتسمت

وقالت :

-أتدري أن ثواب بر الوالدين بدأ يغمرنا من الآن؟

قلت: ماذا تريدان أن تقولي؟

قالت: جاءت زوجة "محمود فتى" من حلب ومعها أربعة آلاف ليرة سورية صرفتها بألفين

وخمس مئة درهم .

قلت: ما مصدرها؟

قالت: أجرة بيتنا مقدماً إلى نهاية هذه السنة (عام ثلاثة وثمانين) ..

كنا قد عدنا من عمان قبل انتهاء الإجازة الصيفية بثلاثة أسابيع لقلة المال بين أيدينا،

فأراد الله تعالى بنا الخير إذ وصلت هذه السيدة في الوقت الذي كنا نحتاج المال فيه .

قالت: لو كان هذا المال بين أيدينا ونحن في عمان ما عدنا سريعاً ..

قلت: أترغبين أن نحج؟

برقت عينها من الفرح الفجائي فقد بلغنا السادسة والثلاثين والمال بين أيدينا والرسول

صلى الله عليه وسلم يقول: "حجّوا قبل ألا تحجّوا ."

قالت: وهل قبول طلبات الحج ما يزال سارياً؟

قلت: نعم فنحن في اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة.. وغداً آخر أيام تقديم أوراق

الحج .

كان الأمر ميسراً، فأغلب الحجاج قد دخلوا البلاد المقدسة، ولم يبق منهم إلا القليل، أما القنصلية السعودية التي كانت قبل أسابيع تزدهم بالناس وتغصّ بهم فتكاد تكون الآن فارغة إلا من أمثالنا ..

قدّمنا الطلبات في اليوم الأخير مع جوازي السفر، واستلمناهما عصر اليوم التالي، وكنا جاهزين للسفر، فسألنا الله تعالى أن يتقبل منّا وسرنا على بركة الله .

كانت الإجراءات على حدود الإمارات سهلة وكذلك على الحدود السعودية، أما في قطر فكان الأمر على تفاهته مزعجاً ومقرفاً، فلماذا؟

أولاً: في بداية الثمانين إلى عام ثمانية وثمانين تقريباً كان على المسافرين من الإمارات إلى السعودية، ومن السعودية إلى الإمارات أن يقطعوا سبعين كيلو متر في صحراء قطر لا نرى فيها "وبراً ولا مدراً" اللهم إلا محطة للبتزول على اليمين وأخرى على الشمال للمسافرين الذين يسرعون دون أن يحتاجوا إليهما فالبنزين في السعودية أرخص بكثير .

ثانياً: لا بد من تفتيش السيارات في قطر داخلاً وخارجاً، ولا أدري لماذا فالدوريات القطرية منتشرة على طول الطريق القصير كما قلت، فطوله سبعون كيلو متر، ولا ترى فيه من الأحياء أناساً كانوا أو حيوانات أحداً، وكلما ذكرت "سودانتيل وأبا سمرة" وهما مركزا الدخول والخروج شعرت بالألم يحزّ نفسي.. فلماذا؟

ثالثاً: الجواب أن ما يفرض من إجراءات شكلية يُقصد به استيفاء ضرائب الدخول والخروج وتأمين السيارة والأشخاص وإثبات أن هناك دولة طولها من ثغر "سلوى" السعودي وحتى آخر ذرة من التراب تمسّ مياه الخليج مئة كيلو متر فقط، وعرضها في أوسع الأماكن ستون كيلو متر.. وأنا متأكد أخيراً أن هناك بعض البشر يتلذذون في إيذاء الناس، ويرتاحون

لتعبهم، ويسعدون لشقائهم .

رابعاً: على الرغم من أنك تدخل السعودية وهي قارة ضخمة تسير فيها آلاف الأميال فإنك تقدم في سفارتها طلباً واحداً عليه صورة شخصية واحدة وتأخذ التأشيرة في زمن لا يتعدى أربعاً وعشرين ساعة .

أما في قطر فإنك تنال التأشيرة في ثمان وأربعين ساعة بعد أن تكتب طلباً من ثلاث نسخ على كل نسخة صورة شخصية، مع العلم أنك تقطع المسافة في قطر في ساعة واحدة، ولا ترى فيها إلا الأرض والسماء.. أليس هذا مزعجاً ومقرفاً كما ذكرت أنفاً؟ !

ولأن المسافرين ضجوا من هذا الأمر كثيراً فقد شقت الإمارات والسعودية طريقاً قريباً من ذلك الطريق لكن ضمن الأراضي السعودية، فارتاح المسافرون من "سودانتييل وأبي سمرة" وقيل: - والعهددة على الراوي - أنهما أرضتا قطراً بمبلغ سنوي يعوّض ما فقدته من ذلك السبيل. ولعل بعض القراء يقولون: قد تحتاج يوماً أن تزور قطراً فلماذا جهرت بما يسهه الآخرون؟! وكل البلاد العربية هكذا؟ فأقول: ما تعودت السكوت على أمر يزعج، ولعل في الصراحة - وإن كانت تؤلم - تنبيهاً لأولي الألباب، ثم إننا في القرن الواحد والعشرين، وصدر الحكومة القطرية كبير يتسع للقيادة الأمريكية في الشرق الأوسط، أفلا يتسع لنقد بسيط من عربي مسلم مقهور؟! !

وصلنا إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فاستأجرنا بيتاً قريباً من المسجد النبوي، وجاء مروان أخي الدارس في الجامعة الإسلامية وبعض أصدقائي وأصدقائه، وكنا نصلي أكثر الأوقات في الحرم النبوي واغتنمت كثيراً الصلاة في الروضة الشريفة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم :



" ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة . "

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الجنة بفضله وكرمه، وزرنا كثيراً من المساجد المشهورة، كمسجد الغمامة وهو قريب من المسجد النبوي ومسجد القبلتين، وسمي بذلك لأن المسلمين كانوا يصلون إلى القدس، فلما نزلت الآية الكريمة :

"قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره . "

كان بعض المسلمين يصلون العصر إلى القدس، فدخل عليهم رجل كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام فأخبرهم أن القبلة تحولت إلى مكة، فاخترق الإمام المصلين ووقف أمامهم إلى المسجد الحرام، والتفتوا جميعاً يتبعونه وعلى هذا سمي مسجد القبلتين، وصرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم صلينا يوماً الفجر في المسجد النبوي، وانطلقنا إلى مسجد قباء فصلينا فيه الضحى، ونلنا بذلك أجر عمرة، فقد روى أحمد والنسائي وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"من خرج حتى يأتي هذا المسجد -يعني مسجد قباء- فيصلي فيه كان كعدل عمرة . "

وزرنا البقيع -مدافن المسلمين- قرب المسجد النبوي ناحية الشرق فدعونا لهم فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي البقيع ويدعو لأصحاب القبور، فيقول :

"السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون . "

وزرنا بعد ذلك موقع غزوة أحد ورأينا جبل الرماة، وقد أزاله السعوديون من مكانه، وزرنا قبور الصحابة رضوان الله عليهم من شهداء هذه الغزوة، ووقفنا أمام سيد الشهداء حمزة،

والسفير الأول للنبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير، وعبد الله ابن جحش ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم والثلاثة في قبر واحد.. وسلمنا على الشهداء من حوله ثم زرنا في يوم آخر موقع غزوة الخندق ورأينا المساجد السبعة التي نسبت للصحابة الكبار في مواقعهم التي نأوشوا منها المشركين، وقيل لي: إن المساجد أزيلت بعد ذلك.. أما مطار المدينة المنورة فقد أقيم في ديار بني قينقاع من اليهود، وهم الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة قبل بني النضير وبني قريظة.. ومررنا بجائط أنس بن مالك رضي الله عنه الذي كان يثمر مرتين في السنة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم أن يبارك في رزقه، وهو الآن مسور يملكه الأمير سلطان ابن عبد العزيز .

تمتاز المدينة برحابة دورها وهدوئها النسبي، ويشكر الحجاج أهلها، ويصفونهم بالأخيار لسهولة أخلاقهم ولطافة معشرهم .

ويوم التروية انطلقنا إلى ذي الحليفة "أبيار علي" بعد أن ودّعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحرمنا هناك وقدت السيارة مسرعاً في الطريق الساحلي -طريق بدر- فلم يكتمل طريق الحجر بعد ..

ما أعظم البيت وأثره الأول في نفس الناظر إليه، كنا ننحدر إليه وقلوبنا تتشوق لرؤيته، وها هو الآن أمامنا، اللهم زده تعظيماً وجلالاً، وطفنا طواف القدوم وسعينا سعي الحج، فقد قررنا الأفراد بالحج، واستقبلنا الأخ الأستاذ رضوان الدباغ في بيته القريب من الحرم، وذهب وأسرته معنا لزيارة البيت الحرام مرة أخرى، ولم يحرمننا -كعادة الحلبيين- من الكبّة، ومحشي ورق العنب "البيرق" وما لذّ وطاب، فزوجته من حلب كذلك، وهي زميلة زوجتي وتعرفها.. وعلى هذا كانت أيام الحج رائقة، هادئة .

مما أعجبني في مكة اهتمام القائمين على الحرم به والسعي لنظافته وتأمين الراحة للحجاج، والسعي لتوسعته، والاعتناء بمبنى وعرفات، ماءً، وطعاماً، وأمناً وخياماً، ونظافة ومواصلات و ..

ولكن حتى تلك السنة لم يكن يستفاد من الهدى (الذبائح) فكان رضوان يشتري الذبيحة من الذابحين - وليسوا من أصحابها، فأصحابها يدفعون ثمنها ويذهبون - يشتريها بثمن بخس، أربعين ريالاً فقط.. يشتري اثني عشرة ذبيحة ويضعها في الثلاجة، فيطبخ في الشهر واحدة.. قلت له لماذا تفعل هكذا؟ دع الذبائح توزع على الفقراء.. قال: إن لم نفعل ذلك، رُميت في صناديق الزباله لتحرق بعد ذلك.. وبدأت الاستفادة منها بشكل مقبول في منتصف الثمانينيات، حيث ترسل إلى الدول العربية والإفريقية الفقيرة ..

مكة محصورة بين الجبال وأبنيتها - على هذا - متقاربة، وشوارعها ضيقة أما التوسع فبعد أن كثرت الأنفاق التي اخترقت الجبال، وشقت الطرق فيها توسعت بشكل ملحوظ على الطريقة العصرية، أبنية عالية، وشوارع عريضة، وحدائق جميلة .  
والحرارة فيها على مرّ السنة مرتفعة، وهذا من فضل الله على الحجاج والمعتمرين فالبرد يمنع الإحرام .

وفي منى وعرفات إذ يجتمع الناس بالملايين في أيام التروية وعرفة وأيام التشريق يحصل زحام شديد، وتدافع قاتل.. فيوم أن حججنا عام تسعين وتسع مئة وألف قتل في أحد الأنفاق قريب من خمس مئة حاج.. وقتل هذه السنة عند العقبة الكبرى - وقت الرمي - حسب التقرير السعودي مئتان واثان وأربعون حاجاً، وذكر الشهود أن العدد مضاعف وفي كل سنة يحصل مثل هذه المجازر، ولعل السبب يعود إلى أمور عديدة منها :

١. الجهل بمناسك الحج، فالحاج يقدم إلى مكة دون أن يعرف فروض الحج وواجباته وسننه، وكأنه قادم في نزهة لينال شهادة يعرضها على أهله ويفخر بها على صحبه وجيرانه ومعارفه، فينادى "يا حاج".

٢. اكتظاظ المناسك بالناس—ولا أدري لماذا يصر القائمون على التمدد في منى وعرفات أفقياً، ولهم أن ينشؤوا أبنية ضخمة تتسع لكل الحجاج "عمودياً".

٣. الاهتمام الشكلي لمسؤولي الحج بحفظ النظام والاعتناء بالمظاهر الخادعة والتخلي عن النظام وراحة الحجاج كل آونة لإرضاء من يحجون من الحكام متظاهرين بالتقوى.. وإليك مثالين فقط يدل على تخلف الأمة الإسلامية عن الأخلاق الإنسانية، والحضارة البشرية، عند من لا يعرفون الحج ويجهلون أساسياته :

أولها: أنني في لندن رأيت الأمير البريطاني وليّ العهد الأمير تشارلز يقود سيارته بنفسه لا يتبعه أحد من المرافقين، فلا يحدث شرخ في نظام السير، وقد رأى أحدهم شرطي السير يحرر للأمير مخالفة أسوة بغيره من البريطانيين وحين زار مدينة دبي في الإمارات قطعت الطرق وشلت الحركة في المدينة أكثر من ساعة ليمر موكبه!! فلماذا الاستهانة بوقت الناس والضغط عليهم، ولم هذه الأبهة الكاذبة، والفضيحة التافهة؟! وهل يكون الاهتمام بالزائر على حساب الشعوب؟! !!

ثانياً: أن أميرة أو أميراً حين يطوف بالبيت أو يسعى بين الصفا والمروة أو يرمي الجمرات يقطع بسببه على الحجاج أداء مناسكهم.. فلماذا؟! أهؤلاء من ذهب والناس من حديد صدى؟!!! ولماذا يُفرد لهم المكان؟ خوفاً من الجرب؟ أم استكباراً في الأرض وعلواً؟ وإذا كانت الثانية فماذا تعلم هؤلاء من الحج وأخلاقه؟ وهل تجتمع العبادة بما فيها من ذل لله تعالى ورحمة

بعباده ومساواة بين المسلمين مع التعالي والكبر والصلف مما يغضب الله تعالى ويتنافى وأدبيات الحج؟

قال الله تعالى: "واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى" ..

ولأن المدارس على الأبواب وكلنا أمل أن نعود إلى الحج في السنة القادمة تعجلنا، فقد رمينا الجمرات كلها ظهر اليوم الثاني من أيام التشريق، وطفنا طواف الوداع، وسألنا الله تعالى أن يرزقنا العودة إلى بيته العظيم ..

كنا نسابق السيارات والحافلات، فليس لي سوى هذا تسلية فالزوجة من عادتھا أن تنام فور أن تمشي بنا السيارة، وكأن حركتها وصوت محركها يهددان لها فتغفو بسرعة كطفل في سريه بين يدي أمه تحركه بلطف ..

وهذا -أحياناً- لصالحنا وأحياناً يضايقني.. أما الضيق فلأنني أحب الحديث والنقاش واجترار الذكريات في طريق طويل، طويل.. ليس فيه أنيس، ولا مناظر حلوة مؤنسة.. إنه صحراء مترامية وسراب يتجدد، ولوحات تحدد المسافة ليس غير.. وأما الراحة فلأن الزوجة تخاف الوحشة والظلام وأنا بطبعي لا أخاف كثيراً لكن خوفها إن كانت يقظة ينتقل إليّ بالعدوى، فحين عدنا من الأردن على الطريق الصحراوي -وكل الطرق صحراوية- من ثغرة الحديثة السعودي إلى "النعيرية" القريبة من الكويت إلى الهفوف جنوباً ثم إلى حدود الإمارات، فالشارقة.. وصلنا الواحدة ليلاً إلى "النعيرية" وكنت يقظاً منتبهاً، وسألت زوجتي أتودين الاستمرار أم ترغبين في الاستراحة؟ أجابتي عملاً لا قولاً، فقد كانت نائمة. ملأت خزان السيارة بنزيناً وسألت عن المسافة بين النعيرية ومفرق (الرياض الدمام) فقالوا هو مئتان وخمسون

كيلو متراً ولعل القارئ يجديني أكتب كيلو متر بالكسر مرة، و كيلو متراً بالنصب تارة أخرى، والأمران جائزان عند النحويين، فالمسافة إذاً أقطعها بساعتين إذا يسّر الله تعالى ..

وانطلقت بمشيئة الله تعالى.. أتدرون كم قرية رأيت في الطريق؟ لم أجد قرية واحدة، ولا نوراً ينبعث من قريب ولا بعيد، وكان القمر غائباً فالشهر في آخره، وليس ورائي ولا أمامي سيارة ولا حافلة.. سرت ساعة ونصف الساعة حسبتها ساعات طويلة، وحمدت الله تعالى حين تسرّب الخوف إلى قلبي أن زوجتي نائمة.. وإلا زادت الطين بلة.. ثم رأيت من بعيد أنواراً كثيرة، قلت في نفسي: جاءك الفرج يا عثمان، سوف تجد استراحة فيها مطعم، وبقالة، ومسجد.. وبشر.. وتستريح إلى الفجر فللنهار عيون ما كان ينبغي لك أن تغامر فتسير في الليل في طريق لم تسلكه سابقاً.. فماذا رأيت حين وصلت؟ كانت تحويلة للطريق فيها أنوار كثيرة وضعت للمسافرين ليلاً كي يتجنبوا الوقوع في الهاوية ويميلوا بهدوء إلى الجهة الأخرى، ورأيت أوريثاً يملأ خزان المحرك وقوداً، فتوقفت ألتقط أنفاسي وأملأ عيني نوراً، وقلبي أماناً، وإذ توقفت فتحت زوجتي عينيها، فقلت لها أصليت العشاء؟ قالت: لا.. قلت لها: توضئي وصلي، لم يبق للفجر سوى ساعة، ونزلنا من السيارة، وتوضأت، وصلّت، وكنت أدور حولها خوفاً عليها من العقارب، فقتلت اثنين منها ..

قالت: أين نحن الآن؟

قلت: دنونا من مثلث يجمع طريق الدمام والهفوف والرياض .

ودنت سيارة قادمة نحونا قادمة من المثلث، وكان عليها أن تخفف السرعة ليس لأنني رفعت يدي أسأل سائقها لكن بسبب التحويلة، ونظر إليّ من بداخلها وكانوا ثلاثة رجال، فلما اطمأنوا أنني رجل واحد ومعني زوجتي فتح السائق الزجاج فسألته عن الطريق إلى المثلث،

فأجابني أنني على الطريق الصحيح.. وركبت السيارة وغبنا معاً في الليل المظلم مرة أخرى ساعة من الزمن إلى أن رأينا من بعيد أنواراً عظيمة صادرة من خزانات البترول الضخمة على المثلث، فحمدنا الله تعالى على السلامة ورجونا أن لا نعود إلى مثل هذه المغامرة أبداً .  
كانت الحدود بين السعودية وقطر والإمارات هادئة، فنحن أول الحجاج القادمين، وكان الانتقال بين الثغور الأربعة سهلاً.. ونمنا في حدود الإمارات.. لنكون عصراً في الشارقة ..



---

---

## الرحلة إلى الحج والرحلة إلى اليوم الآخر

---

---

لا أدري لم تنادت نفسي إلى نفسي لتعقد مقارنة بين رحلتين متشابهتين ،  
أما الأولى فرحلة لا تتجاوز الحياة الدنيا ، قصيرة ، قد نعرف أكثرها ، حين لمسناها خبراً  
ممن أدوها وعادوا إلينا ، أو رأيناه عياناً على شاشات الرائي بتفاصيله الدقيقة.  
وأما الرحلة الثانية فلمّا يحن وقتها للحج الذي يعيش على بساط الدنيا ، ولكنها آتية لا  
ريب فيها ، حاصلة لا شك في حصولها ، إلا أنّها الرحلة النهائية عن الحياة ، فلا عودة منها  
... رأينا بدايتها ، ولمسنا من القرآن الكريم وحديث الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم  
ملاحظتها...

فهل نعقد مقارنة توضح التشابه الكبير بين الرحلتين ؟ فلنبداً إذاً بقلوبنا قبل أعيننا ،  
بأرواحنا وأفئدتنا قبل المحسوس منها لنقتطف العبر والعظات ، فنعيشهما رأيي البصر والبصيرة.  
اللهم أحي قلبونا وأرواحنا بأفضالك وألطافك في الدنيا ، وتقبل أعمالنا واجعلنا أهلاً  
لعفوك ومغفرتك في الدنيا والآخرة ، وأبعدنا عن النار ، واكتب لنا رضاك في أرض دنيانا  
والجنة في الآخرة..  
اللهم آمين...

١. يخطط المؤمن للحج ويجهز ما يلزمه في رحلته ذهاباً وعودة ، وحركة ومالاً حلالاً ،  
وقبل ذلك كله يعقد النية على أن يكون عمله خالصاً لوجه الله الكريم ، ويتفقه في مناسك  
الحج ، ليكون أدائه صحيحاً مقبولاً .. والمسلم المؤمن يعلم أنه راحل يوماً من الأيام - لا



ريب في ذلك - فيحافظ على أداء الفروض من صلاة وزكاة وصيام ، ويعامل الناس بالقسط فلا يظلمهم ، ويحفظ لسانه عن الغيبة والنميمة والإساءة إلى عباد الله ويتقي الله تعالى في كل شاردة وواردة.

٢. ينطلق الحاج إلى الأرض المقدسة تاركاً المال والعقارات والأهل والأصحاب طواعية ميمماً وجه الكريم ولا يعلم : أيعود أم لا يعود ، يرى سعادته في أداء المناسك بوجه يرضي المليك ، ويحاسب نفسه ماذا فعل وما ينبغي فعله ، وقد وكل أمره إلى الله ..... ويترك الراحل إلى الآخرة داره وأهله وماله فجأة ميّتاً ، فلا عودة إلى الدنيا أبداً ، وفي القبر يحاسبه الملكان ويريانه مكانه من الجنة أو النار ، نسأل الله العافية وحسن الختام.

٣. فإذا وصل الحاج إلى الميقات خلع عنه ثيابه واغتسل ولبس البياض - ثياب الإحرام ليكون فرداً لا يتميز عن سواه بشيء - ونوى الحج وصلى ركعتين وانطلق مليباً يوحد الله ويخصه بالعبادة وهذا دأب المسلم أينما كان وحيثما ولى وجهه... ويموت الإنسان إذا حان ميقاته فيخلع عنه أهله ثيابه ، ويغسلونه ، ويكفنونونه بالبياض ، ويصلون عليه ، فإذا قبره لا يتميز عن قبور الموتى بشيء .

٤. وفي منى يجهز الناس أنفسهم للوقوف بين يدي الله تعالى يوم النحر؛ عرفات على صعيد واحد، وهناك يسكبون العبرات ، ويسألون الله العفو والغفران ، ويجأرون بالدعاء راجين العفو والرحمة ، فيقول الله تعالى حين ينزل إلى السماء الدنيا للملائكة: هؤلاء عبادي جاءوني شعثاً غبراً من كل فج عميق يرجون رحمتي ويخافون عذابي وهم لم يروني فكيف لو رأوني ، فلو كان علينا مثل رمل عاج ذنوبا أو قطر السماء أو عدد أيام الدنيا غسلها عنا سبحانه من عفو غفور ، وفي مزدلفة يشتد الدعاء والرجاء أن يعفو الكريم عن الذنوب ويقبل عباده في الصالحين

... مواقف ثلاثة يقف فيها الحاج يسأل الله تعالى ما أحب من خير الدنيا والآخرة .... ويوم القيامة مواقف متعددة أخبر عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، موقف لا يُسألون فيه " فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ " وموقف توزع فيه الصحف على العباد ويُسألون عما فيها " فوركك لسألتهم أجمعين عما كانوا يعملون " وهم عريُّ عُرْلٌ ، لا يملكون من أمورهم شيئاً " والأمر يومئذ لله " بل الأمر في الدنيا والآخرة بيد الله ، يصرّف الأمور كيف يشاء . ويوم على الصراط ، ويوم .والآخرة يوم طويل ذو مواقف متعددة

٥. وفي منى على مدى ثلاثة أيام يرمي المسلمون الجمرات ، ويعلنون براءتهم من الشيطان وأتباع الشيطان ويرمون - برمي إبليس - وساوسه ويعلنون عصيانه ويتمسكون بطاعة الله تعالى ، فما يرى يوم إبليس فيه مخزي كذلك اليوم ، يقول : أتعبت نفسي وأتباعي بإغوائهم وإضلالهم ، ويغفر الله لهم هذا اليوم . ... وحين يحمل المسلمون كتبهم بأيامهم فائزين بالجنة ناجين من النار يوم القيامة يُرى إبليس والشياطين خزايا أذلاء ، يساقون إلى النار ومن تبعهم ، .. وقد أفلح في الدنيا من رجم إبليس كل يوم ، وعصاه فدخره حسيراً خزيان ، وكان هو من أهل الجنة والرضوان.

٦. يحج المسلمون إلى مكة والبقاع الطاهرة ، ويحج الفسقة والكافرون والمنافقون إلى أهوائهم وملذاتهم ، فإذا هم فريقان متنافران قلوباً وإن اجتمعوا أشباحاً وأجساماً .... ويوم القيامة يُفصل بين الطرفين " احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم " ويقول تعالى " ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون " بل إن المنافقين الذين كانوا يصلون في المساجد رياء يُفصلون عن المؤمنين لأنهم ليسوا منهم " يوم

يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم ،

قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره

من قِبَلِهِ العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأمانيّ ، حتى جاء

أمر الله وغرّكم بالله الغرور . فالיום لا يُؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم

النار، هي مولاكم وبئس المصير "

٧. الكون كله يدور بإذن الله تعالى وقدرته ، فهو بيد من خلقه وأبدعه . وحياة البشر

كذلك تدور حول مرضاة الله ، فتلتزم طاعته بالعمل بما أمر والانتهاة عما نهى ، ومن رموز

طاعته سبحانه بيته العتيق يتوجه إليه المسلمون من كل أنحاء المعمورة بصلاتهم ودعائهم ، ثم

يجون إليه معلنين العبودية لرب هذا البيت المبارك . ويطوفون حوله بأجسادهم وقلوبهم ، ثم

يسعون بين الصفا والمروة سعياً حثيثاً ملبيين داعين ، ويردد الكون معهم التلبية والدعاء ...وفي

اليوم الآخر ترى البشرية محشورة في صعيد واحد لا ترى فيه اعوجاجاً ولا ارتفاعاً قلوبهم

وألستهم متصلة بالله .. المسلمون يسألون الله أن ينجز وعده لهم — إذ أفردوه بالوحدانية —

بالنجاهة من النار والفوز بالجنة وتراهم يسعون بين الأنبياء ليشفعوا لهم من الموقف العصيب ،

فيتنصل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام من الشفاعة العظمى ، ويتصدى لها

الحبيب محمد فيقول : أنا لها، أنا لها .

٨. وترى المسلمين عائدين من رحلة الحج وقد غفر الله تعالى لهم بفضلهم ومنه وعظيم

كرمهم، يستقبلهم أهلهم بالفرح والشوق والعناق ، ويحق لهم هذا الاستقبال الطيب ، فقد

عادوا كيوم ولدتهم أمهاتهم ، لا ذنب لهم ولا آثام ليستقبلوا حياة الطهر والاستقامة كما وعدوا

رهم سبحانه في حجهم إلى بيته حتى إذا ما لقوه في الرحلة إلى الآخرة كان راضياً عنهم فاستقبلهم استقبلاً حسناً إن شاء الله ... وفي اليوم الآخر بعد الحساب - ولا حساب إن شاء الله ، بل هو عرض وعفو وكرم - وبعد المرور على الصراط والوقوف أمام أبواب الجنة الثمانية - كل حسب الباب الذي يناسب أحسن أعماله - يدخلون الجنة فينطلقون إلى مساكنهم التي أعدها الله لهم، فهم يعرفونها أكثر مما يعرفون بيوتهم في الدنيا، فتستقبلهم الملائكة قائلين " سلام عليكم، طبتم فادخلوها خالدين " وترى الولدان المخلدين وخدامهم ونساءهم من أهل الجنة يرحبون بهم أجمل ترحيب، " لهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون" .

٩. ويعود الحاج إلى عمله في الدنيا يراقب الله سبحانه وتعالى ، ويعمل صالحاً ليقبى على صفائه ونقائه ، فيكون نموذجاً إيجابياً للمسلم العامل التقي الناصح ، ويثابر على حياته الزكية هذه حتى يلقي الله رضىاً .. وفي جنة الخلد يعيش المسلم في أمن وأمان ، وجنة رضوان يتنعم بما أكرمه الله عز وجل ، يغدو في جنة لا تعب فيها ولا نصب ، وخير ما يلقاه في الجنة بعد أن نضر الله وجهه ، ورزقه الطيبات أن يتجلى ربه عليه فيزيد نضرة وبهاء ، وحسناً وجمالاً . وألقاً وتألقاً " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " فالجنة هي الحسنى ، والزيادة رؤية وجه الله الكريم .. فطوبى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .



## رحلة إلى الحرمين الشريفين

كانت رحلة العمرة موفقة - والحمد لله - ذهاباً وإياباً ، فقد كان الباص جديداً ومريحاً ، وكان العُمَّار متجانسين ثقافة ، وكان جلهم من الأصدقاء أو الجيران . فقد جهدنا أن يكون المعتمرون من حي واحد وعلاقة اجتماعية طيبة ، حتى إننا اشترطنا على المدخن منهم أن يمتنع عن التدخين في الباص ، ولا مانع أن يفعل ذلك حين ينزل في الاستراحات لتناول الغداء أو العشاء أو أداء الصلوات ، وهكذا كان...

انطلق الباص في رحلته من الزرقاء - فأغلب المعتمرين هناك في حي " وادي الحجر " وأكثر قاطنيه " سبعاويون " من بير السبع ، وقد عهدنا فيهم الشرف والمروءة والشمائل الحميدة . ومن " حي جناعة " المتصل بذلك الحي ، فكأنهما حي واحد.

أما واعظ الرحلة فالنائب البرلماني السابق الشيخ الفاضل " ذيب أنيس " والحقيقة أنه حمل من اسمه الصفة الثانية فقد ، فقد كان أنيساً ولطيف المعشر . وقد تعرفت عليه عام ثمانين وتسع مئة وألف - منذ سبعة وعشرين سنة - حين لجأنا إلى الأردن المضيف من سطوة الظلم والإرهاب للنظام السوري . ويضاحكنا حين يقول : صحيح أنني ذيب ، لكنني أنيس.

قال لي الشيخ في زيارة له : ألا تود الاعتمار يا أبا حسان ؟ - وكنا في أواسط شهر أيار - مايو - من هذه السنة ٢٠٠٧ ، أي قبل شهرين من توثيق الرحلة . قلت أود ذلك - والله - وأنتظر الفرصة في أوائل الشهر القادم بعد أن أجدد جواز سفري - وقد ظللنا من عام ثمانين وتسع مئة وألف إلى عام ألفين وخمس دون وثائق ، فقد حاربنا النظام السوري حتى في الوثائق ، ثم بدأ بعد ضغط الحكومات الغربية يعطينا جوازات السفر - معشر المعارضين لظلمه

وإرهابه - بعد خمسة وعشرين عاماً - سنتين فقط ، تجدد سنتين آخرين وفي كل تجديد يغصبي أربع مئة دولار .. إنه نظام وطني أليس كذلك ؟ !! وكثير من العرب مخدوعون بهذا النظام العفن ، يصدقون كذبه مما يدل على أن الكثير منهم ضائع في متاهات هذا النظام الذي يتنازل للجميع ، إلا لشعبه فهو يكويه بأفانين العذاب.

قال الشيخ أبو محمد : بل كن رفيقنا في رحلتنا إلى الديار المقدسة.

قلت : وهل أرى خيراً من صحبتكم يا شيخنا ؟

انطلق الباص بنا ظهر الخميس الواقع في الخامس من تموز " يوليو " ينهب الطريق مسرعاً نحو الجنوب ، ودعا الجميع وراء الواعظ دعاء السفر.

استرحت للسائق " أبي إسلام " فقد كان له من اسمه نصيب ومعاونه " أبي ثائر " فقد كان هادئاً ودوداً على غير اسمه ، وقد بدأ يتعاونان القيادة ، وإذاعة الباص تسمعنا بعض الأناشيد الإسلامية أو تلاوات بعض السور ، وقد يقوم شيخنا أبو محمد بين الفينة والأخرى بإلقاء بعض الأحاديث المشوقة ذات الفائدة ، وقد يطلب إليّ أن أحدث الإخوة المعتمرين ، فأفعل ذلك .

توقفنا في القطرانة الأردنية نصلي الظهر والعصر جمع تقديم ، ثم نستمر في الاتجاه جنوباً حتى نصل إلى الحدود الأردنية " المدوّرة " فتنتهي معاملة الخروج منه في ساعة من الزمن ، وكان الجو حاراً على عكسه يوم كنا في العاصمة الأردنية عمان . وأجابوني حين استفسرت عن تغير الطقس : إننا في مكان منخفض عن عمان ، بل إننا بدأنا نُصحّر ، وجو الصحراء حار في النهار ، لطيف في الليل .... ثم ندخل الأراضي السعودية ، لنبقى ساعة أخرى ، ثم يُسمح لنا بالمسير دون تفتيش يُذكر.

كانت شمس الأصيل ترسل أشعتها على الرمال فتتوهج توهج الذهب الأصفر المائل للحمرة، وتحترق زجاج الباص ، فتخفف من برودته الاصطناعية ، فترتاح الأعصاب ، وتهدأ النفوس إلى هذا الجمال الطبيعي فتلهج الألسن بذكر الله تعالى الخالق المبدع . ولم تمر ساعة حتى بدأت الشمس تنحدر خلف الجبال البعيدة تودعنا متجهة إلى الغرب ، وهذا دأبها منذ أن خلقها الله تعالى ، ولن تخلف هذا المسار إلا حين يأذن الله تعالى لها أن تخرج من مغربها حيث يُغلق باب التوبة ، اللهم تب علينا وتقبل منا حبا وعبوديتنا ، واجعلنا لديك من المقبولين يارب..

صلينا المغرب والعشاء جمع تقديم في إحدى الاستراحات جنوب " تبوك " هذه المدينة السعودية التي تبعد عن الحدود الأردنية السعودية تسعين كيلو متراً ، وهي المدينة التي زحف إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثين ألف مقاتل من أصحابه يتحدى مئتي ألف من جند الروم الذين فكروا أن يهاجموا مدينته المنورة ، فنصره الله تعالى بالرعب ، فانسحب ذلك الجيش الذي يفوق جيش المسلمين بسبعة أضعافه إلى الشمال الأردني غير راغب بقتال المسلمين . وكيف يجروء على قتال ثلاثين ألفاً وقادة الروم لا يزالون يذكرون أنهم لم يستطيعوا النيل من ثلاثة آلاف من المسلمين في غزوة مؤتة وقد كان الروم آنذاك أكثر من مئة ألف مقاتل - وهذا يعني أن مسلماً واحداً صمد أمام ثلاثة وثلاثين رومياً - وكان المسلمون بقيادة سيف الله خالد بن الوليد ، وهم الآن بقيادة بطل الأبطال وسيد ولد آدم وخير الخلق عند الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟! . وتذكرت قصة أبي ذر رضي الله عنه لقول النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى سواده من بعيد: كن أبا ذر، ثم يقول: رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده، ويموت وحده ، ويبعث وحده.

ليت المسلمين يتمسكون بدينهم ويعودون إلى ربهم ، ويفيقون من سباتهم – فقد طال رقادهم – ليعودوا سادة الأمم وقادتها ، فالدنيا أضحت ظلاماً ، والظلم شريعة الغاب .. ليت المسلمين يعرفون مكانتهم في ريادة العالم فينقذوه من وهاد الفساد ومستنقع الضلال !

والجميل في كل استراحة في الأراضي السعودية أنها تحوي مسجداً للرجال وآخر للنساء وموضئات كافية نظيفة ، ومطعماً ، وسوقاً كبيرة ، ووقوداً للسيارات ، وورشات تصليح لها ، وأماكن استراحة يأوي إليها المسافرون ليلاً أو نهاراً . وهي منبثة على جانبي الطريق بكثرة.

كان أكثر المسافرين نائمين حين جلست إلى السائق أسامره وقد اقترب من " تيماء المدينة " التي تبعد عن تبوك جنوباً ثلاث مئة كيلو متراً ، ودخلناها لنرى شوارعها عريضة نظيفة، وعلى جانبيها وفي وسط الشارعين المتعاكسين أشجارٌ وزروع تضيء عليها الأنوار القوية جمالاً وبهاء ، وتذكرت أننا حين جئنا عمان من الجزائر عام ثمانين من القرن الماضي ، وقدمنا طلباً للعمل في السعودية عينت زوجتي معاونة للمديرة في ثانويتها الوحيدة إذ ذاك ، لكننا رغبتنا البقاء في عمان سنتين أخريين حتى عام اثنين وثمانين، ثم انتقلنا للعمل في دولة الإمارات ، حيث بقينا فيها ستة عشر عاماً .

استرحنا في تيماء المدينة سويعة قصيرة جددنا فيها النشاط الجسمي وتمتعنا بجو المدينة الصحراوي الليلي ، بل قل : تمتعنا بليل الواحة التيمائية ، وتمنيت لو أنني كنت من سكانها لهدوئها ، ورتابة الحياة فيها ، فمن يصبح على مشارف الستين يبحث عن الهدوء والسكينة ، ويرغب في الانعزال والتوحد .

لم يبق بيننا وبين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أربع مئة كيلو متر، فتيماء شمال المدينة ، بينها وبين تبوك .



بدأ الباص يسارع الزمن ، فقد وعدنا سائقه في بداية الرحلة بعد تيسير الله تعالى أن يوصلنا المدينة المنورة قبل صلاة الجمعة كي نتشرف بصلاتها في مسجد الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وكنا نرجو أن نصل قبل الظهر بوقت أطول كي ننام ونغتسل ونتطيب فنذكر الصلاة في الحرم النبوي بنفس طيبة وثياب نظيفة ، فنزور الحبيب بما يليق من علو قدر المصطفى ، فنفعل كما فعل الأشج بن قيس حين وصل إلى المدينة مع قومه ، فأسرعوا للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بثياب السفر ، أما هو فتحنى جانبا ، ثم اغتسل وتطيب ، ولبس أجمل الثياب ، وانطلق لملاقاة الحبيب المصطفى ، فأفسح المجلس له وقال : إن فيك خلتين يجبهما الله تعالى : الحلم والأناة . قال : يا رسول الله ! أنا أتخلق بهما أم الله جبلي عليهما ؟ قال : بل الله جبلك عليهما . قال : الحمد لله الذي جبلي على خلتين يجبهما الله ورسوله .

كانت الأرض تُطوى تحت عجلات الراحلة الحديثة ، لكننا اضطررنا أن نصلي الفجر قبل الوصول إلى المدينة بأكثر من ساعة قبل أن تتداركنا شمس النهار . ثم أسرعنا إلى الهدف المنشود ... لاحت عمائر المدينة الجميلة من بعيد ، فكنت ترى المسافرين ينظرون هنا وهناك ، ودبت الحركة في الباص . ووصلنا السادسة والنصف صباحاً ، وهنا أخبرنا الشيخ أبو محمد أن غرف الفندق لن تكون جاهزة قبل الثامنة ، فماذا نفعل بالوقت المتبقي؟! كان الجواب أسرع إلى قلوبنا من الماء البارد للظمان . فسينتقل الباص بنا نحو بعض المعالم البارزة في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبدأ بجبل أحد وجبل الرماة ، ومقابر شهداء أحد ، رضوان الله تعالى عليهم . كان الشيخ أبو محمد يشرح للمعتمرين باختصار معركة أحد وانتصار المسلمين الذي انقلب إلى هزيمة قتل فيها العشرات منهم حين عصى الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم .ونزلنا أرض المعركة نتعرف عليها ، فهذا جبل الرماة الذي وقف عليه أربعون من أصحاب السهام، وقد وصاهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوه أبداً ، فخالفوه حين ظنوا المعركة انتهت ، ففاجأهم خالد وكان مشركاً بخيَّالته فقتل الباقيين منهم ، وانكشف المسلمون ، فمن خالف تعاليم الرسول في حياته وبعد مماته خاب وخسر ، ومن تمسك بها فاز ونجا.

وهذا تجويف بين الجبل احتفى به رسول الله وأصحابه وتجمَّعوا حين أحاط بهم العدو ، وقد انهزم بعض المسلمين حين ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل . وبين الجبلين مقبرة الشهداء البررة.

ثم انتقلنا إلى مسجد القبلتين حيث صلى المسلمون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ركعتي العصر الأوليين إلى القدس ، فلما أخبرهم أحد المسلمين ممن صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجنوب حيث انتقلت القبلة إلى البيت الحرام ثم جاءهم فرآهم يصلون العصر فأخبرهم وهم يصلون فالتفتوا إلى الورا، واتجهوا للبيت الحرام ، فأتموا إليه صلاتهم تجاهه فسمي مسجد القبلتين .

وأخذتنا الحافلة إلى مكان معركة الخندق حيث المرابط السبعة حيث جعلوها بعد ذلك مساجد تدل على تمركز المقاتلين فيها حين أحاط مشركو قريش وغطفان بالمسلمين ، وفوجئوا بالخندق يمنعهم أن يصلوا إلى المسلمين ، ثم أرسل الله تعالى على المشركين ريحاً وجنوداً لم يروها، فعادوا أدراجهم خاسرين خائبين ، وظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من آخر ملاعين اليهود بني قريظة . نسأل الله تعالى أن يخزيهم ومن يمالئهم ، وأن يرد المسلمين إلى دينهم رداً جميلاً ليظهروا فلسطين والبلاد العربية والإسلامية من رجسهم .

ثم انتقلنا إلى مسجد قُباء ، وهو أول مسجد بناه النبي صلى الله عليه وسلم في مهاجره .  
صلينا فيه ركعتين تعدلان عمرة كما أخبرنا الحبيب عليه أفضل الصلاة وأتم السلام . وكنت  
ترى في كل مكان زرنه آلاف الزائرين من كل لون ولسان وجنس فتتيقن أن هذا الدين هو  
خاتم الأديان وان الرسول الكريم خاتم الرسل الكرام ، وأن هذا الدين باق إلى أن يرث الله  
الأرض ومن عليها .

ثم هلّ علينا أنوار مسجد الحبيب المصطفى حين أقبلت الحافلة تهادى نحوه حتى أنزلتنا في  
فندق " جوهرة مبارك " الذي يبعد عن المسجد النبوي مئة وخمسين متراً فقط .. يا الله .. ما  
أجمل جوار الحبيب محمد؟! اللهم كما رزقنا جواره هنا فارزقنا شفاعته في الآخرة ، واحشرنا  
في زمرة تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظله .

كنا متعبين جداً... دخلنا غرفتنا في الفندق ، فاغتسلنا وصلينا ركعتين حمداً لله على  
سلامة الوصول ، وغرقنا في النوم ثلاث ساعات حيث صحونا على رنين المنبه يقول لنا : بقي  
ساعة ونصف الساعة لصلاة الجمعة ، فاغتسلنا وانطلقنا إلى الحبيب .. لم تستطع زوجتي  
زيارته فللنساء كما يبدو وقت خاص للزيارة لا يزاحمهن الرجال فيه ، أما أنا فقد تقدمت إلى  
الحجرة النبوية .. لا أستطيع أن أصف ما كنت عليه من الحب الممزوج بالهنية لمقام سيد  
المرسلين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام . أتقدم بين الجموع الكثيرة ببطء حمدت الله تعالى  
عليه ، فماذا كنت أفعل لو وجدت نفسي فجأة أمام مقام الحبيب؟! لعلي كنت أتلعثم ،  
وأستدعي الحروف والكلمات ، فلا تسعفني ! لكنني ضمن هذا الحشد المتعاضم كلما تقدمت  
خطوة أستجمع في ذاكرتي الجمل والتعبيرات أقولها حين أصل إلى الحجرة الشريفة .. الناس  
يصلون على رسول الله .. الأصوات تخفت حين تقترب من مقامه العظيم ... يلتفت

الواصلون إلى نافذته فيسلمون عليه بخفر وحياء .. العيون تدمع ، والقلوب تخشع ، وتلعثم الشفاه بالحروف ، ثم ترجف الأضلاع وتزداد دقات القلوب ، حتى لتكاد تسمعها بأذنيك . ويشهد المسلمون لنبيهم صلى الله عليه وسلم أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، وكشف الله به الغمة . ثم يسألون الله تعالى أن يشفع فيهم نبيه الكريم .. ويطلون على الصديق أبي بكر رضي الله عنه فيسلمون عليه ، ويترضون عنه ، ويشهدون له بالفضل ، ثم ينتقلون إلى الفاروق رضي الله عنه ، فيسلمون عليه ويشهدون بفضله ، رضي الله عنهما ، وأرضاهما ... هما رفيقاه في حياته وفي الممات ، كان صلى الله عليه وسلم يحبهما ، وكانا يحبانه أحاول وزوجتي أن نصلي الأوقات كلها في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، إن فيه الهدوء والسكينة وتذكر كيف بنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجده من الخوص واللبن ، وكيف كان يعمل يداً بيد مع أصحابه ، وهم يقولون :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ..... فاغفر للأنصار والمهاجرة

ويروونه صلى الله عليه وسلم يحمل معهم الطين فينشطون قائلين:

لئن قعدنا والنبي يعمل ..... لذاك منا العمل المضلل

ونعود بالذاكرة إلى الورا ، فنكاد نرى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم تقوم حول

المسجد ، ونراه صلى الله عليه وسلم يستقبل فيها أصحابه وغيرهم .

ونكاد نرى النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الناس ويتخللهم بالموعظة ، ونراه صلى الله

عليه وسلم يستقبل في مسجده الوفود ، ويرسل البعث ، ويحيي الجيوش ... فالمسجد منارة

الحياة الإسلامية ، ونسغها الذي يوزع الدماء في جسمها الحي . وهذا ما انتبه إليه أعداؤنا

فأرادوا أن يجعلوا المسجد بيتاً بارداً لا حرارة فيه ، فهو - بزعمهم - مجرد مكان لأداء العبادة

الباهتة الخامدة . فهل ينتبه المسلمون لما يحاك لهم في الخفاء ، وكذلك على مرأى ومسمع ؟ !  
زرت أخي مروان مرات ومرات ، فهو - لحظه المتألق والحمد لله تعالى - من أهل المدينة المنورة منذ سبعة وعشرين عاماً . لم أره منذ عشرة أعوام ، أكثرت من زيارته ، فهو من الأرحام ، وعلينا أن نتواصل معشر المسلمين ، فمن أراد أن يُنسأ له في أجله ويُيسط له في رزقه فليصل رحمه . والتقيت بعض الإخوان والأحباب - وما أجمل أن يتواصل الإخوان والأصدقاء في الله - فهم امتداد الفكر والقلب والهدف . رؤيتهم نعمة ، ولقاؤهم استرواح ، وحدثهم أدب وأخلاق وعلم .

في المسجد النبوي الشريف دروس فقه ودروس للتفسير ، يتصدر لها بعض العلماء ، فيجتمع للمصلين في هذه الروضة الرائعة علم وعبادة ، بل العلم عبادة . كما سررت حين رأيت الشباب يتحلقون لقراءة القرآن بعد صلاة العصر وبين صلاة المغرب والعشاء ، ولا بأس أن ترى بعض الأصدقاء متحلقين بعد كل صلاة يتحادثون بصوت خفي لا يزعج الآخرين ، فيتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون طفولتهم أو أيام شبابهم بأدب جم .. إلا أنني كنت أرى بعض المصلين يملأ الصف الأول بدشداشة أو عقال أو مقعد أو معطف ليأتي بعض أصحابه عند إقامة الصلاة فيتخطون رقاب الناس إلى الصف الأول ، وبهذا يمنع المبكرين من احتلال الصف الأول لحساب المتأخرين .

إلا أن الروحانية تغطي على كل شيء ، فأنت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
في ظهر يوم الاثنين التاسع من تموز كنا جاهزين للذهاب إلى مكة المكرمة ، وجاءت حافلة سعودية حملتنا إلى "ذي الحليفة" أو أبيار علي نسبة إلى علي سلطان دارفور الذي حفر الآبار وجهاز المنطقة لإحرام المعتمرين والحجاج ... وهناك اغتسلنا وصلينا ركعتي الإحرام ...

تقدم مني وأنا محرم شاب نير الوجه باسم الثغر يسلم عليّ باسمي : كيف حالك يا أستاذ

عثمان ؟

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. لعلك أحد تلاميذي في دبي!

-نعم ؛ يا أستاذ : أنا عمر القطامي أحد تلاميذك في ثانوية دبي .. أتذكرني ؟

- كيف أذكرك يا ولدي ، وقد غبتُ عن دبي عشرة أعوام ؟ ولعلك كنت تلميذاً لي قبل

ذلك بسنوات ، كما أنني أرى أمامي رجلاً ، وقد كنت فتىً ، والملامح تتغير .

-أجل لقد كنت أستاذي منذ خمسة عشر عاماً . وتغيرت ملامحي كثيراً ، لكنك لم

تتغير إلا قليلاً يا أستاذ

-طبعاً إن تغير الرجال قليل .. كيف حالك يا ولدي ؟ أقدمت وحدك للعمرة ؟

-أنا الآن من سكان مكة وأعمل في مؤسسة كذا ... وقد تزوجت ، ورزقني الله ولداً

وينتاً.

-قالها لكنني نسيت اسم المؤسسة .

-وقال إنه يتابع ما أكتبه شعراً أو نثراً في المواقع الالكترونية .. وقال : إنه نسي الكثير

من أساتذته ، لكنه لا ينسى من غرس فيه بذرة الإيمان ، ورعاها سنتين ...

-حمدت الله تعالى على ذلك ، فله الفضل والمنّ ، وسألته تعالى أن يجعل ذلك في

صحائف أعمالي ، وتذكرت قول زهير بن أبي سلمى :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ..... لا يذهب العرف بين الله والناس

انطلقت الحافلة تنهب الطريق مسرعة ، والشيخ ذيب أنيس حفظه الله تعالى يتحدث عن

أركان العمرة ويفصل فيها كي يتمكن المعتمرون من أدائها على الوجه الصحيح ، وبدأ الناس

يلبون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .. وأعجب هذا النداء وتلك التلبية حفيدنا الصغير " أحمد يمان " ابن الأربعة أعوام فأخذ يردد التلبية بجد ونشاط حتى خشيت عليه من بحة الصوت أو ضياعه ، وشاركه في تلبيته أخته الصغيرة بنت الثلاث بأسلوبها الفصيح المتعثر ، وضحكاتها البريئة ، وابنة عمتهما الحلوة اللطيفة " حسناء " بنت الرابعة وهي اسم على مسمى ، أما " مصطفى عبدان " أخو حسناء ابن الثامنة فقد كان رزيناً هادئاً . والأطفال يبعثون السعادة والأنس في كل لحظات الحياة حين ينالون حظهم من النوم والراحة والطعام ، فهم العصافير المغردة ، والرياض المتفتحة.

في منتصف الطريق توقفنا لصلاة الظهر والعصر جمع تقديم ، وللغداء ، واستأنسنا لحظات بعشيرة القروء التي كانت تلاحق - عن بُعد- المسافرين الذين يقربون لها بقايا طعامهم، ويداعبونها ، ثم تتسابق في إظهار مقدرتها في القفز واللعب عليها تحظى باهتمام المسافرين وأعطياتهم . هذه القروء تعيش في الوادي الذي يطل عليه المطعم ، ومسجد الرجال والنساء ، وقد كنا - في صلاتنا - نسمع القفز على سطح المسجد ونسمع أصوات القردة وزقزقتها.

وقبل المغرب بساعة كنا على أبواب مكة المكرمة وكانت الحافلة تسير متمهلة متجهة إلى المسجد الحرام ، فعلى مسافة مئتي متر على الأكثر " فندق الملتزم " الذي نزلنا فيه . وقد لفت نظرنا أن الغرفتين اللتين شغلناهما في المدينة ومكة كانتا في الدور الثامن ، الأولى تشرف على الحرم المدني ، والثانية على الحرم المكّي ، وهذا من فضل الله علينا وكرمه . وكنا قريبين من باب الملك عبد العزيز .

صلينا المغرب جماعة في المسجد الحرام ثم شققنا طريقنا إلى " الحجر الأسود " ولم نستطع

لمسه ، فقد كان الزحام شديداً وطال الطواف ، فالدائرة عريضة والحركة بطيئة ، ثم صلينا خلف مقام إبراهيم ، وانطلقنا إلى المسعى ...

كان المسعى مزدحماً كذلك على غير ما عهدناه في السنوات الماضية في مثل هذه الأيام من كل سنة . وأُذِّن للعشاء ونحن في الشوط الرابع ، وأقيمت الصلاة ونحن في الشوط الخامس ، فأديناها ، ثم تابعنا السعي .. ثم حلقت شعري امتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " رحم الله المحلقين " ، وحلق الجميع - تقريباً - حتى الصغار . فأسأل الله أن يرحمنا .

أقمنا في مكة حتى عصر يوم السبت الواقع في الخامس عشر من تموز " يوليو " ويسر الله تعالى لنا صلاة كل الأوقات في المسجد الحرام ، وهذا فضل عظيم ومنة كبيرة . وقد كان الحرم يمتلئ عن آخره حتى في صلاة الظهر وقت الحر ، فترى الصحن ممتلئاً والرواق الخارجي ، والأوسط والأخير . نسأل الله تعالى عز المسجد الحرام ودوامه .

ولعل السبب في الزحام المستمر على دوام السنة أن العمرة باتت ميسرة سهلة في كل أيام العام ، فمن الأردن تخرج أسبوعياً عشرات الحافلات ، ومن سورية كذلك ، ومن مصر . ولعل نظام العمرة هذا تجده في كل الدول الإسلامية ناهيك عن المعتمرين القادمين بالجو ..

ومما يريح المعتمر أن الحرم مكيف على مدار الساعة في الرواقين الأخير والأوسط . كما أنك تبتدئ في الرواق الأول بما يصلك من التبريد القوي في الرواقين السابقين وبكثرة المراوح . أما في الصحن المكشوف فتجد الأرض مبردة من أسفلها ، فتشعر بالراحة وأنت تطوف بالكعبة المعظمة أو تجلس أمامها .

وماء زمزم متوفر في الحرمين الشريفين بشكل كبير يقوم على توفيره جيش من العاملين ، وكذلك النظافة والخدمات العامة . والاهتمام بأمن الحجيج والعمّار واضح ومكثف .



كنا نود أن تطول الزيارة ، ولكن ماله بداية له نهاية ، ويظل الإنسان مسافراً متنقلاً إلى أن يلتقى ربه . ففي عصر السبت صلينا الفريضة ، وطفنا طواف الوداع ، ورجونا المولى سبحانه أن يتقبل منا ، فهو حبيبنا وسيدنا ، وخالقنا وإليه مآلنا . وانطلق بنا الباص في طريق العودة ، فعرجنا على المدينة المنورة دون أن ندخلها ، وكان الخروج من السعودية والدخول إلى الأردن ميسراً والحمد لله تعالى . ووقفنا في العودة في الأماكن التي وقفنا فيها سابقاً . ووصلنا إلى عمان في رحلة استغرقت اثنتين وعشرين ساعة .

اللهم ربنا لك الشكر أن رزقتنا زيارة بيتك الحرام وزيارة نبيك الكريم .

اللهم ما أحبيتنا فكرر هذا الرزق الكريم . ولا تحرمنا ذلك .

اللهم زد في حسناتنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، فأنت الكريم ذو الفضل العظيم .

اللهم آمين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .



---

---

## سمعت ورأيت ( ١ )

### في طواف العمرة

---

---

رحلتنا إلى العمرة - إباي ورفيقة العمر أم حسان - في منتصف الشهر الماضي حزيران عام ألفين وتسعة كانت سهلة بفضل من الله تعالى إذ يسر لنا تأشيرتها بسهولة ويسر ، فانطلقت الحملة بنا يوم السابع عشر من الشهر نفسه إلى المدينة المنورة - مثوى الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ومبعث نور الهداية إلى أرجاء المعمورة .

وصلنا المدينة بعد سبع وعشرين ساعة ، وقد استغرقت العودة من المدينة إلى عمّان الأردن- دون الحملة- ست عشرة ساعة فقط . ولك أخي القارئ أن ترى الفرق الشاسع بين زمني الذهاب والإياب لتدرك بعض معاناة المعتمرين والحجاج حين يقصّر المسؤولون - أياً كان موقعهم - في واجباتهم ويتعدّون حقوق الآخرين.

لن أستطرد في هذا الحديث ولن أخرج عن الموضوع نفسه ، إلا أنني أحببت أن أنبه بعجالة إلى ما يُجزن المعتمر حين يقلق أمثال هؤلاء الساعين إلى الربح ليس غير راحته ، ويغتمون صبره في رضى ربه .

انطلقنا من المدينة المشرفة إلى مكة المكرمة بعد أن مكثنا فيها ثلاثة أيام زرنا فيها الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وصلينا في مسجده الطاهر الذي تفضل الصلوات فيه ألف صلاة فيما سواه عدا المسجد الحرام الذي تفضل الصلاة فيه الصلاة في مسجد المدينة مئة مرة وأحرمنا في أبيار علي - وهو مسجد جنوب المدينة يبعد عنها كيلو مترات عديدة -

كانت الرحلة مريحة ، وكان جلوسنا خلف السائق الماهر مباشرة ، نرى الطريق يُطوى

أمامنا بسرعة فوصلنا بعد أربع ساعات وتيّف إلى بيت الله الحرام ، وبدأنا قبيل صلاة العشاء طواف العمرة أمام الحجر الأسود الذي قبّله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فيه الخليفة الثاني رضي الله عنه حين قبّله " والله إنك لحجر لا يضر ولا ينفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك " وهذه قمة الطاعة المبصرة التي ينبغي للمسلم أن يحققها في حياته الدعوية وسلوكه الإسلامي الواعي .

الزحام على أشده في هذه الساعة ، فالشمس غائبة ، والحرارة لا تتجاوز الثامنة والثلاثين . آلاف الطائفين تملأ ساحة الحرم ، يطوفون عكس عقارب الساعة بنظام جيد ، يخيل للناظر من علّ أنهم قطعة واحدة تتحرك برتابة وتنسيق ، فيطوف قلبه معهم وهو ينظر إليهم ويتابع تحركهم الحبيب ويسمع هدير التلبية والدعاء كأنه صدى إعصار بعيد يتجاوب في واد فسيح .  
لم نستطع - ولم نحاول - الاقتراب من الحجر متجنّين الزحام الخانق أمامه راضيين بالإشارة إليه كلما أكملنا شوطاً . وكانت الدائرة تتباطأ كلما وصلنا الخط الموازي للحجر الكريم ، إن أغلب الطائفين يحرصون على التأكد من وصولهم أمام الخط الممتد أمام الحجر ثم الإشارة بالبسملة والتسبيح وذكر الله تعالى قبل التحرك ثانية في دائرة جديدة حول الكعبة المشرفة . مع أن الأمر لا يحتاج شيئاً من هذا الحرص الذي ينتج عنه انحباس مروري مؤقت ومجهود بآن واحد .

كانت الألسنة تلهج بذكر الله بكل اللغات واللهجات ، فهذه جماعة من الفرس يتقدمها شاب جهّوري الصوت يدعو بالعربية مشوبة بلكنة أعجمية ، ويردد بعده الرجال والنساء دون أن يفقهوا مما يقول شيئاً إلا أنهم يجتهدون في الدعاء ، ويقلّدونه في لهجته وإيقاعه . وهذا من مصر المحروسة يجعل الذال زائياً ممسكاً بكتيب صغير يقرأ فيه جملة وراء جملة وحوله

بعض النسوة يرددن ما يقول بصوت عال ولكنة صعيدية محببة .

رأيت نفسي أمشي وراء شاب يحمل طفله الصغير على كتفيه وإلى جانبه زوجته ممسكاً بيدها متجنباً - مثلي - الزحام ، وطفله يخصني ببسمته الطفولية البريئة ، فأبادله البسمة بمثلها ، فيلوح بيده محيياً ويكلمني بما لا أسمع ، فأرسل له قبلة صغيرة ، فيرد القبلة بأفضل منها، ويتعد أبواه إثر موجة صغيرة دفعته إلى اليمين ، فيلتفت الصغير إليّ ملوّحاً ومودّعاً .

أصل إلى مقام سيدنا إبراهيم ، فأجد بعضهم يتمسحون بزجاجه ، فأوقن أن كثرة تمسح هؤلاء جعل الزجاج لماعاً نظيفاً ، وأرى شاباً يردهم عنه ، مكرراً أن هذا التمسح لا ينفع صاحبه ، ولعله من الشرك الخفيّ ، وأقترب من المقام فألمح أثر قدمين مرسوماً على صخرة تمثل وقوف سينا إبراهيم عليهما يوماً ، فأتساءل : كيف غاصت الرّجلان في صخرة مرمرية قاسية ، ثم أجيب نفسي : ما هذا إلا رمز ليس أكثر - ولعل القارئ العارف يوضح ما استغلق عليّ فهمه - ثم أصرف ذهني عن التفكير بهذا ، فالتصديق به وعدمه ليس من العقيدة بشيء .  
والمهم أن أوقن أن إبراهيم عليه السلام أعاد بناء البيت مع ابنه إسماعيل ، وهنا مقامه .

قال المؤرخ باسلامة : « وأما صفة حَجَرِ المقام ، فهو حجر رخو من نوع حجر الماء ، ولم يكن من الحجر الصوان ، وهو مربع على وجه الإجمال ، ومساحته ذراع يد في ذراع يد طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، أو نحو خمسين سنتيمتر في مثلها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، وفي وسطه أثر قدمي إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، وهي حفرتان على شكل بيضوي مستطيل ، وقد حفرهما الناس بمسح الأيدي ووضع ماء زمزم فيها مرات عديدة ، فنتج من كثرة مرور الأيدي في أثر القدمين واستبدال موضعهما حفرتان ، كما دل على ذلك الروايات . وقد رأيت حَجَرِ المقام بعيني سنة (١٣٣٢هـ) بصحبة صاحب الفضيلة رئيس السدنة في تلك السنة محمد صالح

بن أحمد بن محمد الشيبني ، فوجدته مصفحاً بالفضة ، وهو موضوع على قاعدة ، وشكله مربع كما وصفته ، ولونه بين البياض والسواد والصفرة ، ورأيت أثر القدمين»

ويصّر بعضهم أن يصلي ركعتي الطواف خلف المقام - اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، مع أن الطائفين كثر ، ويمتدّون خلف المقام بأمتار كثيرة ، ومع هذا يأمر بعض أصحابه أن يتحلّقوا حوله يصدّون موجات الطائفين ليؤدي أحدهم ركعتين في هذا المكان المزدهم ، ويقطع على الناس حركة الطواف الانسيابية . والله في خلقه شؤون.

وكان من المنطقي لمن أنهى الأشواط السبعة أن يستمر في الطواف مبتعداً عن الزحام إلى اليمين أمتاراً قليلة ، فيتخلص من كتلة الطائفين المناسبة بسهولة ويسر ، إلا أن العديد منهم يدافع ويناحر ليعود بعكس التيار ، أو لينطلق بشكل معترض إلى باب الكعبة يدعو الله تعالى بما شاء يسأله الغفران والرحمة ، وكان أولى به - إن أراد الوصول إلى الملتزم - أن يميل إلى الكعبة رويداً رويداً فيجنب نفسه والآخرين عناء التدافع.

لم نستطع أن نصلي في حجر إسماعيل - هذه العمرة على مدى اثني عشر يوماً - ، ومن صلى في حجر إسماعيل فكأنه صلى داخل الكعبة ، فالحجر من أصل البيت وقد كانوا في أكثر الأوقات كذلك يمنعون، ولم ندر سبب المنع ، إلا أننا أرضينا نفسينا حين استذكرنا أننا صلينا فيه في المرات السابقة كثيراً .

أرى نفسي أحياناً أدعو بما لم يكن يخطر ببالي من الأدعية التي يقذفها الله تعالى في نفسي وقلبي ، فأرتاح لها كثيراً ، ولو حاولت أن أستعيدها ما تذكرتها ، فقد كان الذهن أو القلب يتلقفها ويلهج اللسان بها وينشرح الصدر لها ، فأعلم أن الله تعالى رحيم بعبده لطيف به ، وأعلم أنه سبحانه غفار الذنوب ستار العيوب ، يلقي في قلب عبده من المعاني العظيمة

في مثل هذه المواقف ما يُشعره أنه قبل توبته ، ومحا ذنوبه...

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين وجر المستجيرين ، وأمان الخائفين ،  
وكهف التائبين ، يسرت لنا أسباب العمرة فدعوتنا إليك ، فأسرعنا راغبين ، فاجعلنا في عبادك  
الصالحين ، وهيء لنا من أمرنا رشداً ، واجعلنا من عبادك السُّعداء .. اللهم آمين ، يا رب  
العالمين .



## سمعت ورأيت ( ٢ )

### في السعي بين الصفا والمروة

لا تكتمل العمرة بعد الطواف إلا في السعي بين مرتفعي الصفا والمروة سبعة أشواط تبدأ بالصفا وتنتهي بالمروة ، فقد قال الله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوفَ بهما ، ومن تطَّوع خيراً فإن الله شاکر عليم . " ومن عجيب الفهم القاصر قول أحدهم : فلا جناح عليه أن يطَّوفَ بهما ، إنَّ لك أن تطوف أو لا تطوف ، فقد ترك الخيار لك . قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية:

" قَالَ الإمامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الهَاشِمِيُّ أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنِ الرَّهْرِيِّ عَنِ عُرْوَةَ عَنِ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا " قُلْتُ فَوَاللَّهِ مَا عَلَيَّ أَحَدٌ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَتَطَّوَّفَ بِهِمَا فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بِسْمَا قُلْتُ يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَلَيَّ مَا أَوْلَتْهَا عَلَيْهِ كَانَتْ : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ ( لَا يَطُوفُ ) بِهِمَا وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلَتْ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةِ الطَّاعِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ ؛ وَكَانَ مِنْ أَهْلِهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا " قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوْفَ بِهِمَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوْفَ بِهِمَا

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

وكان بعضهم يقول : إِنَّ طَوَافَنَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَجْرَيْنِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ إِنَّمَا أَمَرْنَا بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَمَ نُنُومَرِ بِالطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَلَعَلَّهَا نَزَلَتْ فِي هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ : سَأَلْتُ أُنْسًا عَنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ؟ قَالَ : كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ "

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : كَانَ إِسَافٌ عَلَى الصَّفَا وَكَانَتْ نَائِلَةً عَلَى الْمَرْوَةِ وَكَانُوا يَسْتَلِمُونَهُمَا فَتَحَرَّجُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ مِنَ الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . قُلْتُ " ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ أَنَّ إِسَافًا وَنَائِلَةً كَانَا بَشَرَيْنِ فَرَزِنَا دَاخِلَ الْكَعْبَةِ فَمُسِخَا حَجْرَيْنِ فَنَصَبْتُهُمَا فُرُيشَ بُحَاهِ الْكَعْبَةِ لِيَعْتَبِرَ بِهِمَا النَّاسُ فَلَمَّا طَالَ عَهْدُهُمَا عُبِدَا ثُمَّ حُؤَلَا إِلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَنُصِبَا هُنَالِكَ فَكَانَ مَنْ طَافَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ يَسْتَلِمُهُمَا .

صلينا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام بعد صلاة العشاء التي حانت بعد الطواف مباشرة وانطلقنا نحو الصفا ، وبعد أن اعتليناها اتجهنا إلى البيت ندعو الله تعالى ونسأله القبول ، ثم بدنا السعي .

مشينا متمهلين ، فمن تجاوز الستين بستين غيره قبل ثلاثين سنة ، فهناك صرح الشباب ، وهنا الشيخوخة ، هناك القوة ، وهنا الضعف والشيبة ، هذه سنة الله في عباده ، فمن وعى ذلك انتبه أنه مودّع في يوم حان مجيئه ، فما مضى أكثر بكثير مما بقي ، والحركة أقرب إلى البطء ، خاصة بعد بذل الجهد في الطواف . . . هرولت بين الميلين الأخضرين ،



ونظرت إلى رقيقة الدرب التي حاولت أن تسرع لتلحق بي ، كانت تلهث ، ووجهها يحمرّ ، وعرقها يسيل . فانتظرتها إلى أن وصلت تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، ، فغطفت عليها ممسكاً بيدها أعينها في مسيرها ، ووصلنا إلى المروة ، فصعدناها واتجهنا إلى البيت الشريف نسأل الله تعالى أن يعيننا على إتمام السعي وقبولنا في عباده الصالحين ، وسرنا متمهلين نحو الصفا...

اضطررنا للجلوس على مرتفع قريب من الصفا رأينا بعض الأسر تجلس فيه وشرينا من ماء زمزم المبتوث في كل مكان في الحرم يناله المصلون متى ما أرادوا ، وهذه منقبة رائعة للقائمين على خدمة الحجيج والمعتمرين والزائرين جزاهم الله كل خير . وتذكرت قول الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده  
ولا الصبابة إلا من يعانيتها

كنا من قبل حين نبدأ السعي ننطلق بهمة ونشاط لا يجارينا فيها إلا القليل من الساعين، وفر على أمثالنا من كبار السنّ ، فندعو لهم بالصحة والعافية غير مدركين حجم معاناتهم . لكننا الآن نعيد سيرتهم ، ولعلّ بعض الشباب والصبايا الآن ينظرون إلينا بالعين نفسها التي كنا ننظر في سالف الأيام إلى أمثالنا الآن . هكذا الحياة تدور فيعيش البشر دورتها التي قدرها الله سبحانه على مخلوقاته .

ضحكنا كثيراً حين انطلق بعض الشباب بين الميلين بخفة الغزلان وتبعتهم فتاة في العشرين من عمرها تركض خلفهم ، ولعلها كانت معهم ، فرفعت ثوبها إلى ركبتيها ، وكأنها تقول : لن تسبقوني . ونسيت أو غفلت أنها كشفت ما ينبغي ستره حين أخذتها الحمية ففعلت ما فعلوا.

أما هؤلاء النساء الماليزيات اللواتي يقودهن رجل فوق الخمسين فقد كنّ يرددن ما كان يدعو به من لغة غريبة لم أفهم منها حرفاً ، ويسرعن وراءه بثيابهنّ المزركشة وحجاب الرأس

الملوّن المكتوب عليه بالعربية " ماليزيا " ولعلهنّ وقائدهنّ كنّ مسرعات يرغبن الانتهاء من السعي بوقت قصير ، فلم يرتفعن إلى الصفا ، إنما التففن جميعاً التفافاً سريعاً مع صاحبهنّ نحو المروة ، وتابعن السعي والدعاء . وهكذا فعلم حين وصلن إلى المروة.

قبل المروة بأمتار قليلة فتحة تعود إلى المسعى المقابل المؤدي إلى الصفا ، حين وصل إليه أحد الرجال ومعه ولداه الصغيران ، انعطف الأصغر قائلاً لأبيه ، تعال من هنا يا بابا ، فالطريق أقصر . فما كان من والده إلا أن جذبه قائلاً : لا بد في كل مرة - يا بني - أن نرتفع للصفاء أو للمروة ، وإلا لم يُحسب الشوط لنا .

كان أحدهم - وبصوت مرتفع - يسرع في سعيه ويحدّث أحدهم بالهاتف المحمول في أمور البيع والشراء ويخبره أن الثمن المدفوع بالبضاعة أقل بكثير من المطلوب ، ويؤكد لمن يكلمه أنه لو أراد بيعه بمثل هذا الثمن لباعه منذ زمن ، ويبدو أن الحديث طال بينهما ، فقد رأيته يتجاوزني بمسافة بعيدة ويده ما تزال تحمل الهاتف إلى أذنه.

كانت هذه المرأة تجلس على ركبتيها أعلى الصفا وظهرها للناس ، وتحرك يديها بطريقة متوازنة ، فلما وصلنا قريباً منها ودعونا الله متجهين إلى الكعبة التفت إليها لأراها تنظف رضيعها بالورق المبلل ، وتميط عنه الأذى ، لا شك أن الأمر ليس بمستهجن ، فقد كان هذا المكان على مر القرون الماضية محلات تجارية وبيوتات سكنية وطريقاً لأهل المنطقة ، وتحول منذ عشرات السنين القريبة فقط داخل سور الحرم .

منذ سنتين فقط جئت معتمراً ، فسعينا ذهاباً وإياباً في منطقة الذهاب التي نراها الآن ، وتضاعف عرض المسعى ليسمح بسهولة الحركة للحجاج والمعتمرين الذين يزدادون يوماً بعد يوم ، ومع هذا فقد امتلأ المسعى بالناس وكأننا وقت الحج ، أو في عمرة رمضان . فالحمد لله

تعالى أن يسر لعباده الاعتماد على مدار السنة ، فكثر زوار بيته المعظم . قيل لنا لو ارتفعتما  
إلى المسعى في الطابق الأعلى فالسعي هناك أسهل ، فلم نفعل لأننا اعتدنا على أن نصعد  
الجلين أما هناك فلا صعود ولا هبوط.

قلت قبل أداء العمرة متشوقاً لأدائها:

يا رب بلّغني له ..... فأنت من يهدي الضليل

يا رب وارزقني زيارته ..... بيتك العالي الظليل

وزيارةً للمصطفى ..... فهو في قلبي أصيل

وكانت دعوة من القلب في ليلة مباركة ، فرزقني الله تعالى بفضل منه ورحمة زيارة بيته

العتيق ، ومسجد رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

اللهم تقبل منا أعمالنا وتجاوز عن سيئاتنا ، فأنت العليم بحالنا ، وأنت الكريم ذو

الفضل ، سبحانك ، لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.....



## الباكستان ( ١ )

صيف عام ستة وثمانين وتسع مئة وألف سافر بعض المدرسين من العاملين في الإمارات إلى الباكستان يؤدون امتحان دراسة الماجستير في كل الاختصاصات، سألني أحدهم : أتودّ أن أسجلك في عداد الدارسين السنة القادمة ؟ قلت أين ؟ قال في جامعة " البنجاب " في لاهور . وهي شهادة معترف بها. قلت : نعم ، على بركة الله . قال يكلفك التسجيل ألفاً وخمسة مئة درهم. قلت : لا بأس، ثم إن الامتحان كما ذكرت في الصيف فلا نحتاج إجازة قد توافق عليها الوزارة ، وقد لا توافق، قال : إن شابا من لاهور يتابع الأمور لقاء ذلك المبلغ....

و حين عاد بعد عشرين يوماً أعطاني رقم هاتف " وسيم " وقال : إنه وسيطك ، وسيرسل بعد أيام المقرر الذي ينبغي دراسته لتبدأ من الآن الدراسة ، فالمنهج ضخم. يحتاج إلى همة الرجال .

اتصلت به ، وأعطيته عنواني . فأرسل المنهاج ، وكان ضخماً فعلاً ، تضمن الأدب على مر العصور، و " شذور الذهب " مع أبواب من "مغني اللبيب عن كتب الأعراب" لابن هشام النحويّ ، " وتاريخ الأمم الإسلامية" للشيخ محمد الخضري بك ، وتفسير بعض طوال السور ، ومواضيع فقه اللغة، ومقررات أخرى حتى كدت أتراجع عن الدراسة ، لكنني رأيت بعض من رغب في الاستمرار يشجعني على ذلك، فاستعنت الله تعالى ، وبدأت القراءة والدراسة ، وانشرح صدري فانكبت على الكتب مسترجعاً ما درست سابقاً ، ومضيفاً إليه الجديد، وبارك الله تعالى في الوقت والجهد ، ومن استعان الله أعانه، ومن قصده لبّاه ، ويسر أمره.

ولم تشأ أم حسان مشاركتي ، فلها اهتماماتها الخاصة، هكذا كان ردّها. وأمرتني أن

أشترى لها " كمبيوترا " وتلفزيونا " جديدا ملونا وجهاز "فاكس" فكان لها ما أرادت . وهل  
أملك إلا أن أكون كذلك ؟ !

وقلت معارضا الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

دع العصيان فالعصيان داء	وطب نفسا إذا حكم النساءُ
إذا ما كنت منقادا مطيعا	أتاك الخير وانجاب البلاءُ
وسلم في الأمور بلا اعتراض	وإلا فالملكاه والشقاءُ
ولا ترفض لآمرة كلاما	تجد شرا إذا جاء المساءُ
وخير الناس من دارى بلطف	وسارع للرضا وبه احتفاءُ
وأما من تكاسل أو تواني	فلا أرض تقيه، ولا سماءُ

وجاء الصيف ، وكان من المتوقع أن أسافر إلى لاهور في " تموز " يوليو فأجل الموعد إلى " آب " اوجست، ثم إلى الأول من " أيلول " سبتمبر إلى العشرين منه ، فطلبت إجازة، دون راتب ، فنلتها ، ثم استقر الامتحان على سبتمبر كله ،  
فتحت المدارس أبوابها في الأول من أيلول، لكن التلاميذ يداومون في منتصف الشهر ، فوافق على الإجازة بسهولة ، فهذا من مصلحة الوزارة الماديّة ، لكن الإجازة للشهر كله يعني أن غيري من المدرسين سيعمل عملا إضافيا مدة أسبوعين . فترة غيابي . وقد لا توافق الوزارة على تمديد الإجازة ، فاستخرت الله تعالى ، والتمست تمديد الإجازة أو إلغائها ، فجاءني التمديد ، فارتحت لما قدر الله لي ، وطرقت إلى لاهور منشرح الصدر مرتاح النفس ، على الخطوط الباكستانية، وأنصح كل مسافر أن يختار الخطوط التابعة للبلد التي يسافر إليها فيملك هناك خيارات عدّة.

المسافة بين دبي وكراتشي جوا ساعة ونصف الساعة ، أما إلى لاهور في الشرق قرب كشمير فثلاث ساعات . وكانت الرحلة مباشرة إلى لاهور دون توقف في كراتشي مما جعلها مقبولة ، فلم أتعب.

حطت الطائرة في المطار قبيل العشاء ، وكانت الإجراءات سهلة ، والتقيت " وسيمًا " لأول مرة ، فقد كان شابا لطيفا ، ذا لحية خفيفة ، ووجه متناسق ، وابتسامة دائمة هادئة، عرفني بسهولة من الصورة التي أرسلتها مع أوراق التسجيل، يعرف من العربية قليلا ، وأعرف من الإنجليزية القليل كذلك ، فكان التفاهم جيدا، كان معتدل القامة أقرب إلى القصر، ومعه شاب لطيف كثير الابتسام، معتدل القامة أقرب إلى الطول ، " فروخ عثمان " يشبه الأخ الأستاذ "مروان زرزور" صديقي الدمشقي المدرس للغة العربية في الشارقة شبا كبيرا جدا في هيئته وصوته ولونه الأبيض وصغر عينيه وحدة أنفه، إلا أنه أصغر عمرا ، فتذكرت القول الشائع: يخلق من الشبه أربعين ، وكانت لغته العربية جيدة وكان التزامه الإسلامي أوضح من وسيم، لم يكن وسيم متزوجا مع أن حالته المادية جيدة ،أما فروخ فمتزوج وله ولدان، وكان الاثنان يعملان في بنك فروعه مزروعة في كل مكان ،.... كان سلامهما حارا بجملة الجوى في لاهور، واصطحباني إلى الفندق ،فوضعنا الأمتعة في الغرفة المحجوزة، ثم تغدينا في مطعم صيني، وجبة لذيذة ، أطيب ما فيها أنها على جوع ، مما شجعني أن أزور هذا المطعم وأضربه كثيرا في هذه المدينة مع جارِيّ الحديدين في الفندق الثاني ، ولا أنسى أنني قلت لزوجتي حين عدت إلى الشارقة : ما رأيك أن نتغدى في مطعم صيني كما كنت أفعل في لاهور ؟ أجابت : ولم لا . هيا ، فالسوق أقرب ، وطعامه أطيب . والحقيقة أن ما قاله الحريري في مقامته تلك ينطبق على كثير من النساء غير زوجتي ، فهي ذواقه وطبخها مشهور في النساء ، ومن أمتع أوقاتها -

كما تقول- بقاؤها في المطبخ ، وجلوسها أمام التلفاز في برنامج يقدم طبقا من الحلوى أو وجبة غداء فتتقن صنعه، وأنا أشهد لها بذلك عن قناعة ، لا عن ضغط خارجي أو داخلي،.. دخلنا المطعم الصيني ، وطلبنا أرزا ولحما ، ومقبلات ، فما أبتلعت لقيمات حتى قذفت ما في بطني منها، لسوء مذاقها ، وبتن رائحتها، أما زوجتي فلم تتناول منها شيئا ، ونظرنا حولنا فإذا بتمثال بوذا معلقا في صدر المطعم ، وإذا أصحابه بوذيون ، فاندفعنا إلى الخارج سريعا نستغفر الله على دخولنا إياه، ودفعنا ثمن ما لم نأكله ، وسألونا رأينا فيما قدّموه من طعام ، فقلنا دون حجل: إنه من أسوأ ما تذوقنا ، لقد كانت المطاعم الصينية في لاهور بأيدي مسلمة ، وأسلوب باكستاني اعتدنا عليه في الإمارات ، ويكفي أنهم مسلمون ترتاح القلوب لما يقدمون من أكل حلال ،هم أحرص عليه ، فقد وجدت فيهم غيرة على الإسلام وحرصاً عليه.

كانت أجرة الليلة في الفندق -على الرغم من بساطته- مرتفعة ، فشاركني اليوم التالي فيها مصري يعمل في الشارقة أستاذا في كلية العلوم البحرية التابعة للجامعة العربية، كنت في الأربعين من عمري ، وكان في الخامسة والخمسين ، يقدم الامتحان في الشريعة الإسلامية ، والحقيقة أنه كان طيب الأخلاق حسن المعشر ، واصلته في الشارقة حين عدنا ، لكنني نسيت اسمه الآن ، فذاكرتي كثيرة الثقوب، لا تحفظ الأسماء ، كثيرا ما توقعني في مواقف مربكة أو محرجة، ولا حاجة للإنسان أن يفضح نفسه، فيذكر كل شيء، والله تعالى يحب الستر.

انتقلنا إلى فندق شعبي أعجبنا ، وانفرد كل منا بغرفة فيه، ودفع أجرتها أقل مما دفعنا معا في الغرفة التي اشتركتنا فيها. وقد أعجبني المكان لأكثر من سبب، أما الاول فلأنه في منتصف المدينة، وأما الثاني فلأنه بسيط ، وأنا أحب البساطة في الأمور كلها ، وأكره التكلف والمتكلفين ، وأما الثالث فالفندق يذكرني بمعاهد الطفولة والصبا ، فنحن نسكن في حلب ، في

سوق الخيش قرب الجامع الأموي الكبير ، منتصف المدينة المسقوفة، التي تكثر فيها الخانات، وهذا الفندق خان، وقد كان أسلافنا حين يسافرون ينزلون الخانات . وهذا الخان-الفندق- صورة مصغرة لخان " القصّابية " الذي يطل عليه بيت الأسرة كما أن حانوت الوالد رحمه الله تعالى يبعد عنه خمسين مترا ، وله فيه مخزن واسع يتخذه معملا ، قضيت فيه السنوات الطوال.... إذن فأنا في حبي وبيتي ومعهدتي التي ابتعدت عنها عشر سنين و سعدت بلقاء المثلث . الفندق الخان . بعد غياب عقد من العمر ، فماذا أقول اليوم ونحن في العام الرابع بعد الألفين ؟ وقد منعت قسرا عن الوطن الحبيب ستة وعشرين عاما بالتمام والكمال!!؟

كان الشباب . قبل أسبوعين من كتابة هذه المقالة في حفلة عرس ينشدون أبياتا من " طلع البدر علينا" فقلت لهم قولوا:

غربتي طالت وطالت      خمس خمسات و عام  
فرّج اللهم كربي      وامنح القلب السلام

ودمعت عيناى ، إن البعد عن الوطن ومرايع الصبا كرب ومحنة ، واللجوء إلى المولى تبارك وتعالى الحل، فليس لنا إلا الله تعالى يصبرنا في الغربة ، ويأخذ بأيدينا ، ويثينا خير الجزاء، إنا لله وإنا إليه راجعون، من قالها انقلب غمه سرورا ، وشوقه سكينه ، وهدأت نفسه وعاش في فضل عميم ،، هكذا يعلمنا ديننا العظيم ، وهكذا نفهم من الآية الكريمة: " فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. "

في أحد الممرات المطلة على باحة الخان أربع غرف صغيرة ، في كل واحدة سرير مريح وطاولة خشبية قديمة من الزان القوي عليها إبريق الماء المعدني وكأسان زجاجيان، وكريسيان من الزمن الغابر لكنهما متماسكان، ومكيف صحراوي ، وخزانة حديدية نظيفة . عرض الممر



ثلاثة أمتار ، وطوله باتساع الغرف الأربع ، ، وقبل الدخول إلى الممر خزان كهربائي يبرد ماء الشرب، يجد فيه المرء بغيته دائما . وكان الجو لطيفا إلا عند الظهر فنلطفه بالمكيف، شغلنا الغرف الثلاث الأخيرة أكثر من عشرين يوما ، طوال فترة الامتحان، أما الأولى فقليلًا ما كانت تُشغل... أنا في الثانية ، وأخ فلسطيني يعمل مدرسا للغة العربية في الكويت نسيت اسمه ، وكان لطيف المعشر نظيف الفكر في الثالثة ، والأستاذ المصري في الرابعة . إذًا كان الممر لنا -أيها الثلاثة-، نجلس فيه صباحا بعد طلوع الشمس أو بعد العصر ، نتجاذب اطراف الحديث ، أو ندرس على لمسات النسيم العليل، وكانت مواعيد الامتحان صباح يومين من الأسبوع على ثلاثة أسابيع .

لم يتسنّ لنا أن نتجول خارج نطاق المنطقة التي سكنها عدا مكان الامتحانات الذي كنا نقصده بمركبة صغيرة على دراجات ثلاث تدعى " ركشا " ونسميها في بلادنا " طرطيرة " لصوتها المطرطر الهادر، تتسع لشخص واحد إلى جانب السائق ، ولاتنين بعملية ديكورية، والرخصُ رائدنا والسهولة دافعنا، وهي وسيلة المواصلات الأولى في المدينة ، وأعدادها وافرة . كان الغداء المعتاد أكلة " البرياني " المشهورة في الخليج ، من أرز ولحم، وهي باكستانية المنشأ، كثيرة التوابل ، لذيدة الطعم ، بالإضافة إلى أنها تبيض الوجه!! فكيف ذلك؟؟! وهنا أدرك شهريار الصباح فبدأ الكلام المباح، باللسنة فصاح، فأعلن وباح، واعتذر منكم واستماح: حين جئنا الإمارات حملنا معنا عاداتنا - معشر الحلبيين - فإذا دعونا ضيوفا للغداء أو العشاء فلا بد من أنواع الكبب-جمع كبة -ومحشي البيرق " ورق العنب " والمقلوبة والرز مع المرق ، وأقصد بالمرق الشاكرية باللبن ، أو السماق أو السفرجل أو... وهذا يعني العمل المتواصل لأهل البيت ، والتعب المرهق يومين متتاليين . لينتهي كل ما يصنع في وجبة واحدة ،

يؤرق سيدة البيت إن طُلب إليها أن تحضّر لضيوف آخرين في الأسبوع التالي ، فما بالك إن كان الزوار كثيرين؟! وقد يأتونك مرتين في الأسبوع؟!.. كنا في الشارقة ، وهي إمارة متوسطة بين أخواتها،

كادت الزوجة تبكي حين قلت لها : سيزورنا بعد غد أصدقاء من الفجيرة ،فهذا يعني تجهيز الطعام ، والبقاء ساعات في المطبخ ، فقلت لها : لا بد مما ليس منه بد.

قالت ولكنني مدرسة أتعب مثلك في عملي!! وأنا وحيدة ليس لي أولاد يساعدونني.

قلت : " البرياني " يا ابنة الحلال يفي بالغرض.

قالت ولكنه ليس مما اعتدنا عليه ، وسيعيوننا.

قلت : ما الحل ؟ سكتت ...ثم قالت : سيأكلون وجوهنا.

قلت : أتطبخين ما اعتدتِ عليه؟ سكتت.

قلت : ارحميني يا امرأة .

قالت : افعل ما بدا لك .

صليت العشاء في المسجد، واشترت اللحم من " سوبرماركت " قريب منا ، وقصدت

مطبخا للبرياني معروفا بجودة الطبخ والزكاء ، وقلت له أريده غدا في الثانية ظهرا ،

وفي طريقي إليه اليوم التالي اشترت صحونا كرتونية وملاعق بلاستيكية ولفافات السفرة

النايلون، وصواني ستانليستيل، ودرّينات من علب اللبن . والدزينة اثنتا عشرة قطعة وشيئا من

الفاكهة وعُجْتُ على المطبخ فحملت القدر الكبيرة ، وانطلقت إلى البيت .

جاء الأصحاب ، وكانت الزوجة خجلى مما فعلنا ، فلم تشأ أن تقدم الأكل للنساء إلا

في صحون الزجاج والملاعق البيتية، وسمعنا الاستحسان من الجميع ، حتى إن أحدهم دعا

الحاضرين إلى الغداء بعد يومين و كلفني أن أتولى أمر تجهيزه . وهل يحتاج تجهيزا؟! وقال أرحتنا أراحك الله من كل مكروه ، وقلدني الآخرون فيما سننْتُ، فكان هذا أدعى إلى الإكثار من اللوائم .

ولا بد من الاستطراد حين يكون الحديث متعلقا بما سلف ، فقد كنا مجموعة من السوريين نندارس كل أسبوع بعض آيات القرآن الكريم ، ومواقف من السيرة النبوية الشريفة ، ومختارات من الأحاديث الشريفة من رياض الصالحين للإمام النووي رحمه الله . وأذكر أننا كنا نجتمع بعد المغرب كل يوم اثنين، فقررنا أن نصوم هذا اليوم ونلتقي في بيت أحدنا قبل المغرب بساعتين ، فإذا أذن للمغرب صلينا وأفطرنا عند الرجل... واقترحت عليهم أن يكون الإفطار شوربة العدس فقط مع الخبز الجاف نفتته لقيمات ، ونلقيه فيها فيتشرب الحمض والماء ، ويكون الإفطار بسيطا لا يثقل على الزوجة ولا على الجيب ، ونعوّد أنفسنا على التقشف !. وقلت نبدأ التجربة في بيتي... وأخبرت حكومتي المتفهمة لهذه الأهداف المغزى الذي نسعى له، وكلني أمل ورجاء أن تكون عوننا لي ... وجاء ذلك اليوم وسارت الأمور على ما يُرام، وأُذِن للمغرب ، فأفطرنا على التمر، وصلينا المكتوبة ، وانتقلنا لغرفة الطعام ، ففوجئت أن مع الشوربة "جاطا" صحنا كبيرا من المعكرونة "سباغيتي".، نظر الحاضرون إليّ نظرة استغراب مشوبة بالابتسام ، وكأنهم يقولون أول الغيث قطرات، وصاحب الاقتراح أول من نأى عنه. فأكدت لهم أنني مثلهم فوجئت بذلك ، ولا علم لي بما بيته الزوجة ، ولما سألتها معترضا بررت ذلك بأن بعضهم قد لا يستسيغ الشوربة " الحساء " ، فيجد البديل ، ولا بأس أن يأكل الحاضرون من نوع واحد، فيلتزموا ما اتفقوا عليه! لماذا لم تستشيريني؟ قالت لن توافق ، ولن أكون مضغة في أفواه المدعويين . قلت: ولم حشرت نفسك في هكذا أمر ؟ قالت : كيف لا وأنا المسؤولة

عن إكرام الضيوف ؟ ! وأسقط في يدي، فمصارعة الماء والهواء لا تجدي .

وفي الأسبوع التالي عند أخ ثان كان الطعام ثلاثة أنواع ، طبعا مع اعتذار غير مقبول ،  
و حين اجتمعنا في الأسبوع الذي يليه في بيت آخر كان هناك أربعة أنواع ... وفي بيت الرجل  
الثامن كانت الأنواع تسعة. وفهمت أن أحدنا حين يعود إلى بيته تسأله الحرم المصون عن  
الأكلات الموضوعية والوجبات المصنوعة ، وهي ليست أقل من صاحبها شأنًا ، فستفعل مثلها  
وتزيد نوعا آخر ... كان لقاءنا غذاء روحيا فكريا ، فانقلب لقاء بطنيا كُرشيا... .

ونعود إلى لاهور ، فإذا جاء المساء خرجنا من الفندق إلى الزاوية أمامه حيث ترى  
مطعما يقدم الكلى وبيض الغنم وقلوبها بطريقة تدل على الذوق الرفيع ، فتراه يفرم البصل  
ناعما ثم يقلبه، ثم يطرح البيض أو غيره أو ما تريده أنت بعد أن يفرمه بسرعة ودقة ناعما  
كذلك ، ثم يقشر البندورة " الطماطم " ويثرمها ، ويطرحها فوقها ، ويضيف التوابل اللاذعة .  
إن شئت . ويقلبها حتى تبدو مرهما ، فيقدمها مع عصير مناسب.

وترى أمام الفندق من ينادي على قصب السكر فتشتري كأسا صغيرة ب " روبية "   
واحدة أو كبيرة باثنتين، ويعصر عليها قليلا من الليمون ، وقد تشرب كأسا كبيرة من عصير  
المانجو الطازج بالحليب ، وتسير في الشوارع القريبة من الفندق ليلا أو نهارا بأمان .

أستطيع أن أقول إن المكان الذي نزلنا فيه أشبه بمنطقة باب الفرج وباب الجنائن في  
حلب ، ومنطقة الحميدية وما حولها في دمشق ، ومنطقة السيدة زينب والأزهر في القاهرة.  
فالشوارع واسعة ، وهي مزدحمة في النهار ، عادية في الليل، أما بناء الجامعة القديم ففي  
منتصف المدينة، المتوسط الرقي، ولعلها كانت راقية في الخمسينات من القرن الماضي . وردهاته  
وقاعاته تشبه قاعات المحاكم في علو سقوفها واتساعها وعظم أحجارها، أما البناء الجديد فعلى

طراز الكليات الحديثة في بلاد الغرب .

والباكستاني محب للضيف ، طيب السريرة ، خدوم ، حسن المعشر ، والبنجابي أقرب إلى الوسامة والجمال من البلوشي ، وبلوشستان إقليم باكستان الغربي ، على حدود إيران ، ويتكلمون إحدى اللهجات الإيرانية ، إلا أن بلادهم غزيرة المياه كثيرة الينابيع ، لم أزرها لكنني مررت فوقها بالطائرة ، فأوحت لي بهذا الانطباع. وسأحدثكم في الباكستان . ٢ . إن شاء الله تعالى . عن مشاهداتنا فلسنت وحدي ، لقد كان الشطر الناعم في المقدمة! ورحم الله امرءا عرف واجبه ، وأراح جانبه.

من حسن حظي أنني كنت أول العائدين إلى الإمارات ، فأنا لا أحب أن أودع أحدا ، إن الوداع يعني الفراغ والفقدان ، وهذا باب من أبواب التعاسة لا أود أن أُلجّه . كان آخر امتحان صباح يوم الخميس التاسع والعشرين من أيلول ، والسفر عصر اليوم نفسه، ووصلت الشارقة وقت المغرب.

ذهبت السبت إلى ثانوية دبي مكان عملي، وكانت المفاجأة رائعة ، ان يكون شريكي في المكان أخواً حبيبا إلى نفسي، فوجئت به جالسا على كرسي إلى طاولتي قلت : السلام عليكم . رد الجميع السلام ، وتبينت صوته أقبلت على الأساتذة الآخرين أولا، ثم عدت إليه أضمه بين ذراعيّ وقلبي ، وهو في قلبي دائما ، عرفته في إعدادية السعيدية في دبي ، وكانت السنة التي قضيتها معه تجلو شمائله الرفيعة أطال الله عمره ، وأحسن عمله، أخي وصديقي أبو أيمن " جاسم الدوري " العراقي ، قلت فيه شعرا كثيرا أثبت فيه حبي وودي ، ومما قلت فيه :

بعضُ الرجالِ حباهمُ الربُّ      خُلُقًا يهيمُ بحسنه القلبُ

روضُ المجالسِ همُ وبهجتها      وعليهمُ الانظارُ تنصبُّ

فكلامهم وردّ له عبّقُ      وسلامهم - إن تلقهم - عذبُ

حتى إذا سكتوا فإنهم      قطبٌ يدور حiale الصحبُ

وكنت معه عام ١٩٩٧ نراقب التلاميذ في الامتحان النصفى في السادس عشر من كانون الثاني، فأغفى الشيخ أبو أيمن إغفاءة ، فقلت له: أراك غفوت ، فهل تشعر بالتعب؟ نظر إلي مبتسما وقال :

بعض التلاميذ نائمون ، وبعضهم مستيقظ. تراقبُ أنت اليقظين، وأرقبُ أنا النائمين !!  
أعجبني جوابه النبیهُ فرسمته شعراً أقول فيه:

يا مغمضَ العينين كنتَ حالما      وكنْتُ معَ طلابنا ملازما

أرقبهم بلا توائٍ يا أخي      ففيمَ كنتَ يا صديقي ساهما؟

أجابني الحبيبُ : مهلاً إنني      رأيتُ في الإغفاء أمراً لازما

تتابعُ الطلابَ في صحوتهم      وكان دَوري أن أجاري النائما!

ولعلي أكتب في واحة الإخاء في هذا الموقع الرائد بعض ما ينبض به قلبي نحو الأحباب .  
وما أكثرهم . وأدعو الإخوة الأدباء والشعراء أن يثبتوا للماديين في هذا الزمن المادي الكتيب  
الردىء أن المسلم قدوة في ضوع نشر الأخوة الصادقة والحب في الله تعالى ، وأن الصلة  
الحقيقية الثابتة في دنيا الناس ينبغي أن تكون في حب صادق لا يزول ولا يحول.. إنه الله.



## الباكستان ( ٢ )

دنت العطلة الصيفية لعام ثمانية وثمانين وتسع مئة وألف، وكنا في أواخر أيار " مايو " حين جلست إلى أحد الإخوة المدرسين أشكو له صعوبة استقدام أخت زوجتي إلى الإمارات، مع أولادها الثلاثة، وهي مدرسة للغة العربية تحمل شهادة الماجستير ، وتعيش وحدها في حلب بعد أن اعتقل زوجها الدكتور " حسني ناعسة" المدرس في جامعة تشرين في اللاذقية ، عام واحد وثمانين ، وما عاد يعرف عنه خبر ، فانتقلت إلى حلب ، تستأنس ببعض أهلها.

سمع الحديث الأستاذ الفاضل الشاعر" عبد المنعم عواد " رئيس رابطة الأدباء في مصر الآن ، وكان مدرسا في ثانوية دبي ، يجلس على منضدته أمامنا، فتبسم قائلا : يا أخي أبا حسان : هلاّ أعدت عليّ الأمر ، فقد سمعت منه شذرات، ولعلي أستطيع خدمتها وأولادها، إن شاء الله تعالى.

ذكرت له أن بإمكان الأخت أن تستزير أختها إن كانت متزوجة ، وأن تكفلها إن لم تكن متزوجة، أما أن تكفلها وأولادها فأمر يحتاج إلى واسطة ، ولن يفهم أولو الأمر في الإمارات طبيعة ما يجري في سورية .. قد يتفهم أصحاب العقول الراجحة والقلوب الرحيمة الوضع فيتجاوزون ، وقد يعرف المفسدون منهم حقيقة الأمر فيتعتنون ويرفضون. وفي الدنيا من كلا النوعين ما يكفي .

كان رئيس دائرة الهجرة والجوازات في دبي الشاعر المقدم محمد السيد وله مشاركات في الأمسيات الشعرية والأدبية التي يحضرها الشاعر عبد المنعم ، فتأصلت العلاقة الأدبية بينهما، وولدت صداقة طيبة ، شجعته أن يتصل به فيعرض عليه الأمر فيعده بالإيجاب ، ومن ضمن

الشفاعة أنني أشارك معهما في قرض الشعر وصناعة الأدب .

وكان وكيل مدرستنا الأستاذ "حسن" من دولة الإمارات - وهو مثال اللطف والأدب -  
عرّفتني على صديق له ، رئيس قسم التأشيريات في الدائرة نفسها لطيف المعشر ذكي الفؤاد ،  
ونصحتني أن أعطيه طلبات التأشيرة ، ولن يقصر في النصح لنا ومساعدتنا .

قلت في نفسي : لن أحتاج لزيارة العقيد إن حل مع الملازم الأول ... سألت عنه فلم  
يكن موجودا . فاتجهت إلى مكتب الرئيس ، وأخبرت مسؤول مكتبه أنني أريد مقابله ،  
وانتظرت دقائق ، ثم دخلت عليه ، فاستقبلني بوجه بشوش ، وبسمة لطيفة ، وأدب جم .  
ومنح الأخت وأولادها إقامة بكفالة أختها مدة سنة لا تجدد ، فحمدت الله تعالى أن أمر  
الأخت الطيبة ميسر ، وهذه أول الإمارات - بفتح الهمزة - ونزلت بالموافقة إلى الشباك الذي  
سألت فيه عن الملازم الأول ، ووقفت وراء المراجعين الذين سبقوني ، فناداني ضابط خلفه مشيرا  
إليّ أن تجاوز الصف ، فتجاوزته ، فقال لي : أنت سألت عن فلان؟ قلت نعم .

قال: لقد ناديتك حين لم تجده وكأنك لم تسمعي، وقلت في نفسي : لعل هذا الرجل  
قصده لأمر أنوب عنه في خدمته... شكرته لشهامته ، وقلت هذه ثاني الإمارات الطيبة لهذه  
الأخت الكريمة.

مضى أسبوعان، وكان الأولاد يملأون البيت سعادة ومرحا ، لم يرزقنا الله تعالى أولادا،  
فكان عبد السلام ومصطفى وصفاء رياحين البيت ... قلت فيهم أول مجيئهم إلى الإمارات

برؤيتكم زاد وجهي ضياء

وشعشع فيه الرضا والسناء

فلقياكم أنس عمر زهبي

وفيه السلامة ، فيه الهناء

ربيع الحياة إذا ما ذُكرتم

يمور ، ويكثر فيه النماء



ولم لا ، وأنتم نسيم الرجاء  
وأنتم هدية رب السماء  
ولم لا وحبكم مالك ل  
نياط القلوب ومجرى الدماء  
وفيكم براءة كل طهور  
وطهر الجمال النقي الرواء  
فزقزقة العندليب استعارت  
لحون أهازيجكم والغناء  
وعطر الزهور وفوح الورود  
شذاكم يميس فيجلو العناء  
وشمس الحياة ونور الصباح  
وجوهكم النيراتُ الوضاء

أرسل الأخ وسيم من لاهور صورة مصدقة عن شهادة الماجستير، وقال : سأرسل لكم الكرتونة الأصلية في الصيف . فقالت أم حسان ألا نسافر أيما إلى الباكستان نتعرف عليها ونزور مدنها ، وآثارها ونتعرف على عادات أهلها عن كذب؟.

قلت لها: ألم تعرفي أهلها وهم يملؤون الشارقة وما حولها ؟ إنك لتجدينهم في المحلات التجارية ، والشوارع والأزقة والمساجد والمتنزهات والمطاعم وعلى أبواب الأبنية وفي المنام!! نحن في دولة ينبغي أن تسمى " دولة الإمارات الهندية المتحدة "

قالت : افهمني. .. قلت: فهمتك يا زوجتي ، وقلتُ ما قلتُ لتفهمي أنني أفهمك .

قالت : المهم أن يكون الفهم عمليا . قلت مغلوبا على أمري : وصلت الرسالة.

كان مخطط رحلتنا زيارة لاهور والبنجاب ، ثم بيشاور، ومنها إلى كراتشي ثم الشارقة. وحددنا ثلاثة أسابيع لهذه الرحلة "السند عثمانية " على وزن الرحلة " السندبادية" فكلانا سافر إلى بلاد السند بطريقته وسطّر ما رأى وشتان ما بين الأصل والتقليد ، فهناك الخيال والأساطير ، والمغامرات والتشويق ، وهنا الواقع الممزوج بالرومانسية وشيء من المعاصرة المادية.

كلية الدراسات الإسلامية والعربية أنشأها الملياردير الإماراتي السيد جمعة الماجد في دبي،

تتم بتخريج مثقفين جامعيين متخصصين بدراسة الفقه والتفسير واللغة العربية، وحشد لها مجموعة طيبة من المدرسين من حملة شهادة الدكتوراه والماجستير ، فكلنا عميدها إذ ذاك الدكتور محمود إبراهيم الديك في عمل أم عبد السلام أخت أم حسان ، فقابلها ، وتمت الموافقة.

وحين علم أن زوجها معتقل ، وأنها تعيل أولادها رق قلبه لها، وحصل من مؤسس الكلية على سكن مجاني لهم قرب الكلية، قائلاً: كنت معتقلاً في سبيل الله يوماً ، فهياً الله تعالى لأهلي من يساعدهم ، وأنا أرجو منه تعالى أن يوفقني لخدمة عباده. فكانت هذه أمانة أخرى طيبة لهذه الأخت الكريمة .

حلقت بنا الطائرة الباكستانية عصراً من مطار الشارقة متجهة شرقاً إلى لاهور، وكانت المياه من تحتنا تلمع بشدة ، تعكس ضوء الشمس فتصدر بريقاً قريباً إلى البياض ، ربما كان هذا لبعده المسافة ، فقد كنا على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. ثم اتجهت صوب الأراضي الإيرانية فاخترقتها، ثم اتجهت إلى الشمال الغربي مصعدة نحو لاهور ، كنت ترى وأنت تطير فوق إيران الجبال الجرداء والصحارى الممتدة المترامية الأطراف يتخللها الأراضي الزراعية الواسعة، وبعض المسيلات المائية .

أسرع المغيب إلى الشفق ، فالشمس إلى المغرب ونحن إلى المشرق فلم يمض ساعة على أذان العصر في الشارقة حتى رأينا أنفسنا نقتحم الظلام بسرعة غير مألوفة ، فسبحان من يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل. وبدأت القرى والداكر تبدو تحتنا بأضوائها الخافتة ، والمدن الكبيرة باتساع رقعتها وتميز أنوارها ، إلا أن هذه الأنوار كانت أقل بكثير مما رأيته حين حلقتنا فوق مدن سورية ومصر ، ولعل هذا عائد لقلّة الإمكانيات المادية في إيران فما إن

خرجت من حكم الشاه حتى دخلت الحرب مع العراق ، فأكلت هذه الحرب الأخصر واليابس.

حطت الطائرة على مدرج مطار لاهور قبيل العشاء ، وكانت الإجراءات الأمنية عادية ، واللفظ باديا على موظفي المطار ، ورائحة المكان لا تنبئ أننا في الباكستان ، فلم نشم رائحة الكاري والبهارات ولا أريج الأفاويه!! التي تنبعث من جلود العاملين في الإمارات من الهند والباكستان واعتدنا عليها ، ومع رائحة زيت الزيتون الذي يدهنون به دائما،،، إني لأعلم أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال: " كلوا الزيت وادهنوا به " ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك وهو في بيته ، فإذا خرج للناس كانت رائحة المسك والطيب تفوح منه ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون أن الرسول الكريم مر في هذا المكان من عقب المسك الذي ينتشر منه فيملاً ما سار فيه .

استقبلنا وسيم استقبالا طيبا ، ثم قادنا إلى فندق نظيف في وسط المدينة قريب من بيته، وانتظرنا قليلا في بهو الاستقبال، فلما نزلنا كان فرّوخ هناك فاستقبلنا ببسمة اللطيفة ، وصافحني دون أن يمد يده لزوجتي فقد نبهه وسيم إلى ذلك قبل مجئنا ، وقادانا إلى مطعم راق تناولنا في البرياني من منبعه، مع السمك المشوي والمقليّ وكان أطيب ما في السمك أنه دون حسك.

شعرت بالقرب منهما أكثر من ذي قبل ، فقد طالت لحية وسيم وتحسنت لغته العربية، أما فرّوخ فقد كان متألقا في مناقشته لأحوال الأمة الإسلامية والتحديات التي تواجهها. لقد كانا واعيين لما يجري حولهما ، وما يحاك لأمتنا من مكائد ومؤامرات. والجدير بالذكر أن العرب الذين هم مادة الإسلام - كما ذكر أمير المؤمنين الفاروق رضي الله عنه - ضربوا المثل

الرديء في تضييع الباكستان حين انفصلت عن الهند عام ثمانية وأربعين وتسع مئة وألف . فقد طلبت الحكومة الباكستانية الأولى من جامعة الدول العربية أن تسعفها بخمسة آلف مدرس يدْرُسون الصف الأول الابتدائي العلوم الدينية والدينيوية باللغة العربية ، ثم في السنة التالية بخمسة آلف أخرى ... وهكذا إلى نهاية المرحلة الثانوية فيتم تعريب المجتمع الباكستاني بهذه الطريقة في عقدين من الزمان ، لكن الدول العربية كانت في ذلك الوقت وإلى الآن متخلفة يحكمها حثالة من الروبيضات الزاحفة ، لا يهتدون سبيلا..... يصرفون أموال البلاد والعباد على موائد القمار ، وفي حانات العريضة ، وعلى ملذآتهم وعهرهم دون حساب.... ولا أزال أذكر خبرا تناقلته الصحف الفرنسية - وكنت في الجزائر وقتها - عام ثمانين عن أمير عربي - قبل أن يصير ملكا لبلاده - قضى ليلة رأس الميلاد على يخته في ميناء "مونتكارلو" مستضيفا أمير موناكو وزوجته، وملك أسبانيا وزوجته، وحاكم الفلبين وزوجته، وثلة من الفسقة والمفسدين ، ثم خسر على مائدة القمار تلك الليلة ثمانين مليون فرنك فرنسي وكانت تعادل عشرين مليون دولار ، وما أدراك ما عشرون مليونا من الدولارات إذ ذاك؟!!! ولما سُئِل عن شعوره حين خسرها قال متبجحا بسخف وجهالة: إنها " مصروف جيب يومي " .... يصرف مثل هذا المال الذي ورثه عن أبيه كل يوم !!، والأمة المقهورة تنوء تحت خط الفقر والحرمان ، هذه أحوال من يسوسون الأمة ويتحكمون بمصائر أمتهم!!! ولهذا غابت الأمة الإسلامية عن مسرح الأحداث الفاعلة ، وتأخرت عن ركب الحضارة وقيادة الأمم. وصدق فينا قول الشاعر:

أنتي اتجهت إلى الإسلام في بلد تجده كالطير مقصوصا جناحاه

كم صرفتتنا يدُ كنا نصرّفها وبات يحكمنا شعب ملكناه

من الأمور المبهجة أن تحضر درسا في الفقه - في الجامعة - يلقي باللغة العربية ، وأن

تجلس لتستمع وتشارك غير العرب بتلاوة القرآن لتشعر بالفخر والاعتزاز حين تجد إخوانا لك لغتهم غير لغتك يقرؤون القرآن ويتلونه تلاوة جيدة ، وهم لا يفقهون المعنى سوى أنهم مسلمون يبتغون وجه الله عز وجل ، ويرجون رحمته وتراهم ينظرون إليك باحترام وحب ، فأنت عربي يود كثير منهم لو كان مثلك. فتقول : الحمد لله أن جعلني من أهل هذه اللغة المقدسة، ويلتفون حولك سائلين بلكنة أعجمية مفهومة ، وتندمج معهم ، فهم إخوانك وأحبابك .... وتدخل المسجد تصلي معهم ، ثم تستمع لدرس يلقيه الإمام أو الشيخ ، فلا تفهم سوى الآيات القرآنية تتهادى مع الكلام الغريب عنك وأحاديث الرسول الكريم ، فتشعر أنك قريب إليهم قريب .

وتزور في لاهور جامع الشاه فتجده ذا ساحة فخمة يتوسطها بركة كبيرة أما مصلاه فقائم على أعمدة طويلة ضخمة ناحية الغرب- فالقبلة إلى الغرب - لا أبواب له ، ونوافذه الجانبية مشرعة فلا سبيل إليه إلا من الشرق فهو قائم على تل ضخمة يكاد يكون جبلا، يُصعد إليه بطريق متدرج يرتفع بك صُعُداً ، أما جانبه الشمالي فيشرف على حديقة كبيرة جميلة متدرجة آخذة في الانحدار، تنتهي على شارع عريض، والجانب الجنوبي انحداره قليل ، حُجز بجدار مرتفع ، ولك أن تجلس بعد الصلاة إلى نافذة مطلة من عل على المدينة ، فتستمتع بسحر الشرق وجماله.

أما مسجد الوزير فهو في حي شعبي، على مرتفع يشرف على ما حوله، يشبه في بنائه بشكل عام جامع الشاه، لكنه أصغر منه حجما ، وأكثر زخرفة ، فمصلاه مرصع بالفسيفساء، ولون حجارتة أحمر قرمزي. تميل النفس إليه وترتاح.

كنا نسمع ونحن في الإمارات بجمال حدائق " شاليمار " في لاهور فلما صرنا قاب

قوس منها زرنها عصر أحد الأيام ، حملتنا سيارة أجرة إليها ، فإذا هي جنة من جنان الدنيا متسعة وعريضة لكن الحديقة العامة في حلب أكبر منها وأوسع، إلا أن حديقة حلب منبسطة، وهذه قائمة على مدرجات متباعدة ... فهي إذاً منبسطة على مدرجات ، تدخلها من عل فتتزل عدة درجات ، ليبدأ في المنتصف بركة طويلة على طرفيها ممران عريضان ، ثم أرض خضراء على كلا الطرفين ، بعدها أشجار منسقة ، وتجد مقاعد على الطريقين تقابل البركة ذات المياه الرقاقة والنوافير المرسلّة رذاذاً لطيفاً يحيل الجو مقبولاً ، فإذا سرت دقائق نزلت درجات لترى ما رأيته سابقاً ، ثم تنتهي إلى نهر عريض على السور الأخير للحديقة .

وإقليم البنجاب سمي كذلك لأن فيه خمسة أنهار تمتد في ربوعه ، وكلمة " بُنج " تعني الرقم خمسة، وكلمة " آب " من المدّ والباء الثلاثية تعني المياه أو الينابيع والأنهار ، ولك أن تتصور إقليمًا متسعًا يغذيه خمسة أنهار كبيرة! تمتد فيه كأصابع اليد المنتهية بكف فيه أرض زراعية خصبة .

قلت لزوجتي: تعالي نزر الفندق الذي نزلت فيه المرة السابقة وأحببته، كان مكانه قريباً من الفندق الذي نزلنا فيه .فلما وصلناه رأيناه خراباً، فقد اشتراه أحد المقاولين ، وهدمه ليبنى مكانه فنادق وأسواقا ... شعرت بالغصة إذ فوجئت به يباباً فقد صار جزءاً من ذكرياتي ، لكننا طفنا في محيطه ، وشربنا من عصير قصب السكر ومزيج المانجو بالحليب ... زرنا ذات ليلة دار وسيم ، كانت أسرته - أبوه وأمه وأخواته ذوي أدب جم وأخلاق رفيعة ، وتهادينا ، فكانت هديتهم لي اللباس الباكستاني التقليدي ، أهديت أبا مجاهد إياه فهو حلي المولد والصبا، باكستاني الدراسة والجنسية ، بلبل في لغة " الأوردو . "

فإذا اتجهت شرقاً باتجاه العاصمة القديمة " راولبندي " ساعات ثلاث رأيت الأرض

الخضراء على مدّ النظر ، فالبساتين والحقول يتصل بعضها ببعض ، والشمس ترسل أشعتها فيلمع كل شيء حولك بفعل قطرات المياه العالقة بأوراق الأشجار ، منظر ساحر أخّاذ .

وتصل راوبندي ، فإذا هي مدينة عريقة قديمة ، تضم ثمانية ملايين من السكان ليلاً ومليونين آخرين نهاراً، أشبه ما تكون بالقاهرة ازدحاما ، والناس منشغلون ، فكأنها خلية نحل دؤوب ، فيها أسواق شبه مسقوفة ، ومجمعات للمهن الواحدة ، إلا أنها لا ترقى لما في القاهرة ودمشق وحلب، والحياة فيها أبسط من الحياة في المدينة الملاصقة لها " إسلام آباد " العاصمة، وتجد العاملين في إسلام آباد يسكنون في راوبندي ، فهم يعودون بعد عملهم في العاصمة إليها ، فالعلاقة بينهما كما هي بين دبي والشارقة ، فإنك ترى صباحاً نهار السيارات تعبر الشوارع متجهة إلى دبي بكثافة رهيبية ، وترى النهر نفسه ينكفيء مساء نحو الشارقة ، فأجرة الشقق في دبي أضعافها في الشارقة ... ولا أنسى أننا بعد جولة في إسلام آباد عدنا عصراً إلى الفندق متعبين فما إن وضعنا أنفسنا على السرير حتى كنا في عالم الأحلام ، نغط في سبات عميق لم يوقظنا منه سوى حركة السرير القوية ، ففتحنا أعيننا مذعورين ، فوجدنا كل ما حولنا يتحرك، خزانة الملابس ، الطاولة والكرسيان ، مع صفق الأبواب .... طار النوم من العيون، وصحت العقول ، وقمنا سريعاً ، فقد كان الزلزال قويا ، نزلنا إلى الشارع والناس يهنيء بعضهم بعضاً ، لم تتأثر الابنية الكبيرة ولا الصغيرة المبنية بالأحجار والإسمنت ، لكن بيوت الصفيح والطوب أصابها ضرر كبير ، وقد تهدم منها عدد ليس باليسير.... قالوا إن راوبندي تقع على انكسارات فتكثر فيها الزلازل، حمدنا الله تعالى أن حفظنا من المكروه ، وعدنا إلى الفندق بعد أن تعشنا ، وطفنا في الشوارع نتعرف على معالم المدينة.

وإسلام آباد مدينة عصرية بما في العصرية من معنى، شوارعها عريضة ، بمسيرين ، واحد

للذهاب وآخر للإياب ، وكل منهما بحارتين أو ثلاث ، يحجز بينهما جزيرة من الأشجار المرصوفة، وعلى جانبي الطريق أرصفة نظيفة ، للمارة ومن بعدهم الأشجار المرتبة المنسقة، أسواقها ، على شكل مجموعات مسقوفة مكيفة، ، ويغلب على بيوتها نظام الفلل ، وأغلبها من طابقين ، وقليلًا ما تجد الأبنية العالية ، ذكرتنا بمدينة العين في الإمارات.

صلينا في مسجدنا المشهور الذي بناه السعوديون تحليدا للملك فيصل بن عبد العزيز، وسموه باسمه، يمتاز بضخامته وكثرة زجاجه، وسقفه قبة كبيرة تعتمد على الجدران ، لا العواميد، فليس في المسجد عمود واحد ، والمسجد على ضخامته لا يحتاج المحاضر فيه ولا الإمام إلى مكبر الصوت ، فهمة بسيطة يسمعها الجميع،

استأجرنا سيارة طوّفت بنا معالم المدينة ، وأخذنا سائقها إلى بحيرة كبيرة - أظنها صناعية - واستأجرنا قاربا دنا بنا من غاباتها الملتفة حولها. وكان يوما منعشا.

كان الجو رطبا وحارا، فرغبنا أن نقضي أياما في المرتفع الجبلي المشهور " مري " وهو قريب من راولبندي ، لكن لتعرجاته الجبلية أخذ منا قريبا من ثلاث ساعات ... كان الباص الذي أقلنا إلى مري يشكو قدمه بأنين محركه الذي غطى على كل شيء حتى على أصواتنا في داخله، لكنه لم يتلكأ في مسيره وأثبت أن القديم على علاقته صامد صمود الجبال الرواسي التي أصعدنا إليها ..... وكلما ارتفع بنا خفّت الرطوبة ، ونزلت درجة الحرارة فلما وصلنا إلى قرية " مري " ظهراً كان الجو باردا ، والناس يلبسون المعاطف ، في القرية شارع واحد ، يمتد خارجها إلى قرى أخرى ، وعلى جانبيه الدكاكين البسيطة تباع كل شيء.

استأجرنا غرفة ظريفة مطلة على الشارع ، ولم نجرؤ على الاغتسال ، فالجو - على الرغم أننا في تموز - بارد ، وزودنا صاحب الفندق بـ " لحافين " سميكين ، وكنا نود أن نرى أخانا



الاستاذ هشام المارتيني هناك ، فقد سبقنا إليه ، لكننا لم نحظ به وكان قريبا منا على بعد كيلومترات قليلة ..... لم يكن مسرورا وأهله في هذه الرحلة واعتبروها أعمالا شاقة ... نزلت إلى المحلات أشتري ما نحتاجه من غداء وشراب ، فرأيت البائعين غير راغبين في التعامل معي ، لم أدر السبب إلا أنني عزوت هذا إلى قرويتهم ، وجفاء أخلاقهم وبعدهم عن الحضارة ... فلما أذن للعصر وذهبت للمسجد القريب من النزل للصلاة ، ثم اتجهت لشراء بعض الحاجيات رأيتهم يسلمون عليّ بحرارة ، وأبدوا اهتماما بي ، وكلمني الكثير منهم بالعربية ، فقد كانوا يعملون في السعودية ، واعتذروا عن جفائهم أنهم رأوني ملتحيا لا أعقد ربطة العنق ، فحسبوني من إيران التي لا يحبون أهلها !!!

على بعد دقائق من النزل أعلى مكان في الجبل وقفنا مندهشَيْن من ارتفاعه الشاهق الموازي لشق الجبل الآخر أمامه ، وبينهما واد سحيق عريض، لا يكاد يرى وهدته ... كان المطر يتساقط رذاذا ، وأشعة الشمس تتراءى خجلى من بين الغيوم الرقيقة المتواصلة، وقوس المطر يزيد في الجمال الإغريقي المهيب، كان منظرا رائعا يأخذ بالألباب، ما زلت أذكره وتشتاقه نفسي حتى زرت " الطويلة" في اليمن ورأيت ما يفوقه ارتفاعا وعرضا، وكل ذلك من صنع الإله العظيم فاطر السماوات والأرض.. سبحانه ، جل شأنه..... وعلى الرغم من هذا الجمال الأخاذ إلا أننا عدنا في اليوم التالي لأننا لم نتحمل الجو البارد ، فقد تركنا الثياب الثقيلة في الفندق .

وكانت الرحلة التالية إلى " بيشاور " عاصمة البشتون وكانت مركز المجاهدين الأفغان سابقا، الإرهابيين لاحقا ، سبحان مغير الأحوال ، ولعنة الله على مغيري الأسماء والألقاب كما يشاءون ، ومتى أرادوا .ولئن عرفنا كفرهم من قوله تعالى : " ولن ترضى عنك اليهود ولا

النصارى حتى تتبع ملتهم " ماذا تقول عن الأذئاب والعملاء من أبناء جلدتنا؟! حسبنا الله ونعم الوكيل.

كان الطريق إليها معبدا ، والمسافة ساعات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة . ودخلناها قبيل العصر فكان أول ما فعلناه البحث عن فندق ناوي إليه ، كنت تشعر أن المدينة تعج بالمقاتلين من كل جنس ولون ، ونحن نسير في شوارع المدينة البسيطة البعيدة عن الحضارة إلا من النظافة والجمال الفطري ... النساء كلهن محجبات ، وغالب الرجال من أهل اللحى ..  
ظاهر المدينة التقوى والعفاف . جدران البيوت حمراء اللون ، يغلب عليها الحجر ... دخلنا مركزا للهاتف لنكلم الأخت زينب في الإمارات ، نطمئنها ونطمئن عليها ، فسمعت مجاهدا عربيا شابا عاد من " جاجي " الأفغانية مبشرا بسقوطها بيد المجاهدين ، زافا البشرى لأهله في إحدى البلاد العربية ، فعدت إلى غرفتي في الفندق مشحونا لأسطر القصيدة التالية:

لله درّ الفتية الأطهار	يتسابقون بهمة الأبرار
نحو الجهاد بقوة وعزيمة	وبطولة أرّبت على الإعصار
يامن كتبتم بالدم أسطورة	كانت بحق قبلة الثّوار
أثبتّموا أن الحياة عزيزة	بين الرجال على خطوط النار
أحييتّموا بجهادكم آمالنا	إن الجهاد سفينة الأوطار

.....

أفغان ما هذا الجمال؟ كأنما	عطر الشهادة فاح بالأنوار
في كل شبر من ثراك مجاهد	وهب النفيس لشرعة المختار
باعوا الإله نفوسهم فأعزّها	بالنصر والتمكين والإعمار

صدقوه في ساح الجهاد فمنهم  
وتتبع الباقون إثرهم، ولم  
فغدوا يكيلون الهوان لمارق  
كم روعوا الإلحاد في أوكاره  
إن هللوا كان الملائك رفدهم  
هذي نفوسهم التي استعلت على  
من للجنان مضوا بكل فخار  
يرضوا بغير لقائهم للباري  
بيد موضأة ، وزند ضار  
كم حطموا من راية وشعار  
أو كبروا فالويل للأشرار  
متع الحياة وزيفها الغدار

.....

في "بكتيا" في "قندهار" بأسهم  
حتى استجار، ولا مجير وحسبه  
إن كان رأس الكفر يبغى مهريا  
أفلا تثوب لرشدها ويقينها  
أم إن عميان البصائر لا ترى  
من كان ذيلا للعدا فماله  
فلّ العدوّ بجحفل هدار  
أن ينجلي عن أرضهم بالعار  
أفلا تثوب ضفادع الأنهار؟  
وتسير ضمن قوافل الأحرار  
ما قد جرى لصنائع الكفار؟!  
للقتل، أو للسجن، والإنكار

.....

يا مسلمون جهادنا حرز لنا  
وبه نسود ، فلا الكلام يفيدنا  
إن الكلام بضاعة الحمقى ومن  
إلا النضال فإنه سيف الهدى  
ويعيد للأوطان أمجاد العلا  
من صولة الفساق والفسّار  
إن عاث أصحاب الخنى في الدار  
يرضى الحياة على شفير هار  
يجتث كل منافق خوّار  
بجهاد حق سامق المقدار

يا مسلمون ضعوا أياديكم مع الله القوي فليس من إعدار  
وارموا بصولته جموع عدوكم      تجدوا الفلاح بنصرة الجبار  
سدّد إلهي خطو أبطال الحمى      وارفق بهم يا عالم الأسرار  
وأعزّ جمع المسلمين بوحدة      فيها جماع الفضل والإكبار

ولو بقيت أياما أخرى لكتبت شعرا أكثر ، فقد شحني هذا المجاهد ، وقد كنت أود لو  
كنت أكثر إيجابية فتمسكت به ، ورجوته أن يأخذني معه.. ولكنني لم أصل إلى رتبة مجاهد ،  
فما كل من قرا درى ، ولا كل من قال فعل .

أخذنا الطائرة إلى كراتشي في اليوم التالي ، وهي مدينة ساحلية ضخمة، تعتبر العاصمة  
التجارية للدولة، ومركز الطيران المدني فيها ، تمتد المصانع على شواطئها والمراكز التجارية ،  
يقطنها أكثر من عشرة ملايين نسمة، وفيها عدد كبير من الشيعة ، وهي مركز السند كذلك ،  
يتجمع فيها المهاجرون من الهند ، بعض أحيائها من الصفيح ، ويتكدس فيه الفقراء  
والمعدمون، وهم كثرة كاثرة ، وبعض أحيائها فخم يسكنه الأغنياء والمتنفذون ... وسطها  
مكتظ ، فرغبنا أن نختار فندقا قريبا من البحر ، وأسواقها أكبر وأفضل وأوسع منها في  
راولبندي ... تمتاز بتجمعها ، وخاصة الأسواق التي يقصدها السياح والغرباء ، اشترينا منها  
الخشب المطعم والهدايا ، بعض أدوات الزينة البيتية ، قضينا اليوم الأول في متحف الأسماك ،  
وكان خارج المدينة قرب متنزهات بحرية حلوة، رأينا فيه بديع صنع الله تعالى ما تصورناه وما لم  
نتصوره ، تعرفنا فيه على جامعيّ مختص بتذوق الطعام سافر إلى الإمارات في اليوم الذي سافرنا  
فيه ليعمل في بعض مخابز جمعة الماجد مؤسس كلية الدراسات الإسلامية والعربية، وزرنا في اليوم  
التالي مدينة ضخمة للألعاب الإلكترونية والترفيه. وعلى الرغم من رقي الفندق الذي نزلناه فقد

طلبت تغيير الوسادة مرتين لرائحة الزيت المتعشق فيها .

لم نشعر بالراحة التي كنا نرجوها في الباكستان ، مما حدا بي إلى العزوف عن استكمال

دراسة الدكتوراه فيها، وقطع الرحلة قبل تمامها والعودة إلى الشارقة . ما أحلى الرجوع إليها .



## تركيا ( ١ )

رغبنا صيف ألف وتسع مئة وخمسة وثمانين أن نزور دولة الخلافة العثمانية ، لأكثر من سبب ، فكثير من العرب يمموا وجوههم شطرها ذلك الصيف ، ثم إن زوجتي تنتمي لمدينة "بيره جيك" التركية القريبة من الحدود السورية ، والجو في عاصمة الخلافة التركية صيفا رائع - كما يقولون - بينما اللهب يعتمل في الإمارات ، والحقيقة أن في الإمارات فصلين في السنة ، هما فصل الصيف ، ويتربع في الأشهر الحادي عشر الميلادي "نوفمبر" إلى الشهر الرابع "إبريل" ، والفصل الجهنمي من الشهر الخامس "مايو" إلى الشهر العاشر "أكتوبر" وكان الأخ وليد الحجار قد زارها في السنة الفائتة وأعجبه كثيرا ، وذكر لنا الأماكن التي ارتادها ، فكوّنا فكرة عن رحلتنا المرتقبة .

ولأن عطلة الصيف تمتد شهرين ارتأينا أن نقصد الأردن أولاً ، فانطلقت بنا الطائرة إلى عمان ، ونزلنا في ماركا ضيفين على الأخ الدكتور منير الغضبان حفظه الله تعالى قريب الأيام العشرة فكان وزوجته أم عتبه غاية في الكرم

وأفيدكم علماً - وما أقوله يعرفه العديد من إخوانه - أن الأخ منيرا يستهويه النوم على هدير محرك السيارة ، فقد انطلقنا مرة بسيارتي ومعنا زوجتاننا من الشارقة إلى مدينة العين لزيارة أخيه الدكتور ياسين ، ودعا الأخ دعاء السفر ، وسبح سريعا في ملكوت النوم دون أن يخبرني!! وبدأت الحديث معه فإذا بي أسمع شخيره يتعالى ، تركته نائما ورحت أقارن بين صوت المحرك وشخيره المتنافسين في الصعود والهبوط ، ثم قلت لنفسي هما على علاتهما أرحم من صوت "فهد بلان" ،

كان قد مضى حوالي خمس عشرة دقيقة حين التفت إليّ فجأة واعتذر عن نومه السريع، فقصصت عليه وبسرعة قبل أن يعود للنوم ثانية أن صديقنا العسلي من قرية "خان العسل" غرب حلب ركب ووالده السيارة إلى حلب ، فلم يكذ يصل إلى السرعة الرابعة للسيارة - وهذا لا يستغرق سوى دقيقة واحدة - حتى كان والده يغط في سبات عميق، فضحك ابو عامر ،. أستاذنا منير . وقال : إذاً فاسمع يا صاحبي بعض قصصي عن النوم :

قدت سيارتي يوماً بعد أن نلت شهادة السياقة ، فأخذتني غفوة سرعان ما انقشعت على صدمة جعلتني أصحو متوفراً لأرى صاحب السيارة المصدومة ينزل متوجهاً نحوي غاضباً، وبدأ يسمعي من الكلام اللطيف بعضه، فقلت له :الحق معك ، يا صاحبي، فهل بنا إلى مركز الشرطة، سكت الرجل على مضض وقاد سيارته أمامي ، وتبعته

فغفوت ثانية .. ثم صحوّت على صدمة أشد طردت النوم عني، فإذا الصدمة للسيارة نفسها ، قلت أعوذ بالله، سكت عني في الأولى فما الذي سيفعله الآن بي؟ ، لكنني رأيت السيارة تسرع وتسرع فلم أستطع اللحاق بها. قل لي بالله عليك يا أبا حسان لم غيّر رأيه وغاب عن أنظاري بهذه السرعة المذهلة؟! ١ ما السبب في رأيك -أخي القارئ؟

وقال : كنت أعمل في المناهج المدرسية في مدينة الرياض السعودية ، وكان عليّ أن أزور المدارس في المناطق التعليمية التابعة لها فذهبت في سيارة أجرة صغيرة وجلست في الكرسي الخلفي ، وجاء السائق ونظر في وجوه الركاب ، وطلب إليّ بالراح أن أجلس إلى جانبه فأنا "مطوع" وذو لحية، والسائق يوّد أن يأنس إليّ ،

سارت السيارة أمتاراً، ثم توقفت ، ليأخذ صاحبها سيجارة من سائق آخر ، ثم التفت نحوي يطلب إليّ أن أدعو دعاء السفر ،فوجدني نائماً ، فهزّني قائلاً : شيخني - عد إلى

الكرسي الخلفي !! ضحكنا جميعا ،، ثم عاد سيرته الأولى حتى وصلنا بيت أخيه  
حطت بنا الطائرة في مطار "استانبول" ورآنا موظف الجوازات لا نعرف التركية ، فملاً  
ورقة الدخول بنفسه وختم على الجوازين ، وابتسم .....  
قلت للسائق كلمة واحدة "اكسراي" فقد أخبرنا وليد أنها لب المدينة .

استانبول حاضرة العثمانيين عريقة فخمة تقع على القسم الشمالي من بحر مرمرة، يجدها  
شطرين مضيقُ البوسفور الذي يصل بين بحري مرمرة والأسود، فقسمها الآسيوي على الشرق ،  
وقسمها الأوربي على الغرب من المضيق، ويتراوح عرضه - المضيق - بين سبع مئة متر وضعف  
ذلك، تسير على طرفيه راجلا أوراكبا فتتذكر المجد الذي بناه الآباء ، وضيعه الأبناء، فمحمد  
الفتاح . رحمه الله تعالى . بنى " حصار روملي " وهو قلعة عظيمة على الطرف الغربي من مضيق  
البوسفور، ذات أبراج ثلاثة ضخمة ، مشرفة على المضيق ، فتمنع النجديات الروسية عن الروم،  
وتشرف على المدينة المحاصرة فتكشف تحركات الأعداء وتؤمن رصدهم ليل نهار، في ثلاثة  
أشهر ، تعجز المعدات الحديثة أن تفعل ذلك في القرن الواحد والعشرين ، ثم فتح المدينة فكان  
من الخالدين الذين مدحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : " تفتح القسطنطينية،  
فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش " . وكانت حياته جهادا في سبيل الله . أما  
السلطان عبد الحميد بن محمود . والد السلطان عبد الحميد الثاني ثم أخوه عبد العزيز فقد بنى  
قصر "دولما بنخشة" على المضيق وجعل فيه أربع مئة غرفة واسعة ثم قاما بأسوأ ما يفعله حاكم  
تافه!! لقد طليا غرف القصر بأربعة عشر طناً ونصف الطن من الذهب أي أربعة عشر ألفا  
 وخمس مئة كيلو في وقت كانت الدولة فيه أحوج ما تكون إلى القوة العسكرية والاقتصادية ،  
فضياعها ، ولم يستطع عبد الحميد أن يصلح الأخطاء المتراكمة فسقطت سقوطاً ذريعاً



أما القسم الغربي فيقسمه خليج "غلطة" الذي جرت فيه المعركة الفاصلة بين الفاتح والروم قسمين .

واستانبول : نزهة المشتاقين ، والحديث عنها يطول ، وما زرناه في أربعين يوماً لا يسعه وريقات فقد زرنا قصورا ، ومساجد ، وآثارا ، ومتاحف ، وأسواقا .

أما المساجد فحدث ولا حرج ، فمن جامع السلطان أحمد على بحر مرمرية ذي المآذن الست ، وكان قد طلب إلى المهندس أن يبني مئذنة من ذهب ، والذهب بالتركية "ألطن" ورأى المهندس أن هذا أمر غير ممكن فبنى المآذن الست ، والرقم ستة بالتركية "ألطي" فاعتذر للسلطان حين راجعه أنه سمعه يقول ستة ، لا ذهباً ، فأعجب السلطان لذكائه وكافأه ، ، إلى جامع الفاتح رحمه الله حيث دفن فيه ، وفيه مدرسة ضخمة لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه ، إلى جامع بيازيد وهو جامعة عريقة ، إلى جامع غلطة ، ثم جامع الصحابي الجليل أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه ، وكلها كبيرة ذات طراز عثماني معروف بفخامته ، ونقوشه البديعة ، وعلى الرغم أن الناس عند الظهر منشغلون في أعمالهم فقد أقيمت الصلاة في مسجد أبي أيوب مرتين مع العلم أن المسجد يتسع لثلاثة آلاف مصلاً ، فالإسلام يعود ، وطوبى للعائدين معه . ولا شك فمساجد العاصمة عواصم المساجد ، خاصة مسجد أيا صوفيا الذي كان كنيسة ، فلما فتح المسلمون المدينة جعلوها مسجدهم الكبير ، وفيه صور العذراء والمسيح والصليب ، وما يدل على الديانة المسيحية ، فطمست ، وحين انقلبت الدولة علمانية أعيدت تلك الصور ، ومنعت الصلاة في المسجد .

أما "توب قابي سراي" قصر السلاطين العظام فعلى رأس بين بحر مرمرية ومضيق البوسفور ، يستقبل شروق الشمس ، ويودع غروبها ، يحتاج زائره يوماً كاملاً ليحيط ببعض

جوانبه، فترى فيه قاعة الاستقبال وتتصور السلطان جالسا يستقبل وزراءه وعماله وزائريه ،  
ويحكم العالم من مكانه، ثم تتجه إلى مقصوراته ، ثم إلى مخادع الحریم ثم إلى الحدائق ، ثم  
تنعطف إلى المطبخ السلطاني ، ثم تتعرف إلى مقتنياته، وقد تجد مزهريه ذهبية وزنها أكثر من  
ثلاثين كيلو جراما ، وعمودا مزخرفا ذهبيا يتجاوز وزنه السبعين كيلوجراما، وحدث ولا حرج  
عن الحمامات بصنابيرها الذهبية، وجرائها المرمر ، لتعلم أن كثيرا منهم كانوا ظلمة مترفين على  
حساب الرعية المسكينه المسحوقه، والعجيب أن الزائرين حين يرون هذا لا يفهمون إلا الجانب  
الحسي مما يرون ،فلا يتعظون ولا يعتبرون، وهذه مصيبة الإنسان ،لا يرى إلا ما يقع عليه بصره  
أما البصيرة فعليها السلام.

وقريبا من " أكسراي" قلب المدينة تجد سوقا مغطى يدعى "قبلي شارجي " كبير ،  
يذكرني بسوق المدينة في حلب، وهو أفخم وأضخم وأطول، إلا أن سوق حلب المغطى أعرض  
وأكثر تنظيما.

ومما شدني معارض الخط المتعددة ،تعرض ما كتبه مشاهير الخطاطين الأتراك، وكنت  
أذهل لما أرى من فن وجمال وقد اقتنيت كثيرا من بطاقات الخط لأتمتع بالنظر إليها كلما عنت  
على بالي واشتقت إليها ،

نزلنا أكسراي اليوم الأول في فندق مظل على البحر ،وكان في الوقت متسع للوقوف على  
البحر ، عند الأصيل ، ولكننا لم نجد أحدا ممن نعرفهم وسبقونا إلى تركيا هذا الصيف، وشاء  
الله تعالى أن يشرح صدرينا ، فلا نندم على هذه الزيارة ،بل نتمتع بها فقاد إلينا الشاب الحلبي  
محمد القصاب وكان يدرس في إستانبول فسلم علينا بوجهه الحلو البشوش ، فكان هدية  
السماء إلينا في مكان أحببناه ، ولكننا بحاجة إلى هاد يدلنا إلى الأصدقاء والأحباب، وواعدنا

أن نلتقي صباح اليوم التالي في صالة الفندق النازلين فيه، وكانت ليلة حلوة هائلة هادئة،  
وفي الموعد المقرر جاءنا الشاب ليذهب بنا إلى "كوك جدرة" ركبنا سفينة كبيرة تتسع  
المئات فمخرت بنا عباب البحر الصغير مرمرة إلى الجنوب باتجاه مدينة "يلوا" فمرت على جزر  
جميلة، زرتها كثيرا حين أقمنا في كوك جدرا ، منها " بويوك أدا " ومعنى بيوك : كبيرة ،  
و"كوجوك أدا " ومعنى كوجك : صغيرة ، وكانا رائعتين ساحرتين ، وجل أهلها من يهود  
الدونمة، وفيهما متنزهات ، ووسائل الترفيه وركبنا عربات الخيول التي كانت وسيلة المواصلات  
المهمة في مدينتنا حلب ، ثم انقضت ، فاسترجعنا شريطا من ذكريات الطفولة

وصلت السفينة إلى يلووا بعد ساعتين من إبحارها ، وهي مدينة صغيرة نظيفة ، عادات  
أهلها قريبة الشبه بعاداتنا ، وأساليب الحياة فيها تذكرنا بما نحن عليه ، ... ركبنا باصا صغيرا  
باتجاه الغرب والحقول تسابقنا، والأشجار على الجانبين تحيينا ، والقرى هادئة لا ضجة فيها ،  
فلم يمض عشرون دقيقة حتى قيل لنا وصلنا إلى كوك جدرة ، كانت بيوتها مرتبة ، ومساحتها  
متوسطة ، والناس فيها غادون رائحون، تعج فيها الحياة،

نزلنا أمام مسجدها الوحيد ، فقلت لعلنا نجد نزلا قريبا منه ، ولم يجب ظني ، فأمامه تماما  
نزل "ألفت خانم " وكانت امرأة في الخمسين، توفي عنها زوجها ، وترك لها خمس بنات أكبرهن  
في الخامسة والعشرين وولدا هو أصغر الجميع في الثامنة من عمره، وبناء من ثلاثة طوابق، كان  
محمد مستأجرا عندها قبل يومين من قدومنا ، فسلم عليها ، وقدمنا إليها، فاستقبلتنا بترحيب،  
وعرضت غرفة في بيتها . وكانت تشغل الطابق السفلي ، أما الطابقان العلويان فممتلئان،  
وأسرعت بالقبول لمكان الجامع من النزل ، وكذلك زوجتي لأنها سوف تتحرك براحة في بيت  
ليس فيه رجل سواي ، ، الغرفة تشرف على حديقة صغيرة، ثم على الطريق ، ثم على المسجد،

كانت الغرفة شديدة النظافة ، بل البيت كله يتلألأ ويلمع ، ورائحته الطيبة أنستني تعب الساعات الماضية، وأذن للظهر فأسرعت للصلاة في المسجد، والتقيت هناك بكثير من الأحاباب والأصدقاء ممن يعملون معي في الإمارات أو في السعودية أو في الأردن مما جعل كوك جدره مشهورة وجود الحمامات المعدنية قربها في " الترمال " وهي في واد خلفها، يوصل إليها طريق ترابي عبر الجبل ، وطريق معبد جيد ينفصل عن طريق القرية نفسها أما الحمامات فالاعتناء بها واضح ، وهي قسمان ، اما القسم الأول فغرف مبنية تتسع لأسرة متوسطة تتألف من : مقدمة لتبديل الملابس ، وأخرى في الوسط للاغتسال بالماء الحار والبارد، والأخيرة فيها حوض طوله متر ونصف وعرضه متر واحد، وعمقه متر ونصف ، يصب فيه المستحم الماء المعدنية بالحرارة التي يتحمل،

والقسم الثاني من شقين ، الاول بركة كبيرة للسباحة ، والثاني حمام للجميع، وتمتاز حمامات تركيا عن حمامات بسكرة في الجزائر أنها أفضل تنظيماً وأنظف ، وهذا فرق ما بين الحضارتين،

وعلى الجبل المقابل لكوك جدره قرية أكثر هدوءاً تدعى " وسبئر " هواؤها عليل وإطلالتها متعة للناظرين ، قلت فيها:

في وسبئر يخلو السمر ويلذ في الليل السهر

والجو صافٍ رائقٌ والبدر في الرابع عشر

وتميس أطياف النسيم كأنها ومض الفِكْر

فتداعب الأغصان والاوراق في أعلى الشجر

وهي قصيدة طويلة في ديواني الأول " نبضات قلب " أصف فيها ما اعتراني في إحدى

الليالي من ألم، سببه بعض من يدعون الريادة في طريق الدعوة وهي بريئة منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فليس "كل من صفّ الصواني قال : أنا حلواني "

وفي الطريق من " يلوا" إلى " بورصة " في الجنوب تقع مدينة صغيرة كانت مرة عاصمة للفتحين العثمانيين تدعى " إزنك " فيها بحيرة رائعة طولها كيلو متر واحد، وعرضها خمس مئة متر، ومياهها صافية، والحياة في تلك البلدة هادئة ، تحيط بالبحيرة البيوت البسيطة، فتزيد المنظر جمالا ورومانسية، أما بورصة فقد كانت العاصمة قبل "أدرنة " وهي مدينة كبيرة تجمع بين القديم والحديث ، شدنا إليها أمور ثلاثة: أولها المسجد القديم أو الكبير " أولو جامع / وأولو تعني القديم ، لم أر في حياتي مثل جامع بورصة، فحين تدخل مصلاه الكبير وأمام بابه بعشرة أمتار تقريبا تجد الموضأ ، وهو بركة ارتفاعها عن الأرض متر ونصف المتر، وأرضها مكسوة بالبورسلان الازرق الفاتح، فهي تعطيك لون السماء الصافي ، وعلى جوانب جدرانها صنابير المياه للمتوضئين ، وأمام كل صنوبر كرسي حجري ، وأمام البحرة مصطبة بارتفاع نصف متر، يجلس فيها المؤذنون . ويوم الجمعة يشترك أكثر من خمسة في الاذان . ومثل هذا تجده في الجامع الاموي في دمشق، لكنهم ينفردون بالأذان لصلاة الجمعة على نغم " السيكاه " ولكل وقت أذانه على لحن مختلف، فالأتراك أهل نغم وذوو أصوات مطربة ، لا يضاھيهم فيها أو يفوقهم . بزعمي . سوى أهل حلب، فما من حلي إلا مستمع أو صوّيت > ذو صوت جميل.

أما الأمر الثاني الأهم فسقف المسجد قائم على اثني عشر سارية مربعة الشكل، أي لها أربع جهات . ، وسمها إن شئت وجوهاً ، فهناك إذاً ثمانية واربعون وجهاً ، على كل وجه اسمٌ لله تعالى ، كتب على ثلثي الوجه ، وعلى الثلث الآخر متداخلاً مع الثلث الأوسط كتب الاسم نفسه معكوساً . وتجد على الجدران آيات بخطوط متعددة تبهر العيون والنفوس

والأفئدة، ولا أزال أذكر كيف كتبت سورة الناس على شكل دائرة ثمانية الانحناء بعدد تكرار حرف السين في السورة المباركة ، وكذلك سورة والشمس وضحاها، إلا أن الدائرة رسمت بحرف الواو، وكتبت " من كل فج عميق" متداخلة فكانت بطون النون واللام والجيم والقاف في بطن واحدة .. صلينا الظهر في هذا المسجد وذهبت النساء كعادتهنّ إلى السوق المجاور القريب وهو نسخة مصغرة عن سوق " قبلي جارحي " في إستانبول ، وبقيت حتى العصر أرتع في رياض الخط الجميل

أنا أحب الخط الجميل وما أزال . وبعد ثلاثين سنة . أتمتع بما رأيته في بيت المرحوم محمد زرزور والد الدكتور عدنان الزرزور، فقد كان ابنه الآخر مروان أحد أصدقائي ، إذا زرته ، وجلست في ركن من أركان غرفة الضيافة فيه تمتعت بما كتب على الجدار المقابل ، ثم أجتهد في الزيارة التالية أن أجلس في ركن آخر لأستمع بما يقابله من خطوط رائعة له ، ولأصحابه من مشاهير الخطاطين،

أما الأمر الثالث فتمتع راكب " التلفريك " الصاعد إلى الجبل العالي من قبالة المسجد إلى أعلى قمة في الجبل بما يراه تحته من اشجار عالية تكاد تمس المراكب ، وجداول رقاقة أو غزيرة تكسب الغابات حياة ، وحيوانات أليفة وغير ذلك ، تسرح وتمرح ، او تهاجم وتدافع،



## تركيا ( ٢ )

كانت الزيارة الأولى لتركيا عام خمسة وثمانين ، وكانت الثانية في الصيف التالي ، عام ستة وثمانين ، وقد يتساءل أحدهم : لم زرتها سريعا ، وفي الصيف الأقرب؟ أقول : قد يتناول أحدنا وجبة شهية على جوع ، فلا تكفيه ، أو يلتذ بها ، وما يزال طعمها في فمه ، فيعاود الكرة،

وعادات الأتراك قريبة إلى عادات السوريين لأنهم جيران، وقد كانت ولاية حلب تتضمن الجزء الجنوبي من تركيا كديار بكر وماردين والاسكندرون .

ونحن . الحلبيين . نستعمل كلمات وتعابير تركية كثيرة في حديثنا لا تستعملها بقية المحافظات السورية .

حين كنت في حلب تعرفت على الأخ الفاضل ذياب القدومي أبي ياسر. وكنيته هذه قبل الزواج ، فلما تزوج ورزق مولودا ذكرا سماه محمدا، نزولا على رغبة " ولي الأمر " ، أو قل " بيج " فما قصة ال " بيج " هذه؟

يقال: إن صديقنا القديم " مشهور خلفات " وصار قديما لأنني لم أره منذ عشرين سنة مضت . فقد صار غنيا من أغنياء الأردن . حين عقد قرانه على زوجته نزلا إلى المعارض ليشتريا غرفة النوم ، وكان يريد لوئها سماويًا ، وكانت تريده " بيج " فاختلغا ثم اتفقا على حل وسط فكان الحل الوسط " بيج " .... وفهمكم كاف ، فالمغزى واضح.

كان ذياب صديقا لأخويّ برهان ومروان، وعلى هذا فمعرفتي به لصيقة ، وشاء القدر أن نلتقي في الإمارات مدرسين أنا في دبي ، وأسكن الشارقة ، وهو في أم القيوين، وكانت

حفلة زواجه في داري .

كل هذه المقدمة لأقص عليكم طرفة جرت معنا كلينا ومدرس فلسطيني لم يزر حلب ولم يسمع بلهجتها ، ولا مفردات حديثها، فسمعنا نتحدث بعض الكلمات التي لم يفهم معناها، فسأل ماذا تقولون؟ فضحكنا وقلنا : هي اللهجة الحلبية مطعمة بكلمات تركية ، فثلث كلمات اهل حلب في بداية القرن العشرين تركية ، ثم بدأت تنحسر شيئا ، فشيئا فقال : أهذا معقول ، قلنا استمع إلى هذه المحادثة القصيرة بيننا لتتأكد من ذلك .

اشترينا " سكرتونا "جديدا فيه " سلطانات " واسعة ، وضعت في الواحدة عشرين "جنقا " و " شمشاية " فقال صاحبنا : ما هذا ؟ لم أفهم شيئا . قلنا له : اشترينا خزانة جديدة ، فيها جوارير واسعة ، وضعنا في الواحدة منها عشرين ملعقة ومغرفة ، ....

وعلى هذا فقد اشترينا من الشارقة كتابا لتعلم اللغة التركية دون معلم فوجدنا تعلمها سهلا ، وسريعا، فكنت أستطيع التعبير عما في نفسي دون معانات تذكر، كما أن زوجتي من " بيراجيك " التركية الملاصقة للحدود السورية وأبوها رحمه الله تعالى تركي يحمل الجنسية التركية.

الأترك إجمالا يحبون المسلمين العرب ، ويتقربون إلى الله بحبهم ، وكلما نزلت جنوبا ازدادت الصلة بيننا ، فالجنوبيون أقل تفرنجا من الشماليين، وأقرب إلى البساطة والتدئين . ولا يخفى أن أكثر من تسعين في المئة من جذور اللغة التركية ذات أصل عربي، فقد أثر القرآن الكريم وقرب الديار في تركيب هذه اللغة.

وقد التقيت في " بورصة " بطلاب العلم الشرعي ، فسارع كثير منهم للتعرف عليّ ، وإظهار المحبة لنا ، ثم قرؤوا عليّ بعض السور والآيات ،ولكننا معشر العرب قطعنا علائقنا مع



إخواننا المسلمين ونأينا عن قيادة ركب الحضارة ،

كوك جدره قرية سياحية ، تحيط بها الجبال من كل ناحية، يأتيها الأتراك في السبت والأحد ليستجموا بما يسعدهم من راحة تبعدهم عن متاعب الأسبوع ، وليسبحوا في مياه " التيرمال " الكبريتية، وليحضروا المهرجانات الاسبوعية ، ويتعاقد مقهيان لا ثالث لهما في القرية مع المغنين والمغنيات، والفرق الموسيقية التي تصدح . أوقل تزعج المصطافين ليلة الأحد حتى اقتراب الفجر، وكانت شقتنا مطلة على هذين المقهيين ، فكنا نستعيد الله تعالى من هذه الليلة ، ونتحملها لنستريح بقية الأسبوع في هدوء وأنس مريحين ، ويتجمع العرب في " وسبر " القرية الغربية الجنوبية من كوك جدره، فوق التيرمال فيسهرون على ضوء القمر ، وكان كثير من العلماء يعقدون حلقات العلم والذكر في مسجدنا القديم ، وفي الجديد بعد أن بني على تل شيد عليه العرب عشرات البيوت الفخمة، فيحضرها كثير من المصطافين العرب والأتراك وقد تعرفت على كثير من هؤلاء كما أن الصلة توطدت بالأساتذة العلماء أمتال الشيخ " محمد علي الصابوني " و " الشيخ الدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني " و " الشيخين الجليلين " محمد محمود الصواف " و " عبد الفتاح أبي غدة " رحمهما الله تعالى

وكان العقد الثامن للقرن الماضي بعج بمدارس حفظ القرآن الكريم ، فقد كان في تركيا آنذاك أربعة عشر ألف مدرسة لتحفيظه، ولا أزال أذكر قول الصواف : إن بعض التلاميذ يقرؤون . لشدة حفظهم الفاتحة وغيرها بمقلوب الكلمات . وقد يقال لأحدهم ابدأ من الآية الثالثة في الصفحة كذا فيقرأ دون إبطاء ، على الرغم أنهم لا يفهمون العربية ، وصدق الله تعالى إذ يقول : " إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون " . وفي هذه الآية الكريمة أحد عشر تأكيداً، والله تعالى لا يحتاج فيما يقول إلى تأكيد، إلا أنها تعظيم للقرآن ، ودحض لمكر

الماكرين، وافتراء المفترين،

وكان إمام المسجد التركي من حفظة القرآن، و متمكنا من العربية ، يأنس إلينا ونأنس إليه، ومعه بعض تلاميذه الذين ساروا على دربه، وربما زاحموه في مدارس العلم الشريف من فقه وتفسير، وممارسة للعربية ليأخذوا العلم من منابعه ، ويغرفوا من مناهله، لا ترى في التركي طمعا أو غشا . على الغالب . وترى فيه دماثة ولطفا ، لكن بعض عرب الخليج أطمعوهم في السنوات التالية ، فيعطونهم من الأجرة أضعاف ما نعطيهم، فبدؤوا يتجهون إليهم وظنوا أن العرب كلهم سعوديون أو إماريون . نسبة إلى الإمارات . أو كويتيون ..... ولم لا ؟ فالإنسان يميل مع مصلحته، وصدق الشاعر إذ قال :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال

ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا

—

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب

ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا

قررت والأخ زهير الأصيل أن نزور عاصمة الأتراك " أنقرة " فحزنا حقائب أسرتينا ، وقصدنا إسطنبول ، لنبقى فيها يومين نتفرج على ما بقي في أذهاننا من معالمها الأثرية ، فأكثرنا من الصلوات في مساجدها الشبيهة جدا بمساجد حلب العثمانية ، وزرنا المتحف الذي فيه عباءة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهي التي ألقاها على الشاعر كعب بن زهير حين جاءه مسلما تائبا، ومدحه بقصيدته المشهورة:

بان سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها ، لم يجز مكبول

ويقول فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وكانت قد أهديت للسلطان سليم الأول حين دخل الشام فاتحا عام ٩٢٢ للهجرة، ..  
ثم وقفنا أمام مصحف عثمان رضي الله ، المفتوح على الصفحة التي رأينا عليها دمه الطاهر  
حين قتله الثائرون، فذهب شهيدا صائما، فأفطر عند حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم،  
فقد جاء في الأثر أنه قال له في الليلة التي قتل بعدها : إنك ستفطر عندنا.

كلما ذكرت الخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عليهم حن قلبي إليهم واشتقت أن أراهم  
ورأيت نفسي واديا ضيقا أمام جبال عملاقة آخذة في السماء تناطح السحاب وتطاول  
الأنجم، وترسل فيئها على جنبات الأرض

وإني لأرجو الله تعالى أن يرفعني بحبهم إليهم ، فالمرء مع من أحب ، وحين ألفت كتابي  
" قصص رواها الصحابة رضي الله عنهم " أهديتهم إياه، فقد عشت في رحابهم ساعات رضية  
هنيئة ، فقلت:

إلى الصديق والفروق أهدي	كتابا صغته درًا بعقدي
وذي النورين فاسمي من نداء	ورابع هؤلاء الصيد جدّي
إليهم أنتمي قولاً وفعلاً	فإن الحق بهم، فالودُّ ودّي
ولست بمدرك منهم يسيرا	ولكن حبُّهم في الله سعدي
فيا أصحاب خير الخلق عذراً	فأنتم قدوتي ، والله قصدي
عساني أبلغ الفردوس فيكم	إلى الرحمان في جنات خلدٍ

كان الطريق إلى أنقرة طويلا ، استغرق أكثر من ثمان ساعات، إلا أنه كان ممتعا،

فالمساحة الخضراء كانت تصاحبنا على جانبي الطريق، والقرى والدساكر ترامت قريبا وبعيدا ،  
ترافقنا دون كلال ولا ملال، والجبال التي تقترب أحيانا وتبعد حيناً كأنها جماعات تسلم علينا  
وترحب بنا، .. هذا الطريق الذي ساره الخليفة المعتصم بالله حين استجاب لنداء الهاشمية إذ  
قالت : وامعتصماه.. وامعتصماه، مستنجدة ، مستجيرة به ممن أذلوها وقتلوا ابنها في " زبطرة "  
أحد ثغور المسلمين فكانت استجابته مضرب المثل في النخوة الإسلامية والرجولة الإيمانية،  
فقال : لبيك يا أختاه ، واقسم لا يجلس على عرشه حتى يثار لها وللمسلمين، .. وبر بقسمه،  
واجتاحت جيوشه الروم وعاصمتهم "أنقرة" فهدمها وأحرقها ، ثم مال على " عمورية" مسقط  
رأس القيصر ، فاستباحها وهدمها كذلك، حتى تكونا عبرة لمن تسؤل له نفسه أن ينتهك  
حرمات المسلمين ، فمدحه " أبو تمام " في قصيدته الشهيرة:

السيف أصدق إنباء من الكتب      في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

وفيها يقول:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به      نظم من الشعراًو نثر من الخطب

فتح تَفَفَّتَحَ أبواب السماء له      وتبرز الأرض في أثوابها القُشْب

ويعظم شأن فتح عمورية:

يا يوم وقعتِ عمورية انصرفت      عنك المنى حقلاً معسولة الحلبِ

أبقيت جدّ بني الإسلام في صُعد      والمشركين ودار الشرك في صيب

ويرى أن ما أصاب أنقرة من دمار كان شؤماً على عمورية:

جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة      إذ غودرتْ وحشة الساحات والرحب

لكن زماننا الرديء . أيها الأحباب . رزأنا ب " رُويضات " همها إرضاء العدو ، وقمع

الأحرار، وقد قلت في ذلك:

رتع البغاة بموطني واقتيد أسرى المخلصون

وسطا على خيرات شعبي المارقون الآبقون

بالقهر والإرهاب والبطش المنزل يحكمون

وعيونهم سهري ولكن أين منها المفسدون!؟

هي للعدو سلامة وعلى شعوبهم منون

وعلى صدورهم غدوا ظلما وقهرا يچشمون

وتراهم إفكا وزورا يكذبون ويدعون

وهم بألقاب الفخا مة والرياسة يرفلون

وبكل أوصاف الزعا مة والريادة يُنعتون

هذا أمير المؤمنين وذاك حام للحصون

وجلالة الملك الهما م ، حمته أهداب العيون

وسمؤه جبل عظيم ، يفتديه الحائرون

وفخامة وسيادة وبغيرها لا يرتضون

وعدوهم يكويهـم بالكره والحقد الدفين

وهم على أعتابه في ذلم يتمرغون

لو داسهم بوقاحة ضحكوا وهم يستبشرون

لو مجهم بصفاعة عادوا وهم يتمسحون

ورحم الله " أبا ريشة " فهؤلاء الحكام دمي ولعب ، وصور ليس غير:

ربّ وامعتصماه انطلقت      ملء أفواه الصبايا اليتم

لامست أسماعهم لكنها      لم تلامس نخوة المعتصم

وصلنا أنقرة ، فإذا هي مدينة عصرية ، واسعة المدى ، عصرية البناء

جعلها العلماني مصطفى أتاتورك عاصمة له، فيها الجامعات الكبيرة ، والعمارات العالية، وعلى الرغم أن رثاتها . حدائقها . كثيرة، كان جوها قائما لفساد هوائها، وربما لأن هذا المجرم دفن فيها، فقد دخلنا مقبرته الفخمة ، وهي عبارة عن بناء يوناني فخم عال، على أعمدة سامقة، يشبه قصور الإغريق، يتوسطه قبره ، فقرأنا الفاتحة على أرواح المسلمين، ولعناه من كل قلوبنا ، ودعونا عليه بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ،

مكثنا أياما قليلة لم نرتح فيها كما ارتحنا في استامبول ، فعدنا أدراجنا ، وكانت كوك جدره آنس لنا، واقرب إلى نفوسنا ،

على مسافة عشرة أميال ،ومن ناحية الشمال على شاطئ مرمرة تطل قرية سياحية ظريفة ، تدعى " عرموطي " أكبر من كوك جدره وأحدث ، يقصدها الساجون والساجات، في العطلة الأسبوعية ، فكنا نمشي إليها متريّضين في غير أيام العطل ، إذ تكون هادئة، واسمها على مسماها ، فالعرموط . الأجاص . فيها حلو لذيذ، أما شاليهاتها فمتدرجة ، رخيصة الإيجار والتمن لمن أراد الشراء، لكنها لا تناسب أمثالنا من المحافظين الملتزمين، قضرنا عن شرائها أو الاستئجار فيها صفحا،

رئيس الجمهورية . إذ ذاك . كنعان إيفيرين . تقرب إلى العرب ، وانشأ علاقة طيبة بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أمير دولة الإمارات ، فكثرت التعاملون الأتراك فيها، وكانت خطوة رائدة في الاستعاضة بالمسلمين عن غيرهم

أما الزيارة الثالثة إلى تركيا فكانت في السنة الثانية والتسعين والمئة والألف، حين سافرت أم حسان مع أولاد اختها، إلى كوك جدره ، صرفتها دون أن تعلم أنني على وشك الزواج بثانية، قالت : كيف أسافر دونك ؟ قلت الأمر بسيط ،فأنا غير راغب الآن ، ولعلي . إن غيرت رأيي . ألحق بكم ،

تعرفت في العين . مدينة في إمارة أبي ظبي . على أسرة فلسطينية طيبة ، فيها امرأة مطلقة في السادسة والعشرين ولها ولد أخذه ابوه ، وعادت لتعيش في كنف امرأة أبيها، التي رغبت عنها، وكنْتُ أكبرها بعشرين سنة، والحقيقة أنني حين رايتها وكانت طويلة ممتلئة ، هادئة الطباع، قريبة إلى القلب، تتراح لها النفس ، ولم تكن جميلة ، فقد شبعْتُ من الجمال ، والجمال الحقيقي في النفس ، لا في الجسد فقط ، وانا في سن النضوج أميل إلى الهدوء والبساطة . ملت إليها وشعرت أنها بغيتي ، ولعل الله سبحانه يرزقني منها الولد، وهاتفت الوالدة . رحمها الله وعفا عنها . أن تزورني لتخطبها او تبارك هذا الزواج ، فما كان منها حين علمت أنها ليست من حلب إلا أن رفضت رغبتني بشدة، فندمتُ إذ أخبرتها ، وما كان لي بعد علمها بما انتويت ورفضها أن أخالفها، فاعتذرت حزينا ، وأخبرتني انها . وقد علمت أنني جادٌ هذه المرة . ستخطب فتاة تليق بي ، وكأن ما يليق بالمرء من النساء ينبغي أن يكون من بلده فحسب، !! فخطبت فتاة خطبة تقليدية ثم عُقد لي عليها، واستأجرت الشقة المناسبة وفرشتها ودفعت المهر، وكان عليها ان تأتي قبل عودة ام حسان من تركيا لترى الأمر قد انتهى فلما ، انتظرت الطائرة في المطار ، فلم تأت العروس فيها عدت إلى البيت لأسأل أباها سبب تأخرها ، فكانت هي المتحدثة ، وهذه هي المرة الأولى التي أكلمها ، ولم أكن قبل قد حدثتها، أو تكلمت إليها.....

حمدت الله تعالى أن كلمتها قبل مجيئها، ولعلها أرادت ان تتقرب إليّ ، فأسمعتني من عبارات الحب والغزل ما لم أسمعه من زوجتي العفيفة مدة أربعة عشر عاما قضيتها معها، وأخبرتني أن جهاز العرس سينتهي بعد أيام وأنها ستوافي حبيبها في الأسبوع القادم لتسقيه الشهد، وتنسيه أيام الشقاء، وليرزقه الله منها الذرية الصالحة!! قلت لنفسي: خير البر عاجله .  
اتصلت بعلمي واخبرته أنني لا أريدها، فلما عرف السبب وحاول أن يشيني طلقها ثلاثا، وقررت أن أحتفظ بهذه المهرة العربية الأصيلة فقط، التقية اللببية ، وأنسى الزواج الثاني.  
عادت رفيقة الدرب ، بعد اسبوع ، وكنت قد انتهيت مما عزمت عليه ، فرافقتني مرة ثانية إلى تركيا شهر غسل جديد أغسل فيه تعبي وأنسى فيه خيبيتي .  
لم أخرج من مصيف "كوك جدره" إلا مرات قليلة استمتعت فيها بالهدوء ولقاء الأصدقاء وراحة الأعصاب.





## اليمن ( ١ )

عد معي أكثر من أربع وعشرين سنة وقل:

نحن الآن في الإمارات ، شتاء عام ألف وتسع مئة وثمانين وستة، وقبل العطلة الانتصافية بأسبوع . يرن جرس الهاتف ، والمتكلم أخي كمال من اليمن في صنعاء ، إنه مدرس يعمل وزوجته مدرسَيْن في المعاهد العلمية التابعة لتجمع الإصلاح اليمني ،،، وهذه المدارس كثيرة تعد بالعشرات ، تدرس إلى جانب المناهج الوطنية المقررات الإسلامية ، من فقه وتفسير وسيرة وإسلام حركي ، والإسلام الحركي في مفهوم الناضجين من الإسلاميين : التعامل السليم اجتماعيا وثقافيا ، والسعي لإنشاء أسرة مسلمة ملتزمة بدينها، منفتحة على المجتمع الصغير أولا ، والكبير ثانيا .

وقد نجحت المعاهد في بناء جيل من الشباب المستنير كان في الثمانينات المدافع الأساس عن الإسلام في اليمن الشمالي ، حين كان اليمن الجنوبي يحكمه الشيوعيون ويهددون اليمن الشمالي، ويسعون لضمه إليهم عنوة، وكان كذلك القوة الضاربة في القضاء على هؤلاء الشيوعيين عام أربعة وتسعين وتسع مئة وألف في حرب ضروس وحدت اليمن بشكل تام ، واعترف بفضلهم القاضي والداني ، والأعداء قبل الأصدقاء، ولهذا شدد الأمريكان على عبد الله صالح رئيس اليمن في احتواء هذه المعاهد ، وضمها إلى المدارس التابعة لوزارة التربية والتعليم، وهكذا كان .. فالعرب أصحاب شهامة ونخوة ، يستجيبون لأوامر . عفوا ، أقصد لطلب كهذا بسيط من أحباب يريدون لأمتنا الخير ! ويرغبون أن نعيش في بلادنا كراما دون أن يتدخلوا في شؤوننا! إنما هي نصائح لوجه الله !! لا يريدون من تلك النصائح جزاء ولا

شكورا ، ونحن نقدر حرصهم على خدمتنا ، فנסارع إلى تلبية الأوامر . أقصد المطالب  
النصائحية! - فلساني كثيرا ما يتعثر ، ارجو أن تعذروني . دون تردد ، ولا تدمر ، وهكذا يحافظ  
الحاكم على كرسيه أن يقتلعه السيد فيخسره الشعب المصابر .

دعانا أخي إلى قضاء العطلة وهي أسبوعان . في رحاب اليمن " السعيد " وتذكرنا قول  
الإمام الشافعي . رضي الله عنه . " لا بد من صنعا وإن طال السفر " . فشحننا المهمة ، وقررنا  
إذ قدر الله تعالى . أن نكون عنده في اليوم الأول وأن نعود في اليوم الأخير من العطلة حتى  
نستمتع قدر المستطاع بهذه الرحلة...

انطلقت بنا الطائرة اليمنية ظهر يوم الخميس ، من الشارقة في رحلة رائعة ، سارت فيها  
شرقا محاذية شاطئ الخليج ، إلى رأس هرمز المتجه إلى إيران، ثم انفتلت إلى الجنوب فوق  
جبال عمان الخضراء السامقة، وتابعت محاذية ساحل البحر العربي، بارتفاع منخفض أتاح لنا  
التمتع بما نراه ، ثم اتجهت نحو الغرب غير مبتعدة عن الشاطئ ، إلى أن وصلت باب المنذب،  
فانفتلت إلى الشمال نحو مدينة الحديدية اليمنية على البحر الأحمر ، ثم بدأت تنخفض شرقا  
إلى مطار صنعاء ، وسمعنا قائد الطائرة يهئنا بسلامة الوصول، ويطلب إلينا أن نربط الأحزمة  
استعدادا للهبوط.

وقبل أن نربط أحزمة الهبوط كنا قد ربطنا أحزمة المعدة، فما قدمه الضائفون من طعام  
للمسافرين كان قليلا ، وكانت خدمتهم للمسافرين يدل على رقة حال شركة الطيران اليمنية  
وفقرها ، ويساعد على ذلك الاستنباط قَدَمُ الكراسي وتغيُّر لونها.

كان يجلس إلى جانبي في الطرف الآخر رجل من الإمارات ، عرفني بنفسه فقال : إنه  
تاجر عطور في دبي ، وكان من دواعي التعارف فضلا عن جلوسه قربي أنني أخرجت " حنجور

" عطر من مسك طيب ادهنت به وقدمته إليه ، فكان مهذبا ، إذ أخذه مني فشمه ثم ادهن به ، وسألني عن ثمنه فقلت : عشرون درهما ، فأخرج واحدا بحجمه وفتحه ودهن كفي به وكان من العود الذكي الرائحة ، وذكر أن ثمنه خمس مئة درهم . وأخرج ثانيا ضعف حجمه من العود نفسه قائلا : إنه بألف درهم . فلما سألته : أفي اليمن من يشتري عطورا بهذه القيمة أجاب : نعم وخاصة زارعو القات . قلت : ومن هم؟ قال : ما من يماني لا يمضغه ، وسوف تراهم حين ننزل يمضغون ، وما من زارع للقات إلا كان دخله السنوي ملايين الريالات ، وكان الريال في تلك السنة أقوى من الريال السعودي .

لم يكن في المطار سوى مدرج واحد وقفت الطائرة فيه ، ثم تقدمت نحو بناء صغير أظن أن مساحته لا تتعدى ألف متر مربع ، هو كل بناء المطار  
نزلنا من الطائرة ، وتقدمنا إلى البناء ، وكان موظف الجوازات في مدخله ، وسألني إن كان معي دولارات فأفدته ، وسرت خطوات لأرى أخي وأولاده ينادوننا ، وعلى اليسار القسم الثاني من البناء يجلس فيه المغادرون ، هذا كل بناء المطار ، فدلفنا من الباب الخلفي إليهم ورأينا أنفسنا في صنعاء

### صنعاء

كان الجو لطيفا والسماء صافية ، ودرجة الحرارة لا تتجاوز الخامسة والعشرين ونحن في فصل الشتاء ، كنت أصلي الفجر في المسجد القريب من دار أخي في هذه الزيارة وفي الصيف عام تسعة وثمانين ، فلا أجد تفاوتاً يذكر في درجة الحرارة ، سوى أنني في الشتاء كنت أرتاح أكثر لارتداء معطف خفيف .

صنعاء في ذلك الوقت مدينة هادئة صغيرة ، ليس فيها شارع معبد سوى شارع الستين

وهذا اسمه على ما أعتقد، وفي وسطه نفق عميق يستوهب السيول المتدفقة القوية ، وكثيرا ما ترى معالم الشارع مطموسة بالأتربة والأوساخ، أما الطرق الأخرى الرئيسة والمتفرعة عنه وعن غيره فترابية أو معبدة بشيء آخر عجيب ، أتدري . قارئ العزيز - ماهيته ؟ إنه علب المشروبات المعدنية الملقاة على الأرض التي داستها السيارات فمددتها ولصقتها بالتراب مع أكياس النايلون ، والورق المقوى . الكرتون . وما يخطر ببالك ، وما لا يخطر من مزابل الإنسان ، أما المجاري فعلى سطح الأرض ، تخرج من الدور إلى منتصف الطريق وقد تكون أضيق من خطوة الرجل أو أعرض ، وعلى الناس أن ينتبهوا كي لا يقعوا في المحذور ! ، ويُعرف ما يأكله أهل كل دار مما يسيل في هذه المجاري الترابية من مخلفات الإنسان ، ، ترى الألوان متعددة ، أخضر وأصفر وأحمر ، ، لا أريد أن أثير الاشمئزاز ، ولكن هذا أقل ما يُقال .

أغلب الشوارع قديمة ، والمحلات التجارية ، أو قل الدكاكين بسيطة والحياة أقرب إلى البدائية ، ولعل صنعاء حين زرتها أول مرة تشبه مدينة حماة السورية قبل ثلاثة قرون ، فالفرق الحضاري بين بلاد الشام واليمن كبير . إلا أن زخرفة البناء من الخارج متميزة ، غزت صورها العالم وتميزت اليمن بها.

كانت دار أخي في وسط المدينة كما قيل لي ، في منطقة تدعى " الأكمة " في طريق داخلي أمام ثكنة عسكرية، وعلى بعد مئة متر من مسجد مشهور يعرف بجامع "هايل سعيد " ولعل أغرب ما رأيت حين أدخل المساجد السراويلات الداخلية تُرمى أمام الباب فإذا انتهت الصلاة عاد أصحابها فلبسوها ، والأعجب أن أصحابها لا يخطئون فيها وهي كثيرة ، ولا تسليني عن نظافتها ، فلا أريد أن أثير فيك الاشمئزاز تارة أخرى ، إن المسلم نظيف ، لقد كان الأحرى بهؤلاء أن يبدلوا ما اتسخ في بيوتهم، لا أن يزرعوها أمام المساجد !! وكل عمل

المسلمين محسوب عليهم بدقة ، وهل هذا الأمر إيجابي ومعلم حضاري بارز يعطي صورة جيدة لمن يريد الدخول في الإسلام أو يمنع طعن الشائئين المبغضين؟!

من أهم ما زرناه في صنعاء المسجد الكبير وهو داخل السور، رواقه كبير قائم على عمدان كثيرة، تقام فيه دروس الفقه والعلوم الشرعية على المذهب الزيدي بشكل متواصل فتراه ممتلئا في أكثر أوقاته، ويزيدون في الأذان بعد " حي على الفلاح " قولهم " حي على خير العمل " في كثير من المساجد ، وفي اليمن كثير من أهل السنة على المذهب الشافعي ولأن الصلاة هي لا تختلف - والحمد لله - يختلفون إلى المساجد كلها ، الشافعي والزيدي ، ويصلي بعضهم وراء بعض . ودخلت باب اليمن كثيرا ، فهو لب المدينة ومعلمها البارز، ومن أمامه يبدأ شارع عريض يخترق المدينة الحديثة، ولعله - كما أظن - يتصل بشارع هايل حيث أنشأ أخي أبو عصام مطعما يهتم بالمطبخ السوري يقدم الوجبات الحلبية المشهورة وسماه مطعم الشهباء، كان السوريون وكثير من الذواقة اليمنيين يقصدونه، إلا أنه المطعم بعد سنتين أفلس لكثرة الشركاء الذين يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة - حسب الموانة - التي قصمت ظهر البعير، عفواً قصدت : قصمت ظهر رأسمال المطعم وسوّته بالتراب .

## مأرب

خرجنا صباح يوم قاصدين سد مأرب القديم الجديد، فما إن غادرنا صنعاء بضعة كيلومترات حتى أوقفنا حاجز عسكري سلم علينا بأدب ، وجاست عيناه داخل السيارة ، وسمح لنا بالمسير، قلت لأخي : ليس في بلادنا ما يمنع أمثال هذا الحاجز بسبب وبدون سبب، فما بال هؤلاء القوم ؟ أتراهم تعلّموا منا؟ قال: لو كنا يمنيين لشددوا أكثر . لقد دخلنا حدود القبائل، ففي المدينة لا يسمح بحمل السلاح ، وبعد هذا الحاجز ترى الصغار قبل

الكبار يحملون السلاح الفرديّ . المسدسات والكلاشنكوف . دون حساب ولا عقاب، ورأينا . فعلا . على طول الطريق أبناء العاشرة يحملون السلاح في غدواتهم وروحاتهم .، شعرت . والله بالعزة وأنا أنظر إليهم ، فكيف لو كنت أحمله؟ !

ليس من يحمل السلاح إرهابيا ، إنما الإرهابي من يحظره على غيره ويذلهم به ، ألم يكن أجدادنا يحملون السيوف في أعمادها في حلهم وترحالهم ؟ ولا يستعملونها إلا في الوقت المناسب ؟ أليس من يكون السلاح رفيقه يمنع ذوي النفوس الخبيثة أن تعتدي عليه وتستخف به؟ وحين يكون نظامٌ لن ترى أحدا يجرؤ على إيذاء الآخرين . ومتى ظهر . ما يسمى إرهابا . في بلادنا وفي غيرها؟

إن نظرة سريعة تؤكد أن الحاكم المستبدّ حين يضيّق على الأمة ويسلبها حقها ، ويسومها الخسف ، ويذيقها الذل ألوانا ، تثور عليه وترفع السلاح في وجهه . وأكبر دليل على صحة هذا الرأي أن الأمريكي يشتري السلاح الذي يريد من مخازنها الموجودة في كل مدينة صغيرة أو كبيرة في أمريكا ، ويحمله ويتدرب عليه ولا يثور على مسؤوليه لأنه الذي ينتخبهم ، فيرفع من يشاء منهم، ويسقط منهم من يشاء ، وإذا شعر أن اختياره كان خاطئا غيرهم بعد أربع سنوات . إنهم يسعون إلى رضاه ليختارهم دائما ، فلماذا يحمل السلاح في وجوههم؟! أما حكامنا فإنهم يصلون إلى كراسي الحكم بالدبابة والانقلابات، ويكتمون الأفواه ، ويسدون الآذان ، ويغطون على العيون ، والمواطن المثالي عندهم لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ، ويلتصقون بالكراسي وشعارهم <إلى الأبد يا سيد البلد> والويل لمن يجرّك ساكنا ، ويسلبون وينهبون فكل شيء لهم !!! وتراهم يُمضون كل ما يريدون دون العودة إلى الشعب . مع قليل من الديكور المنافق كمجالس الشعب والأحزاب الهزيلة المؤلفة من وصوليين ، وقد يكون بعض

هذه الأحزاب مؤلفة من الرجل وزوجته فقط .!! . حدث هذا في بلادنا سورية المصابة ، صانها الله من كيد الكائدين

الطريق إلى مأرب عادي ملتوٍ ، ولعله بعد ثمان عشرة سنة دخل عليه التحسين ، ليس فيه ما يجذب الانتباه ، ولعل مسمارا أصاب إحدى عجلات السيارة ، وكنا لحسن الحظ أمام " بنشر " أحد مصلحي العجلات ، فجاء غلامه وحلّ العجلة وقدمها للمعلم الذي كان فمه منتفخا من طرفيه ، سلمنا عليه فلم يرد ، وكأنه لا يسمع ، ضحك أخي حين سألته عن الورم في فمه وقال : هذا (مسلطن)- سلطان زمانه . يمضغ القات ويحتسي الشاي معه . . . . أخرج الرجل المسمار ولصق جلدة مكان الثقب ثلاث مرات ، فلم يفلح إلا في الرابعة ، قلت : لعله مبتدئ لا يحسن الصنعة ؟ قال : بل هو منسجم يخلّق في ملكوت آخر ، وقد جرت العادة في مضغ القات أن يجمع المصلون العصر مع الظهر ليتفرغوا يوميا لهذا السم القاتل ، ولقد زرت بعض الإسلاميين في صنعاء فوجدتهم شريحة من شرائح المجتمع الذي يعيشونه ، يجتمعون على القات بعد جمع الصلاتين ، ويأخذون في الحديث والمناظرة . . وقد تجد شرطي المرور يفرض على السائق إتاةة يجمعها من هذا وذاك وهو عصبي المزاج ، فإذا بدأ يمضغ القات هدأ وسكن وعاد وديعا !

وصلنا مأرب القديمة بعد مسير أربع ساعات فكانت رجوم أحجار مكومة هنا وهناك على مساحة من الأرض واسعة، تملؤها الأحجار الصغيرة فتذكرت قوله سبحانه وتعالى " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال " فأين هاتان الجنتان يا أبناء آدم؟ تكلموا، أجبوا . لن بنسوا بنت شفة، لقد طواهم الدهر فصاروا في خبر كان أو في سكون مجزوم به لا يريمون عنه ، أو جرّ إلى قعر جهنم بما كفروا نعمة ربهم.

ورحم الله ابا العتاهية فقد أحسن إذ قال :

لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب

لقد كانوا سادة في حياتهم يشار إليهم بالبنان، فأين هم الآن ؟

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح لتموتن وإن عمّرت ما عمّر نوح

كان السد القديم إلى يسارنا حين دخلنا المنطقة، باقية آثاره على مر الزمان ينبئ عن حضارة متقدمة في عالم الزراعة والري والتجارة ، فقد كانوا يسيرون ليالي وأياما في ظل الحمائل والأبيك " فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم، فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق " نعم صاروا أحاديث للعرب منذ القديم إلى هذه اللحظة التي أحدثكم فيها عنهم ، وحيث يُذكرون مثالا لمن يكفر النعمة ولا يحافظ عليها ، فشتتهم الله في جزيرة العرب وبلاد الشام ، حتى وصلوا إلى المغرب ، فكان البربر من نسلهم. وما أعظم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك "

وتمشي خطوات فترى السد الجديد ملاصقا السد القديم وملتحما به، وأعلى منه قليلا، قمته طريق يصل أوله بآخره ، تصعد إليه على درج وعلى جانبيه مساطب من أسفله إلى أعلاه، تكفل بنائه الشيخ زايد بن سلطان أمير دولة الإمارات العربية المتحدة، فإذا وصلت قمته رأيت بحيرة كبيرة وراءه، فسيول اليمن مشهورة بقوة اندفاعها وكثرة مائها ، وحين يكثُر الزائرون يفتح القيم على السد كوة فيتدفق الماء عذبا رقاقا يملأ النهر الطبيعي المتشكل منذ القديم ويتقدم نحو رجوم المدينة المندثرة فيغيب في ثنايا الأرض الرملية أمامك بشكل يثير العجب .

حين علم بعض الأحباب بوجودي في صنعاء قصدوا دار أخي مسلمين ، ومنهم إخوة



لم أرهم مذكنا في حلب ، أذكر منهم أخانا موجه الرياضيات حسن دشق "أبا محمد " وعبد  
الماجد السيخ " أبا ياسر" والأخ الحبيب المهندس نادراً القرقناوي " أبا نجيب" وجميل أن ترى  
فجأة إخوة لك تحن إليهم وتشتاقهم ، وكانت ليالي وأماسي رائعة ، كما تعرفت على الأستاذ  
الداعية اليمني والأخ القائد " أبي أكرم " عبد الرحمن العمادي حفظهم الله جميعا .



## اليمن ( ٢ )

كانت عام تسعة وثمانين . أي بعد ثلاث سنوات ونصف السنة من رحلتي الأولى لليمن، فقد كانت في الصيف ولم تكن زوجتي معي ، فقد زارنا في الإمارات أختها الكبرى وزوجها رحمه الله تعالى وأولادها ، وكانت أختها الوسطى الدكتورة زينب تعمل في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، وهي الآن مدرسة في جامعة الشارقة وسأحدثكم في مذكراتي إن شاء الله تعالى عن طريف قدومها ، إلى الإمارات ورعاية الله تعالى لها في مسار حياتها فهي . والله أعلم . تحمل في صدرها قلباً نظيفاً خالياً من الغش، قلّ أن يحمل أحد مثله هذه الأيام، ولا أزكي على الله أحداً، استأذنتهم في السفر وانطلقت إلى عمان ثم اليمن .

لم ألتق كثيراً بالإخوة اليمنيين فلم يكن ما يستدعي ذلك ، لكنهم إن كانوا على شاكلة الأستاذ العمادي أبي أكرم حفظه المولى فهم على قدر عال من الذكاء والفهم والإخلاص .

يقول أبو عصام . أخي . : ألا تزور صاحبنا فلانا في " وادي النعيم"؟ قلت وقد شاقني الاسم : لم لا؟ فركبنا سيارته الدهرية "كريسيديا" التي أكل الدهر عليها وشرب، . وليس فيها من مقومات السيارة سوى اسمها- لا أدري كيف تمشي وقد تقعقع فيها كل شيء وكان هديرها هدير دبابة، ومع ذلك فقد حاول اللصوص سرقتها مرتين وأنا في زيارته الثانية، وهي أمام بيته، دون أن يظفروا بها وقد رأيناها مفتوحة و"الدينامو" ملتويا - حاولوا سرقتها بين الظهر والعصر ، لكنهم لم يعرفوا أين مفتاحها الكهربائي السري، فباءوا بالخيبة ، ولعلمهم لو استطاعوا فك اللغز لأراحوه منها ، ولكن عمرها طويل بين يديه . ، وقد أخبرتكم ان لها مفتاحاً سرياً بعد أن باعها...

انطلقت بنا دبابته إلى الهدف المنشود ، وخرجنا من صنعاء، وسلكنا طرقاً ملتوية ، ثم دروباً ترابية مهملة ، ثم بدأت السيارة الدبابة تقفز على الأحجار الصغيرة ، وفوق الصخور الكبيرة، وترتفع تلا وتنزل وادياً ، ونحن نميل يمناً ويسرة، نصطدم بالأبواب تارة وبالسقف تارة، تلبكت أمعاؤنا ، وهضمنا طعام الغداء فشعرنا بالجوع ، وما زالت السيارة تعلق وتخبط وتتلوى بنا حتى وصلنا قرية في وادٍ تسبح فيه الأحجار والصخور ، حتى قالت الوالدة رحمها الله تعالى ، وقد كانت معنا: أهذا وادي النعيم أم وادي الجحيم؟! وضحكنا ، فقد كان التعليق في مكانه، وكانت الرحلة الراقصة متعبة .

القرية صغيرة ، فيها مدرسة ابتدائية بحياة بدائية ، في قرية مازال أهلها يعيشون في مجاهل التاريخ، حياتهم صعبة ، ولئن اعتادوا عليها فلاأنهم لا يعرفون غيرها ، أما الأساتذة فهم من البلاد العربية المتحضرة ، ومن الصعوبة بمكان أن يتبدى الإنسان بعد التحضر، ولكن لقمة العيش مغموسة بالدم. كانت حياة صاحبنا السوري صعبة للغاية، لكنه وأسرته ووطنوا أنفسهم على ذلك ، يقول : وهل بالإمكان أفضل مما كان؟.

قضيت عيد الأضحى عند أخي مع الوالدة الحبيبة رحمها الله رحمة واسعة ورحم الوالد الحبيب ، وأسكنهما الفردوس الأعلى . وعدت إلى عمّان ومنها إلى الشارقة و ما أحلى الرجوع إليها!

قلت ما أحلى الرجوع إليها لأن الفرق الحضاري المادي بينهما شاسع ، وإن كانت أخلاق اليمينيين من كرم ورفعة وإباء أمراً يرفع الرأس ويحيي النفوس ، فقد كان أساس الحضارة عندهم ، لكنّ الفقر والجهل قد يغير الحال مما ذكرني بقوله صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور الذي يبتدئ بالجملة الرائعة الدافعة إلى الأمام والعمل الجادّ : " بادروا بالأعمال سبعاً

( هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ... ) ، والفقير يفعل الأفاعيل . وكلنا يتذكر قول أمير المؤمنين  
علي رضي الله عنه وأرضاه ( لو كان الفقر رجلاً لقتلته ) .



## اليمن ( ٣ )

كانت هذه الزيارة صيف عام ثلاثة وتسعين ، مع الزوجة ، وكان المطار أحدث من سابقه إلا أنه يتخلف بمراحل كثيرة عن غيره في البلاد العربية الأخرى وكان الجو لطيفا ، فزرت وأبو عصام مدينتين اثنتين .

### كوكبان

انطلقنا - على ما أعتقد - نحو الشمال الغربي في طريق أحادي ، وكل الطرق الخارجية اليمنية -تقريبا - أحادية، وبدأنا نصعد الجبال ، قال أخي: انظر إلى الأعلى فرفعت رأسي إلى قمة الجبل العالي جدا ، فرأيت بيوتا عالقة في السماء، قلت : كيف وصل هؤلاء إلى السماء السابعة؟ وكيف يعيشون فيها ، إني أراها محاطة من كل جوانبها بالفضاء الرحب ، فأين الطريق إليها ؟ ولماذا يسكنون في شاهق ؟ أليس لهم في الأرض المنبسطة فرج؟

كان أخي أبو عصام يتسم وهو يستمع إلى تساؤلاتي؟ نظر إليّ والسيارة ترتقي الجبل متمهلة وقال ستعاينها حين نصل إليها فاليمينيون كانوا أهل غزو وثورات ، ولم يكن أحد يتورّع أن يغزو المسلمين . وهو منهم . ليؤمن لقمة عيشه، وكان وازع الدين فيهم ضعيفا ، فلجأت كل قبيلة أو عشيرة إلى الجبال والتلاع تتخذها سكنا وملاذا... .

وظلت السيارة تجاهد في التسلق حتى حسبتنا في الطائرة، واقتربنا من البلدة التي أنجبت العلماء .

تمتاز كوكبان بجامعها الذي بناه الأمير أسعد بن يعفر في القرن الثالث الهجري، وهو صورة مصغرة لمسجد صنعاء الكبير. في وسطه صحن حوله أربعة أروقة أكبرها القبليّة، والقبليّة

مؤلفة من أربع بلاطات كبيرة وثلاثة صفوف من الأعمدة، يتوسط المحراب جدار القبلة، وباطن المحراب مطلي بالحصص، تزيينه عناصر زخرفية على هيئة محارة ووريدات ثلاثية

أما حصن كوكبان فيرتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر، يحيط بالمدينة من كل الأطراف ، كان ارتفاعه حين فتح المدينة القائد العثماني " سنان باشا" في القرن السادس عشر الميلادي ثلاثة وسبعين مترا، وعرضه ثلاثة أمتار، وكان للحصن أربعة أبواب ، فإذا أغلق الباب الرئيسي صارت المدينة جزيرة فضائية عالقة في السماء لا يصل إليها إلا الطير . وقيل : سميت كوكبان لأن قصر الحصن بني بالحجارة داخلها الفضة والياقوت والجوهر ، وكان الدر والجوهر يلمعان في الليل كالكوكب.

### الطويلة

وصلنا إليها بعد مسير ساعة أو أقل وهي عاصمة منطقة المحويت ، كان أبو عصام يعمل مدرسا في معهدا سنتين ، وكان مدير المدرسة وإمام القرية رجلا في الخامسة والستين من عمره - إذ ذاك ، ولعله حي حتى هذه السنة ٢٠١٠ حفظه الله تعالى ، ذاهمة عالية ونشاط بادٍ ، بينه وبين أخي حب وود، استقبلنا بترحيب يدل على أخلاق راقية ، وصعد بنا بيته ولا أدري كيف وسعنا درج البيت ، فهو ضيق لولي، وكان الرجل نحيفا طويلا، ومن حقه أن يكون كذلك لكثرة ما يصعد الدرج ويهبط، تغدينا عنده الأرز المطبوخ دون لحم ، فلما شبعنا قدم لكل منا قطعتي لحم متوسطتين، والتفت أخي بقول : لا يقدم اليمينون اللحم مع الأكل، إنما يقدمونه وحده وكأنه الفاكهة، ثم يقدمون الشاي ، ومن بعدها الفاكهة.

أخذنا بعد ذلك إلى مكان عال مشرف على ما تحته ، كان منظرا رائعا بكل ما في الكلمة من معنى، فيه عظمة وجلال، فنحن على مكان مرتفع ، بل أعلى مكان في المنطقة،

ومن تحتنا الجبال الأوطأ ، ثم التلال التي بدت وديانا تحتنا، ثم السهول والسهوب ، تمتد إلى ثلاثين كيلو متر تقريبا ، والقرى من تحتنا بالمئات تلمع تحت أشعة الشمس ، كأنها حبات اللؤلؤ، صورة بديعة تأخذ بالألباب ، وتسبح الله تعالى ، فتدفعك لا شعوريا إلى التفكير بعظمة الخلاق وجمال صنعه. رأيت مثل هذا في الباكستان، فأخذني جلال الصورة، فلما رأيته هنا غطى على ذلك المكان ، فهو أكبر وأفسح.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وإني لأرغب أن أزور الطويلة ، وهذا المرتفع نفسه ، فقد ترك في نفسي ذكرى شائقة ، وحيننا مشوبا بالرهبة ، لا أستطيع التعبير عنه أكثر مما عبرت.

وفي الطويلة حصون متعددة كانت تحمي المدينة من الغازين الطامعين مثل حصن الشامخ وشمسان وحجر السيد ، رأينا أحدها من قريب ولم ندخله ، و ذكر لنا الباقي دون أن نراها.

كنا نود أن نكمل الإجازة الصيفية في اليمن ، فمنعنا من ذلك البراغيث والبرغش ، التي كانت تجتمع علينا من كل حدب وصوب ، وتعجبت من صبر الناس عليها ، وتحمل أذاها فأسرعنا بالعودة إلى الشارقة ، فهي أرحم .. وارتفعت الطائرة بنا قبيل الفجر فكانت الصورة رائعة، فالبحر قبل أن ترسم الشمس على صفحة مائه ، كان يبدو لنا بجرا أحمر قرمزيا مثل لون الدم يأخذ بالألباب ، فكان حقاً علينا أن نسبح الله في عليائه ، يا رب ما أعظمك وأروع ما خلقته ! ثم صار ورديا ثم استحال لازورديا ثم اصفر ثم بدا ذهبيا ثم ازرقّت المياه ، فسبحان مصور الأكوان ومبدعها ، سبحان الله الخالق العظيم. اللهم إنك العظيم في ذاته ، العظيم في خلقه ، لا إله إلا أنت . فسبحانك من خالق جليل



## بريطانيا ( ١ )

نحن الآن في الإمارات من " آب " صيف ثلاثة وتسعين وتسع مئة وألف ، لم نكن نرغب في السفر خارج الدولة ، إلا أن אחتي أم حسن المهاجرة إلى لندن منذ تسع سنوات شجعتني لزيارتها هناك ، لم يبق سوى شهر للعودة إلى المدارس ... تكاسلت لهذا السبب ، فالرحلة إلى أوروبا باهظة ، والوقت الباقي شهر تقريبا ، بل أقل بكثير ، فالمدرس يود أن يعود إلى مقر إقامته قبل بدء العمل بأيام ، يجهز فيها نفسه ... وإذا نلت التأشيرة فلن تكون بين يديّ قبل أيام ، ولا يشتري أحدنا بطاقة السفر إلا بعد التأكد أنه نال تأشيرة الدخول إلى البلد الذي يقصده ... كنت في عام ستة وثمانين قد طلبت تأشيرة السفر إلى بريطانيا ، وكانت سوريا قطعت علاقتها بها ، فجاءني الرفض بعد ستة أشهر من تقديم الطلب .

قلت لأم حسان : يخطر ببالي أن نطلب التأشيرة ، ولو لم نساfer . قالت : جرب لنفسك ، فإن نلتها طلبتها أنا . قلت : لم ؟ قالت : من عادة القنصلية البريطانية أنها تستوفي الرسم أولاً ، وهو باهظ ، قريب من مئتي درهم ، وقد تعطيكها ، وقد لا تعطيكها . وأنا لا أرى في نفسي رغبة في السفر حتى هذه اللحظة ، ولربما يتغير رأبي حين أراك تجهز نفسك لرحلتك ، فأصاحبك .

كنت في اليوم التالي - ومعني أوراقى - أطرق باب القنصلية البريطانية . كانت قائمة في " بر دبي " غرب الخور ، تشرف عليه بأبنيتها الفخمة ، وأمامها من الطرف الشرقيّ " الديرة " القسم الشرقي من المدينة ، بل قل : القسم الأصيل منها . وأمام البوابة الرئيسية شرطيان يمنعان السيارات أن تقف أمام البوابة الرئيسية، ويحافظان على النظام .... وقريبا من البوابة



باب كبير أمامه فسحة بحجم الغرفة يدخل منها الزائر ، فيتلقفه حارسان يسلمانه الأوراق التي ينبغي أن يملأها ، ثم يفرغ جيوبه من كل شيء ويمر من تحت جهاز يكشف الأدوات الحديدية أو الممنوع إدخالها ، ويأخذون منه الهاتف الخليوي ، ويناولونه ورقة فيها رقم دخوله ، فإذا نادوا بالترتيب ، ووصلوا إلى رقمه فذكروه كان أمام إحدى النوافذ التي فرغ الموظف فيها لتوّه من مراجع سابق ، ليبدأ معه جولة جديدة ... ثم يخرج إلى ساحة كبيرة ممتدة إلى البناء الرئيس ، فيدخل قاعة كبيرة مكيفة ، تتسع مئة زائر ، فيها كراسٍ مريحة ، وعلى الباب موظف يطلب إليك بتهديب أن يرى الأوراق ويتفحصها ، ليعينك في استكمال المعلومات فيها، قبل الوصول إلى إحدى نوافذ المراجعات .

جاء دوري حين سمعت الرقم الذي أحمله ، وتوجهت للنافذة التي دُعيتُ إليها ، فقابلني شاب مهذب بابتسامة خفيفة .... قدمت أوراقِي فتفحصها ودخل إلى حيث لا أراه . ثم عاد قائلاً : راجعنا بعد غد لتقابل نائبة القنصل .. هل تجيد الإنجليزية ؟ قلت : لا . قال :  
نفضّل أن يرافقك من يحسنها.

قال الصيدليّ الأخ " منار " الذي يعمل في إدارة الطيران الدبويّ ، وقد درس اختصاصه في تركيا - في الجامعة الأمريكية في أنقرة - أنا أذهب معك ، فقد أقف هذا الموقف في يوم ما ... منار هذا حفظه الله تعالى وأهله يعيشون في السويد منذ أكثر من سبع سنوات ، ترك سماجة الإمارات ودول الخليج وغباء القائمين عليها ... هؤلاء الذين يعبدون الدرهم والدينار، ويخافون أمريكا والغرب من دون الله ، فيستشفون ما يمكن أن يؤمروا به ، فيسارعون إلى التنفيذ قبل أن يُطلب إليهم ذلك ... ولا أحاشي الرويضات في شرق العالم العربي والإسلامي وغربه، فكلهم صناعة غربيّة! غريبة! ...!

استقبلتنا نائبة القنصل في غرفة داخلية بيننا وبينها حجاب زجاجي ، تسألني سبب الزيارة ، والمدّة التي سأمكنها هناك ، وحقيقة جواز السفر الذي أحمله ، وعدم ذهابي إلى سورية منذ أن خرجت منها .. كنت ألحظ أنها تعرف الكثير من العربية حين تصيخ السمع إليّ قبل أن يترجم منار ما أقول ، فأتجاهل ذلك بجواب مغلف بالبراءة ... ثم تقرر أن تقدم لي موافقة جلالة الملكة على طلب الزيارة ... قالت زوجتي كعادتها حين تراني جادًا ، أهيبني نفسي للسفر: سأذهب معك ... عدت إدراجي إلى القنصلية البريطانية أستخرج تأشيرة لها ، واستغرق هذا الأمر يومين آخرين ، ثم أصابتها وعكة ، فوجدنا الزمن تداركنا ، فلم يبق للمدارس سوى أسبوعين أو أكثر ، ففترت المهمة ، وعزفنا عن الرحلة ، واعتذرنا لأختي على أمل زيارتها في وقت آخر.

بعد سنتين - في الخامسة والتسعين وتسع المئة بعد الألف - وطنا نفسينا أن نقضي الصيف في لندن ، فرأيت نفسي أجهز الأوراق المطلوبة وأيمم وجهي شطر القنصلية البريطانية . في هذه المرة لم يطلبوا منا كشفًا بالرصيد البنكي ، فهم يطلبونه للتأشيرة الأولى فقط .... قال الموظف الذي استلم مني الطلب : لقد امتنعت عن السفر في السنة قبل الماضية ، فلم تلبّ دعوة جلالة الملكة حين أذنت لك بالزيارة . قلت مرضت زوجتي . سمعت نائبة القنصل جواي، فعلمت متسائلة : أتحب زوجتك إلى هذا الحدّ؟ قلت بداهة: ألا يحبك زوجك يا سيدتي؟ . ضحكت قائلة : زوجي في بريطانيا ، وأنا أعيش هنا . قلت : فلم نكون زوجين إذا كان بيننا البحار وأرض الله الواسعة؟! لن يفرقنا إلا الموت إن شاء الله ، هذا هو الحب ، وهكذا يعيش الزوجان. ... لوّت شفتيها ، وأمضت موافقتها ، وقالت : غدًا الواحدة ظهرا تستلم جوازي سفركما ... وهكذا كان.

في هذه السنة صدر ديواني الشعري الثاني : " وميض قلب " أهديته زوجتي ، قائلاً:

في كل يوم حبها يزدادُ      ولها بقلبي رافة وودادُ  
هي جنة البيت السعيد وروضه      والعيش في أفيائها أعياد  
في قربها أجد الحياة رغيدةً      فيها المحبة والهوى المياد  
أهديك شعراً، أنتِ إلهام له      من فيض ودكٍ نشره أوراُدُ

ولم لا يوَدّ الرجل زوجته إذا كانت كما وصفها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة"؟ ... " إنْ نظر إليها سَرَّتْهُ ، وإنْ أمرها أطاعَتْهُ ، وإنْ غاب عنها حفظتْهُ في عرضها وماله " ؟ . ولنا في المصطفى عليه سحائب الصلوات وديَمُ السلام أسوة حسنة في علاقته بزوجاته رضوان الله تعالى عليهنَّ . وفي هذا الديوان قصيدتان فيها . أما الأولى فعنوانها : " فاظفر بذات الدين ، تربتْ يداك " أقول في بعض أبياتها:

هذه الدنيا متاعٌ، أنتِ جدواهُ      زوجةٌ فيها الصلاح ظاهر نام  
خاب من يبحث عن مال وعن جاه      أو جمال قد يزول بعد أيام  
لكنِ المسلمُ إن يبيعِ المسرّاتِ      فبذات الدين يلقي كلّ إكرام

وأما الثانية فقصتها أنني أخطأت مرة بحقها ، ولا أدري ماذا قلت لها في سورة غضب ، فوجدت صباحاً هذا البيت الشعري:

تقول جَهارةً : ستحرق قلبي      وربّي عظيم ، عليم بما بي ؟

فانتفضت كاللديغ ، فما ينبغي لي أن أتفوّه بمثل هذا الحجر من القول ، ورأيتني أكتب

قصيدة أبدأ فيها :

أعوذ بربك أن أستبيح      فؤادكِ يامن سكنتِ بقلبي

ويعلم ربي بأنك حبي وأنتك ورد يفوح بدري

واعذرت إليها ، لكن طالبتها أن تُحمل في الخصام ، وترعى باللطف سويغات القرب ،  
وتجعل بيتنا رياضاً ، وتترك العبوس والتقطيب ، وأن تلتزم حقي عليها ، ... وقد وعدتُ قدر  
استطاعتها ، فعادت المياه إلى مجاريها.

حملتنا طائرة للخطوط الملكية الأردنية إلى عمّان فتوقّفنا في مطارها ستّ ساعات ، ثم  
حملتنا أخرى ، فمرّت بنا فوق دمشق ، فازداد وجيب القلب حبا وفرقاً ، أما الحب فلأنها  
البلد الذي حرمننا الظلمة منه ، فلا نستطيع الوصول إليه ، وأما الفرقُ فلأمر قد يضطر الطائرة  
أن تنزل في دمشق ، فأصير في خبر كان ويكون ... لقد غُيّب عشرات الآلاف من الرجال  
كانوا ملء العين والبصر في غياهب السجون والمعتقلات ، لا بواكي لهم ..... وقد أحسن  
مَن قال عن النظام القمعيّ الذي يحكم سورية بالنار والحديد:

لو أنك يوماً زرتَ سجون

لعلمت بأن الموت حنون

سجن في شرق بلادي

سجن في غرب بلادي

سجن هي كل بلادي

سجن ، سجّان وعيون

فإذا ما صارت الطائرة فوق لبنان بدأ الحُفّاقان يعدو إلى وتيرته ، ليس لأن بيروت أكثر  
أماناً من دمشق فالمخابرات السورية تحكم لبنان ومن يحكم لبنان ، إنما ستكون بعد قليل فوق  
البحر . ولأن يغرق المرء في لججه خير من أن يقع بين أيدي وحوش شيطانية تشرب الدماء

وتذيق الحر الألم ألوانا، فهو يموت كل يوم مئات الموتات ، ويتمنى الموت الحقيقي فلا يراه .  
... ثم تمر فوق جزيرة قبرص التي حكمها المسلمون من لدن معاوية رضي الله عنه إلى نهاية  
عصر العثمانيين، وهي الآن يحكمها غيرهم ، وصاروا شرادم متفرقين يقودهم غيرهم كما تُقاد  
السائمة .

كم صرّفنا يدُ كنا نصرّفها      وبات يحكمنا شعب ملكناه

وتمر بعد ذلك بقليل على جزر صغيرة وكبيرة منثورة في المياه الزرقاء دون نظام ، فتدري  
أنك فوق اليونان وأرخبيله ، وتتزايد الأرض الخضراء كلما أمعت الطائرة في الشمال الغربي،  
ولا تمضي ساعة حتى ترى نفسك تطل على البلقان ، ومن ثمّ البحر الأدرياتيكي بين البوسنة  
وإيطاليا الشمالية، فتتجه إلى سويسرا ثم هولاندا لتكون بعد خمس ساعات من بدء الرحلة  
فوق مطار لندن . ما أكثر الأنهار والبحيرات ، وما أجمل جبال الألب ، وأبهج المناظر الرائعة  
التي تنسيك -مؤقتاً- صفرة الصحراء وجفاف الأرض الجرداء في بلاد العرب .

وصلنا مطار " هيثرو " - أكبر مطارات لندن . عصرًا ، ويسألني موظف الجوازات عدة  
أسئلة فهمت بعضها ولم أفهم بعضها الآخر ، فتخلص منا إذ ختم على جوازي سفرنا ،  
وتجاوزنا الصالة إلى حيث الحقائب بسهولة ويسر ، ... وما أحلى لقاء أختي بعد اثني عشر  
عاماً من الفراق !، لقد عرفتها سريعا بين المستقبلين ، وهل ينسى أحدنا قطعة منه وجزءاً من  
حياته ؟! فقد كانت نهاية عنقود الوالدين رحمهما الله تعالى ودلّوعة أهلها ، .. وكان عناق  
أخوي بث كل منا الآخر ماحوته الأضلع وحنايا الفؤاد من شوق وحب ، .. كنت عيناها  
مغرورقتين بالدموع ، إلا أنهما تشعان بالفرحة إذ رأت أحاها... واكتحلت عيناه بها - أيضاً .  
بعد زمن طويل ، بعد اثني عشر عاما !! قد تقول أخي القارئ هذا زمن طويل فعلاً .

ولكنك ستعجب أكثر حين تعلم أنني رأيت أخي " برهان " في التاسع من أيلول لهذا العام ، قبل أسبوع واحد من كتابة هذه المقالة.. رأيتَه بعد ستة وعشرين عاماً... أتصدّق؟؟ بعد ستة وعشرين عاماً... فقد غادرت إلى الجزائر في أيلول عام ثمانية وسبعين وتسع مئة وألف ، ودخل برهان سجون الظلمة عام ثمانين وتسع مئة وألف ، وخرج منها بعد ثمانية عشر عاماً ، اعتقل وهو في الثانية والعشرين من عمره - طالبا في كلية العلوم في حلب - وخرج في الأربعين كهلاً ينخر المرض جسمه ، لكن روحه ونفسه وأمله بالله يتعاظم ويقوى !! قضى زهرة شبابه في سجون الظالمين، ولم يسمح له بالخروج من سورية إلا بعد ست سنوات .. ليكتمل الفراق بيننا ستة وعشرين عاماً! .. ستة وعشرين عاماً بالتمام والكمال ..... لك الله أيها الأخ الحبيب ، وعوضك الجنة ، وجعل ثوابك ثواب أهل بدر ، بل أنت والله أكثر صبراً على البلاء منهم ، فقد نالك الضر والأذى عمرا مديدا بين أيدي وحشية لا تعرف إنسانية ، ولا ترقب في مؤمن إلا ولا ذمة.

زارنا في مدينة الزرقاء الأردنية عام واحد وثمانين الأخ الفاضل " أبو رامز " الحمصي ، يرافقه شاب لطيف من حمص كذلك ، فهما حمصيان ، والجمع " حمامصة " لا حمامنة .. قال أعرفك على الأخ " وليد " يبحث عن نصفه الآخر ، ولعله عندكم . قلت على الراحب والسعة .. و تحمصنت أختي أو تحمصتْ ، ولم يتحلّب زوجها ، مع أنه يكنى " أبا حسن " إلا أن أخلاقه - حقيقة - سهلة هينة لطيفة ، فهو اسم على مسمى ولا نزكي على الله أحدا ، اللهم حسن أخلاقنا وسهلها . وحمدت الله تعالى أن تحقق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض " كانت لندن كما قيل لنا حارة هذا الصيف على غير ما عرفه ساكنوها منذ ثلاثين سنة .

قال أبو حسن بظرفه المعهود : لقد جلبت معك حرّ الإمارات .... لم تمطر السماء طوال الفترة التي قضيناها . إلا أن الجو كان لطيفا عند الصباح وبعد العصر . فكثيرا ما ركبنا ال " underground " قطارات الأنفاق الممتدة كالأخطبوط في أسفل المدينة تحمل مئات الألوف في كل آن ، لتحملنا من " بيرنت أوك " شمال غرب لندن حيث نقيم في حي نظيف مرتب يصله ببقية المدينة خط القطار الأسود المتشابك مع اثني عشر خطاً كأنها الأوردة والشرايين المتشعبة الممتدة في الجسم ، فتزده المدينة بنسج الحياة .

كنا نزور المركز الإسلامي في وسط لندن الغربي، حيث يعمل صهري مشرفاً على الشؤون التعليمية فيه . . . مدير المركز سعودي . فالسعودية تصرف على المركز ، أما الأئمة فمن مصر، وكانوا أربعة يتعاونون الإمامة والخطابة .. المسجد قائم على زاوية يلتقي فيها شارع عريض بآخر أضيق منه ، محرابه يتسع لأكثر من ألف وخمس مئة مصلي ، وكذلك الدور السفلي ، وفيه مطعم ، وقد يقام فيه معارض للكتب ومحاضرات ، وتجهز فيه مئات الوجبات الطازجة لإفطارات رمضان ، أو للغداء بعد صلاة الجمعة لمن بيوتهم بعيدة ويرغبون في قضاء اليوم في المسجد . وهناك مكتبة فخمة في الطابق الثاني الشرقي فوق المسجد فيها كتب قيمة ، واماكن مريحة لمن يرتادها ، وفي زاوية منها مكتبة صوتية تحوي الخطب والمحاضرات للعشرات من علماء العالم الإسلامي باللغة العربية والإنجليزية . وأشرطة النشيد الإسلامي . وتصور أن صلاة عيد الفطر أقيمت خمس مرات ، كل ثلاثة أرباع الساعة يدخل مصلون فيمتلئ المسجد عن بكرة أبيه في الأعلى والأسفل والمكتبة فتقام الصلاة ثم يخطب الخطيب ، كل ذلك في نصف ساعة ويخرجون ليحتل مكانهم مصلون آخرون... في كل مرة أكثر من خمسة آلاف مصلي . والشرطة تنظم الانتقال في الشوارع المحيطة بالمسجد .

يقع إلى الشرق من المسجد حديقة واسعة " ريجنتس بارك Regents Park " فيها بركة مرتبة كبيرة يكثر فيها البط والإوز ، مجهزة بقوارب للكبار والأطفال . أشجارها ظليلة متنوعة الأحجام والأصناف ، يرتادها الناس من كل حدب وصوب ... كنت وزوجتي وأختي وأسرتها نأتيها كثيرا بين أوقات الصلاة . وأشعر وأنا أكتب عنها بالشوق إليها ، فقد كنا نأنس إليها ونجعلها محطّ راحتنا حين نجول في لندن.

أما " Edgware Road " فقد كان يمتلئ بالعرب حتى سمي " شارع العرب " يعرض أصحابه سلعهم باللغة العربية ، وتقدم مطاعمه الوجبات الشامية والمصرية والمغربية والخليجية ، وتبقى أبواب محلاته مشرعة إلى ما بعد منتصف الليل ، الأنوار ساطعة ، والعرب يملؤون الطرقات ، و " الأركيلة " توزع على من يطلبها ، والأسعار نار تحرق أمثالي، فلا أشتري من محلات هذا الشارع شيئا ، لكن الخليجيين والسعوديين لا يأبهون ، إنما يدفعون كما يقول المثل: مال المجانين يذهب في البلايع .... اشترت أم حسان حقيبة نسائية في مدينة " هايستنجس " على ساحل بحر المانش بأقل من خمسة جنيهات ، ورأت واحدة مثلها في معرض إحدى المحلات في " أجواررود " كتب عليها اثنان وأربعون جنيها ، ثم شُطب على الرقم وكتب أربعة وعشرون . ورأت الخليجيات يتهامن عليهما ويتجهن لشرائها ، فأخبرتهن بالثمن الحقيقي لها ، فأبين التصديق ، واشترين جميعا بالسعر المعروض " sale " أو " أوكازيون " ... قلت لها: دعيهن يا امرأة ينتشين بدفع أموالهن التي لم يتعبن في جمعها كما يرغبن لمن يستحق ومن لا يستحق ، ولا تبذلي نصيحتك لمن يأبأها ، أما الشقق في هذا الشارع فحدث عن أجرتها المرتفعة ولا حرج ..... فإذا انتهت أيام الصيف وعاد المصطافون إلى ديارهم عاد الشارع إلى إغلاق محلاته قبيل غروب الشمس كما هي العادة في لندن طيلة



أيام السنة .. .

في بلادنا يمر بائع أسطوانات الغاز بسيارته أكثر من عشرين مرة يوميا وفي أوقات مختلفة من بزوغ الشمس إلى غروبها ، وموسيقاه التي يعلن بها عن بضاعته تهرز أركان السرير ، يساعده بائع الفاكهة والخضار الذي يعلن - كذلك - عما يحمل منها بتعداد أنواعها في شريط مسجل ، يسردها بشكل متسلسل وصوت يملأ الحى ... ويغسل الولد سيارة أبيه عند القيلولة فيفتح أبواب السيارة ، ويستمتع بأغنية تلعلع ، فيسمع القاصي والداني .. ويسمع أحدهم أو إحدهنّ المذيع فيرى أغنية تعجبه ، فيتصدّق على جيرانه ! إذ يفتح نافذة بيته و يضع الراديو على حافّتها ، ويرفع الصوت !!... ويقيم أحد الجيران حفلة زفاف نجله في سرادق يقطع به الطريق فيضطر جاره للرف والدوران بسيارته مسافة ليصل إلى بيته عن طريق رأس الرجاء الصالح بعد أن يرى قناة السويس مغلقة ! ويرتفع صوت الغناء ليدخل في كل ثقب إلى بيتك فلا يكاد - بعد إغلاق الأبواب - أن يسمع أهل البيت حديثهم ، فالغناء والموسيقا لا تدع مجالا إلى أن ينفض السامر .... ويكون الاعتذار : يا جارنا ليلة وعدت... ساحنا ...!! أما في لندن وغيرها من المدن الغربية فلا تجد مثل هذا التخلف ... جلست في حديقة المنزل عصر أحد الأيام ، وجارنا في حديقة بيته يرقص ورفاقه على أنعام صادرة من مسجل ... المسافة بيننا لا تزيد عن عشرين مترا ، ولم أكن أسمع شيئا ! وقبل غروب الشمس دخلوا البيت وتابعوا حفلتهم . قالت أختي حين سألتها عن السبب : القانون يعاقبهم إن استمرت حفلتهم في الحديقة بعد الغروب .... وفي أمريكا - نيو جيرسي - كان جاري السفلي يرفع صوت ال " ستيريو " فذكرت ذلك للمكتب المشرف على الشقق المؤجرة ، فأرسل على التوّ إليه رسالة تنبيه .... ونسيت الأمر ، فإذا الجار المسكين في آخر الشهر يرحل عن شقته . ...

سألت المشرف عن سبب رحيله فقال : تابعتة أكثر من مرة في خفض صوت المسجل فلم يستجب فطلبت إليه أن يرحل . وخجلت من نفسي إذ كنت سبب رحيله ، ولم أكن أقصد ذلك.

كان " شارع أوكسفورد Oxford Street " من أكثر الشوارع ازدحاماً ، على الرغم أنه عريض ذو اتجاهين ، في كل اتجاه تسير حافلتان معاً ، أما الرصيفان المتقابلان فقد يصل عرض أحدهما إلى ثمانية أمتار أو أكثر ، لكنهما ممتلئان في كل أوقات النهار . وعلى الجانبين الأبنية عالية أحيانا ، وأحيانا لا يتجاوز ارتفاعها عشرة الأمتار . محلات تجارية ضخمة ، وأسواق كبيرة ، ومصوغات وحليّ ومحلات يتوه الداخل إليها ، ويحار المرء أي شئ يشتريه - طبعاً لم نكن من الحائرين - .. وعلى مقربة من هذا الشارع الكبير الفخم شارع آخر مواز له تقريباً رأينا السائحين يتقاطرون إلى بناء على زاوية منه ، دنونا منه فإذا هو " متحف الشمع " الشهير . دخلناه مع الناس ، فإذا تماثيل تكاد تكون ناطقة لزعماء العالم في العصر الحديث، فهذا ريجان رئيس الولايات الأمريكية السابق ، هذه إليزابيث ملكة الإنجليز وهذه تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا الحديدية ، وهذا ديغول رئيس فرنسا الراحل ، وهنا هتلر وموسوليني وهناك ستالين ولينين وخروشوف..... وفي زاوية الرئيس صدام حسين والأسد - على ما أظن - والملك حسين ، والملك الحسن ، والمصروع القذافي ، وتمثال لأحمد زكي اليماني وزير البترول الأسبق السعودي ... بأحجامهم الحقيقية ، وتقاطع وجوههم الواضحة ... تقف أمامهم ينظرون إليك وتنظر إليهم ، فتكاد تكلمهم ويكلمونك ، وتشتتم بعضهم أو كلهم ويشتمونك ، وغيرك يلتقط صورة لنفسه وصاحبه مع أحدهم فيوهم الآخرين أنه التقى بهم وزارهم في عقر دارهم . وتقول نعم والله إنهم دمي من شموع ليس أكثر ، صنعوا ليكونوا

ال"كراكوز" الذي يحكم به الغرب بلادنا ، ويسلب خيراتنا ويمتص دماءنا .

ونمر عائدين إلى البيت أمام قصر بكنجهام Buckingham Palace ، حيث تطل الملكة وزوجها وأمرء القصر الفينة بعد الأخرى على الجموع المحتشدة لرؤيتهم وإلقاء التحية عليهم من قريب. فيضج الزائرون بالهتاف لهم ، وليس هناك سوى حفنة من الحراس يلبسون الثياب العسكرية المزركشة ، فيضيفون على المنظر فولوكلورا قديما يلون الجو ، ويجمل الأداء . . . ولن يجرو حاكم عربي أن يطل على رعيته آمنا مطمئنا ، ولئن أطل فمن وراء حجب كثيفة محاطا بالأسلحة الكثيفة من دبابات ومصفحات ، وسيارات مؤللة ، وحرس بعدد حصا الأرض . . . رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يتوسد درّته تحت ظل شجرة فيقول له رسول كسرى حين رآه فعرفه : عدلت فأمنت فنمت فهنئنا لك يا عمر ... وأخذها الشاعر حافظ إبراهيم رحمه الله تعالى فقال:

وراعٍ صاحب كسرى أن رأى عمرا بين الرعية عطلاً وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس أن لها سورا من الجند والأحراس يحميها

رآه مستغرقاً في نومه فرأى فيه الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ببرة كاد طول العهد يُبليها

فقال قولة حقٌ أصبحت مثلاً وأصبح الجليل بعد الجليل يرويها

أمنتَ لِمَا أقمتَ العدلَ بينهمُ فنمتَ فيهم قير العين هانيها

ونسَمعَ بميدان الطرف الأغر " Trafalgar Square" واسمه مأخوذ من معركة

الطرف الأغر البحرية التي انتصر فيها الأسطول الإنجليزي بقيادة نيلسون على الأسطول

الفرنسي قرب الإسكندرية على ساحل الطرف الأغر عام ١٨٠٥ للميلاد ، فنزوره لنرى الميدان

ساحة كبيرة تتوسطها برك ذات نسق جميل وتصاوير رائعة ... هناك يجتمع اللندنيون يحتفلون برأس السنة أو الأعياد الوطنية والدينية ، ويقصدها العشاق والمحبون .فجلس على حافة إحدى البرك ينتشر فوقنا رذاذ النوافير المنعش ، ثم ننتحي جانبا على أحد المقاعد إلى أن يحين وقت الغروب فنستقل القطار تحت الأرض إلى المسجد الكبير فترى الشيخ عبد الفتاح أبا غدة رحمه الله تعالى ، والأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي أطال الله عمره قادمين لحضور حفل تكريم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله الذي فاز بجائزة سلطان بروناري لعام أربعة وتسعين لأفضل من خدم الحديث الشريف دراسة وبحثاً وتأليفاً ..... نسلم عليهما فيردان السلام على المصلين بوجه باسم ونفس راضية .

ونتمشى على ضفة نهر التايمز العريض فنقطع الجسور الواصلة بين طرفيه ، وهي ذات أحجام متبينة وبناء مختلف ، لنقف أمام ساعة " بيج بن " الشهيرة المطلة على مبنى البرلمان البريطاني القديم الذي ينتصب أمامه تمثال الملك ريتشارد قلب الأسد ، الذي كانت له مع صلاح الدين الايوبي مواقف اعترف فيها بسمو أخلاق الملك المسلم، محرر القدس وطارده الصليبيين.

لقد قالوا قديما : ليس من رأى كمن سمع . فكثيرا ما كنا ندخل حديقة " هايد بارك " الشهيرة، الممتدة على أرض خضراء فيها أنواع الأشجار المعمّرة ، يخترقها النهر، وتنتشر فيها الملاعب، فتسمع في زاويتها الشهيرة بعض الخطباء السياسيين ينتقدون بعض التصرفات السياسية في البلاد ، ويجتمع حولهم المهتمون والسامعون من العابرين غير القاصدين ، وما من محابرات تعقلهم ولا رجال أمن يضربونهم ويسبونهم ، ولا شرطة تقتادهم إلى فنادق الدرجة العاشرة تحت الصفر!! أقصد تحت الأرض السابعة أو العاشرة ! .. ألا ترى معي أيها القارئ

الكريم أن جهاز الأمن في بلاد الغرب يحتاج إلى دورات كثيرة متشعبة على أيدي رجال أمننا الأشاوس في البلاد العربية كي يكونوا قادرين على حفظ الأمن والأمان ؟!!!

يراهن الغرب على أولادنا ، فقد أفاد أحد رجال الدين النصارى حين سئل عن سبب قبول لجوء عشرات الآلاف من الإسلاميين إلى أوروبا : هؤلاء الذين جاءوا إلينا فراراً بدينهم وحياتهم من البلاد الإسلامية نقبلهم لا حبا بهم ، فهم أصحاب فكر وعقيدة ، لا يمكن أن يتخلوا عنها ، لكن أولادهم سيكونون لنا ..... وسننصرهم عاجلاً أو آجلاً! ، وإن لم يصبحوا منا في الجيل الثاني فلا بد أن يكونوا كما نريد في الجيل الثالث . وهذا خطير جداً إن لم نتدارك الأمر ، فنربي أبناءنا على الدين نتابعهم في تطبيقه. ... كل الجاليات تتكلم في بيوتها لغتها وتعتر بذلك . فما بال العرب والمسلمين يتخلون عن لغتهم حين تطأ أقدامهم بلاد الغرب؟! لأن الانهزام غزا القلوب والعقول فانهارت الخطوط الدفاعية الهشة من أول لقاء مع الحضارة المادية؟ أم لأن إحساسنا بديننا ضعف - وهو الحصن الحصين للغتنا - فلم يتحمل جولة واحدة ، فتخلينا عن كل ما يمت إلى أصلنا، ديناً ولغة وماضياً؟ إن الأمر أخطر مما نتصور ، وقد رأيت في هذه الغربية أعداداً ممن انصهروا سريعاً في المجتمعات الجديدة ، وتنكروا لكل ما يمت بصلة إلى الماضي . ووجدت كثيراً ممن ازدادت صلتهم بدينهم ولغتهم وحضارتهم ، فترى الأبوين في البيت لا يكلمان اولادهما إلا العربية ، ويعقدان لهم حلقات شبه يومية في قراءة القرآن وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ودراسة الحديث الشريف ، ، ويرسلونهم إلى البلاد العربية ليصلوهم ببلدهم وعاداتهم وتقاليدهم . ... ومنهم من لا يستطيع ذلك فيعتمدون على القادرين من إخوانهم وأصدقائهم في تحقيق ذلك الهدف العزيز ، وعلى المراكز الإسلامية في ديار الغربية . وقد وجدت في زيارتي المتكررة إلى أوروبا وأمريكا من أبناء

إخواننا ما يثلج الصدر ويفرح الفؤاد . ورأيت كذلك ما يدمي القلوب ويمزق الشرايين ويحرق الأعصاب .... والويل كل الويل لمن هرب بدينه من الأنظمة العربية الجائرة ليسلم نفسه وفلذات كبده للكفر والردة ، فيضيّع دنياه ويخسر آخرته .



## بريطانيا ( ٢ )

فتحت المدارس أبوابها ، لكنني للمرة الأولى لم أكن فيها ، بل كنت بعيدا عنها آلاف الكيلومترات . قضيت في ثانوية دبي ثلاث عشرة سنة ، ورأيت نفسي في سن الحادية والخمسين متقاعداً ، فقد أنهى عملي في الإمارات في غاية حزين من عام ثمانية وتسعين وتسع مئة وألف ، وطلب إلي أن أغادر على جناح السرعة ! .. فقد رأوا فيّ مدرسا غير مرغوب فيه ! أحشر الإسلام في الدروس والمحاضرات ، وأقارن بين ما نحن عليه من تبعية للغرب وهوان - في قصعة يتجاذبها وحوش الغرب - وبين حال المسلمين حين كانوا ملوك الارض وسادتها إذ القرآن بأيديهم ، والإيمان في قلوبهم .

كنت في عمان أرتب دارنا التي اشتريناها قبل سنتين تحسباً لإخراجنا من الإمارات وتذكرت قول الله تعالى في الكفار من قوم شعيب : " لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودنّ في ملتنا ... " فقلت مثل ما قاله الرسول القدوة صلى الله عليه وسلم إذ أخرجته قومه : والله يا دبي: لأنت من أحب أرض الله إليّ، ولولا أن المفسدين فيك أخرجوني ما خرجت .

فالإمارات بلادي حُبها فرض عليّا

حبها في القلب يسري دافقاً حلواً ، طريّا

عشت فيها خير أيا مي شباباً ، حيويّا

نلت فيها الأُنس والأمن ، وقد كان ، عصيّا

نلت فيها الراحة الكبرى ، وقد عشت هنّيّا

كانت الحياة رتيبة ، جديدة ذات طعم آخر ، فيها الهدوء والتفكر المتمعن في الحياة

الفانية والتشوف إلى ما عند الله سبحانه وتعالى ، فكان كتابه العظيم رفيقي على مدي ثلاثة أشهر ، استنبطت منه كتابي " صور من التربية في القرآن الكريم " وكتبت خلاصة ما جاشت به نفسي في حب لهذا الكتاب العظيم:

دار الزمان كدورته      وسما الفؤاد بفكرته

والنفس بالإيمان حقاً قد روث من دفتته

يا من سعدت بآيه      وبعده في شرعته

الحق فيه على الدوا      م فلا تزل في نصرته

وفي الخامس عشر من ديسمبر " كانون الأول من السنة نفسها حين اشتريت بطاقة المغادرة على الخطوط البريطانية المتجهة إلى بلادها ، وأكدت على مكتب البيع أن تكون الرحلة مباشرة إلى لندن ، فطمأنني إلى ذلك ... ودخلت الطائر الميمون !! ولم يكن من عادتي أن انتبه إلى الكابتن وهو يرحب بالمسافرين على متن الطائرة .. لكنني إذ ذاك - بقدر من الله سبحانه - ربطت حزام الأمان وأنا أستمع إلى ما يقول ... فإذا بالطائرة متجهة إلى دمشق أولاً لتحمل ركاباً منها ، ثم تنطلق إلى مطار " هيثرو " ولكن دون أن أكون معهم !! لأنني حينئذ أحل ضيفاً ثميناً على زنازين النظام العطوف الرؤوف بمواطنيه المنكوبين به .. رأيت نفسي قد حللت الحزام وحمّلت حقيبة سفري الصغيرة ، وأسرعت إلى باب الطائرة قبل أن تتحرك فأدلف كالسهم إلى خارجها ، فأحمد الله تعالى على أنني ولدت من جديد ، والناس بين متعجب مما فعلت ، وآخرين لم يشعروا بما حدث ، فالأمر لم يتعدّ الثواني ... وتأخر انطلاق الطائرة عشر دقائق كي يخرجوا حقيقتي الكبيرة من بطنها مقطوعة اليد ، ممزقة الجيب. يبدو عليها الإنهاك كما كان يبدو على صاحبها.



حمدت الله سبحانه وتعالى أن نجاني من القوم الظالمين ، وهنأني على السلامة من استغرب من تصرفي في بداية الأمر وعدت أدراجي إلى البيت لأقرر السفر ثانية على متن الملكية الأردنية الهاشمية ، فذلك أدعى للطمأنينة ، وأروح للنفس.

بعد ثلاثة أيام كنت في لندن عند أختي أم الحسن ... الجو قبل ثلاث سنوات في الصيف حين زرتها للمرة الأولى غيره في نهاية الخريف على أبواب الشتاء ، فالغيوم تملأ السماء جيئة وذهابا، ما إن تبدأ قطرات المطر بمباشرة الوجوه والرؤوس حتى تداهمك بقوة قبل أن تفتح المظلة، لكنني لم أجد البرد الشديد الذي كانوا يصفونه - حين يتحدثون عنه- يجتاح لندن ولا القر اذي يخدر الأنامل والأطراف.

وها أنا أكتب هذه الذكريات في رمضان ١٤٢٥ للهجرة ، في بيتي في عمان بعد صلاة تراويح اليوم الرابع من هذا الشهر الكريم ، وأظن أن المقال سينشر وأنا في ربوع إيطاليا - مدينة " بولونيا " التي سوف أطيّر إليها إن شاء الله تعالى بعد أيام قليلة .. أكتبها عن رمضان ١٤١٩ للهجرة الذي وافاني ولم يمض على وصولي لندن سوى أيام قليلة .. كنت وحدي حين زرت حديقة " ريجنتس بارك " فأم حسان ارتأت أن تنهي " الكورس الأول " مع طالباتها في كلية المجتمع الإسلامي في الزرقاء فهي وفية لعملها وحريصة على فائدتهن .... البطات يسبحن ، وأوراق الشجر المتساقطة على الأرض سابحة على أمواج الهواء توحى بقلة الزائرين ، وكثير منها استقر في قاع البركة الكبيرة فأكسب الماء حزنا مصفرا ولونا باهتا . والشمس فقدت حرارتها ، فكأنها مرآة باردة المنظر تعكس صورة أختها الغائبة في طرف الأرض الجنوبي من الكرة الأرضية....

كان الأولاد يذهبون إلى مدارسهم ، حسن يوصله أبوه ، والأخريان تحملهما الحافلة ،

أما " ربا " فمعاقة تذهب بها وتعود سيارة مجهزة بما يناسب أمثالها ، يعتني بها طاقم من الممرضات المتمرسات خدمة واهتماما، وقد خصص للفتاة إحدى الممرضات تمكث معها بعد عودتها من المدرسة في البيت ساعتين ثلاث مرات في الأسبوع تقوم بتنظيفها وإطعامها ومساعدتها بكتابة واجباتها.. تماما كما تفعل وزارات التربية والتعليم في بلادنا !! ولعلنا نسميها وزارات " التغبئة والتعليب " فلا تستحق أكثر من ذلك ، هذا إن أحسنا بها الظن . وتصور معي - أخي الحبيب - أن للتلميذ خمسة عشر جنيها استرلينيا كل أسبوع - من خزانة الدولة طبعاً - فهو إنسان ينبغي أن يشعر منذ الصغر بكرامته وقدرته على مجاراة رفاقه الموسرين ، وأن وليّ المعاق ينال خمسة وثلاثين جنيها كل أسبوع لخدمته ولده ، فهذا الولد سيكون أحد بناء مستقبل الأمة ، وفيه الخير شابا ما اعتُني به صغيرا !! أليس هذا سببا في رقيهم وتقدمهم ؟ ومعلما حضاريا بارزا يدل على التخطيط السليم لأمة تريد أن تعيش رحم الله الشيخ محمد عبده القائل عن الغرب: رأيت هناك إسلاما ولم أر مسلمين ، وفي بلادنا مسلمون ولا إسلام!

كانت خطبتي للجمعة الأولى في " دار الرعاية الإسلامية " عن الأخوة الإسلامية وتنميتها في رمضان ، ولأنني غير متمكن من الإنجليزية فقد أنهيت الموضوع في الخطبة الأولى وجلست ، وكان مرافقي قد كتب رؤوس أقلام أملتيتها عليه قبل الخطبة ، ثم زاد عليها مما سمع مني وأعاد موضوعها بأسلوبه الإنجليزي في الخطبة الثانية ، وحين أنهى ترجمته كان الدعاء ثم الصلاة ... فكان مما انتقده بعض ذوي الأفق الضيق أنه أنقص أمورا - هي في الحقيقة من باب التوضيح ، لا من صلب الحديث - كنت قد استشهدت بها فلم ير لزاما أن يذكرها ، ولعل الناقد أراد إظهار عبقريته باللغة الأجنبية فلم ير أنسب من هذه الطريقة ... فأمسك المترجم نفسه - على الرغم من تناول الناقد عليه - وابتسمت له مشجعا على ضبط

النفس، فمخالطة الناس يحتاج إلى تحمل أذاهم ومداراتهم ، وسعة الصدر ، ليصل الداعية بعد ذلك بجهد مستمر متواصل إلى غرس الدعوة في نفوس المدعوين على تعدد مشاربهم وتفاوت أخلاقهم ، وتذكرنا قول النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " ولن تكون دعوة دون اضطراب وتحمل للأذى . وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فيها الكثير الكثير من صور الحلم والأناة والصفح والمغفرة. فقد مدحه الله تعالى بذلك فقال: " وإنك لعلى خلق عظيم ". ونبه سبحانه إلى أن اللين والرفق خير سبيل إلى قلوب الناس فقال : " فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ... " والرسول الكريم نفسه يقول : إن الله رقيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه.

الحياة في بلاد الغرب مادية شديدة القسوة ، ولا يعني هذا التعميم، فلا بد من النفحات العاطفية ودفء الحنان فالإنسان بطبعه وفطرته ذو دفق شعوري خلاق ، فإذا طغت المادة على حياته فقد كثيرا من هذا الدفق تحت ركامها ، ولعل صدمة شعورية سريعة تعيد له - قليلا أو كثيرا - هذا الشعور ، لكنه يظل مبتورا ناقصا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ... حدثنا الأخ " الأفندي مالك " أنه كان يمشي مع زميل له في العمل " بريطاني " من لندن في oxford street شارع أوكسفورد العريق متجهين إلى عملهما مسرعين ، فرجع صاحبه يده وهو ينظر للرصيف الآخر من الشارع يصيح مبتسما وملوحا HI HI : ثم قال : أنا سعيد اليوم يا مالك ، فقد رأيت أبي وسلمت عليه ،

قال مالك : أمر عادي أن يسلم الإنسان على والديه ويحييها.

قال : كيف يكون الامر عاديا وأنا لم أراه منذ ستة أشهر!؟

قال مالك :أمن المعقول أن تغيب عن والدك مدة طويلة ثم حين تراه تكتفي بالسلام

عليه من بعيد؟!؟

قال: هذا هو الواقع.

قال مالك :لعله كان مسافرا ثم عاد فعلمت بعودته الآن؟

قال : لا إنه لم يسافر ، ولم أدر إن كان سافر فعلا.

قال مالك : لعله يسكن في مدينة أخرى بعيدة ؟

قال : لا ، إن الوالد يسكن في حي قريب من حيننا.

قال مالك: ولعلك اكتفيت بالسلام المقتضب!؟ أم تراك عزمت على زيارته؟

قال: قد أزوره، ولكن المواعيد والأعمال – كما تعلم – لا تدع مجالا لمثل هذا التواصل.

وحدثه مالك بما للوالدين من مكانة في الإسلام ، ووجوب بر الوالدين ما كانا على

قيد الحياة وبعد مماتهما ، والثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لبر الوالدين ، وركز على قوله

تعالى " عندك " في قوله سبحانه : " إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما " فكما ربيك

أيها الإنسان في بيتهما يرعيانك ويحنوان عليك وجب أن ترد لهما بعض الفضل بالمثل ،

فترعاهما " عندك " ما استطعت إلى ذلك سبيلا .... كان ذلك الأوربي يتعجب من العلاقة

المتأصلة المتماسكة بين الأصل والفرع ، بين الوالدين وأبنائهما...

دعيت إلى المدينة الساحلية " بورموث " على بحر المانش في يوم الجمعة الثاني من

وصولي، فكنا في المحطة الكبيرة القريبة من الجامع السعودي المصري الكبير في التاسعة صباحا،

كان رفيقي صهري أبو الحسن – حفظه الله – فحملنا القطار إلى مبتغانا في أقل من ساعتين

على ما أذكر ، كان القطار يتهادى كالعروس النائية بين صويجباتها بسرعة الحبيب المشوق إلى حبيبه ، يمر على المدن الصغيرة والدساكر المتناثرة على كلا الجانبين - ولعله توقف مرتين أو ثلاثا وقفات قصيرة - يمر فوق جسر أو تحت قنطرة أو على صفحة نهر أو بطن تل أو طرف بحيرة اصطناعية ، ما كنا نملك سوى الإعجاب بما نطل عليه من نافذة مقصورتنا، نسبح الخالق مبدع الجمال ... النهار أكثره مشرق يتخلله قطرات تتناوب على زجاج النافذة ، فتستقر عليه هنيهة ثم تذوب بفعل الاحتكاك بالهواء الذي يصفح النافذة ... القطار يكاد يكون فارغا من الركاب في هذا الوقت من النهار ، أبو الحسن بين إعفاءة سريعة ومطالعة الجريدة اليومية ، وأنا أسبح في ملكوت الله في حلم اليقظة حيناً ، وبما يحيط بنا حيناً آخر.

المدينة صغيرة على ما يبدو ، إلا أنها قائمة على تل منحدر إلى الغرب ، والمسجد الصغير قائم على مرتفع يطل على الانحدار ، يتألف من طابقين ، قسمه الأول للإدارة والاستقبال والمطعم ومطبخه - الذي ينقلب - المطعم بكل تأكيد - إلى قاعة للمحاضرة - والقسم الثاني للصلاة ، أما المنبر فطاولة بدرجتين رقيقتين .... استقبلنا الأخ الكريم " أبو أنس الحموي " رئيس إدارته بوجهه البشوش ، وبسمته الهادئة ، فغسل عنا التعب وجلا عن عيوننا النعاس ، فقد استيقظنا عند السحور ولما نم.

قبل الصلاة بساعتين تقريبا بدأت المحاضرة ، إذ كان بانتظارنا بعض المصلين ثم بدأوا يتقاطرون .... بعد انتهاء المحاضرة بدقائق بدأت صلاة الجمعة في الواحدة والنصف . وما إن انتهينا من صلاة الجمعة وظل الناس في أماكنهم يقرؤون القرآن ويذكرون الله تعالى دقائق قليلة حتى أُذُن لصلاة العصر ، وبعد أدائها ذهب من ذهب وبقي جمهرة الناس لنبدأ محاضرة أخرى انتهت قبيل المغرب ... كان اليوم الشتوي البريطاني قصيرا في " بورموث " وكان - كذلك -

مباركا . أما الإفطار الجماعي فكان شهيا لسبيين ، الأول أنه مع مجموعة كبيرة متجانسة وأعرف كثيرا منهم ، والثاني أنه جاء بعد إرهاق وتعب وجوع .... صلينا العشاء فقط، دون التزاويح . وأسرعنا بالعودة بعد أن كان وعد بالعودة إن يسر الله تعالى .

في كل مكان تجد من يحاول أن يعكر عليك المزاج ، فيعيد طرح أسئلته المملة على كل زائر ومحاضر : لم لا نحافظ على لباسنا الإسلامي في غربتنا؟ هل تجوز الصلاة دون ستر الرأس؟ ألا تنصح المصلين بالخروج من دار الكفر والعودة إلى دار الإسلام ؟ ... أسئلة لا يفتأ يكررها بعضهم دون كلال ، وهم يعرفون الجواب سلفا . وينبهنا القائمون على المساجد إلى أمثال هؤلاء فنقول لهم : جزاكم الله : لقد مر علينا في تطوافنا على المراكز الإسلامية الكثير من أمثال هؤلاء ، واعتدنا على مقولاتهم ، ولا بد من الصبر والحلم ، وسعة الصدر ، فهم إخواننا وأحبابنا ، ولعل الله يهدينا وإياهم إلى الخير والهدى .

في زيارتنا لمدينة " هيستنكس " على بحر المانش أيضا ولكن إلى الغرب من بورموث استقبلنا بعض الإخوة من ليبيا والمغرب ومصر وسورية ، وكانت الترجمة لخطبتي من إبداع الأخ السوري " الحبازة حسن " الذي كان يعمل مدرسا للكمبيوتر في مدرسة للجيش الإماراتي ، كانت سجننا كبيرا لأشقياء المدينة ، فاشتره الشيخ محمد بن زايد رئيس أركان جيش الإمارات ليكون مدرسة لصف ضباطه يتعلمون فيه أفانين القتال على أيد المدربين الإنجليز في دورات منتظمة . وبقيت هناك بعد أن لحقت بي زوجتي أسبوعا نزلت فيه ضيفا على أحد الدارسين الإماراتيين الذي كان يسكن لحسن ظني في بيت ملاصق للمسجد ، وكان يقضي إجازته في دبي إذ ذاك ... مدينة عادية فيها مرافق المدن الكبيرة ، وهذا دأب كل مدن الغرب تقريبا ، فيشعر أهل المدن الصغيرة أنهم يتمتعون بحياتهم كما يتمتع غيرهم . وفي هذا المسجد حلقات

منتظمة في التجويد والفقہ والسيرة، وكان لي شرف ترتيب بعضها، والمشاركة في بعضها الآخر .  
بعض معوقات العمل الإسلامي تجدها في كل مكان يلتقي فيه المسلمون ، ولا أدري لم  
يحمل العرب خاصة والمسلمون عامة أمراضهم معهم إلى بلاد الغربية ، وظني أن عليهم أن  
يطرحوها وراءهم ويلموا شملهم ، ويكونوا يدا واحدة وفكرا واحدا بين غرباء عنهم في الدين  
والهدف والعادات ، فيثبتوا أنهم أصحاب مبدأ سام ، وإرادة قوية ، وغاية واحدة ، فيكونوا  
قدوة في النظام والأخوة والتربية وأنهم أهل لريادة البشرية يتألفون القلوب ويقودون القطعان  
الضالة إلى رحاب الإسلام الواسع ونوره المضيئ الهادي.

قد يتصدر أحدهم العمل الإسلامي حين يحل في بلدة فيها عدد قليل من المسلمين  
ويراهم متفرقين ليس فيهم من يقوم بخدومتهم وتوجيههم ، ويرى في نفسه القدرة على جمعهم  
فيبدأ مشكورا بحملة تجمعهم في مصلى أسبوعي أو شبه يومي ، فيؤمهم أو يستزير بعض طلبة  
العلم على فترات ، وينشئ مع بعض المتنورين هيئة أو جمعية ، فإذا كبرت الجمعية وبدأت تقف  
على قدميها - وكانت إمكاناته محدودة - ورأى ثمار العمل يحتاج الجهد المضاعف . وتكونت  
إدارة فيها شباب ذوو كفاءة عالية تفوق إمكاناته وبدأت - على حد زعمه - تفلت من يديه  
جعل يضيق على هؤلاء ويحاربهم دون أن يدري أنه بدأ يهدم ما قد بدأ يبناؤه ، ويصبح حجر  
عثرة في طريق تقدم هذه الهيئة ، ولعله يناصبهم العداة ويخذل عنهم !!... وقد ينزوي ويصاب  
بالكآبة حين يرى النمو والازدهار بعيدا عن وصايتة!! ولعل أمثال ما ذكرته ظاهرة تستحق  
الدراسة والعناية ... ذكرني بهذه الفكرة ما رأيته في " هيستنكس " عام خمسة وتسعين وتسع  
مئة وألف من أخ مصري كان من مؤسسي المسجد هناك فلما قدم داعية باكستاني فخطف  
الأبصار منه عن جدارة - فقد كان الباكستاني ملتزما فكرا وسلوكا- وكان لولبا بين افراد الجالية

المسلمة يقطر نشاطا وغيره ، أما الأخ الأول فالتزامه ونشاطه ضعيفان .

دعني لجنة إحدى مساجد " ليدز " في الشمال حين عرف الأخ الأفندي أنني أقرض الشعر إلى أمسية شعرية هناك ، فاشترينا بطاقتين ، وانتظرنا الباص الذي يحملنا إليها ، فلما جاءنا محملا بالركاب الذين استقلوه من محطة متقدمة ، ولم نجد كرسيين متجاورين ، ولم يرض أحد أن يتخلى عن مكانه ورأيت أن زوجتي ستركب إلى جانب ثقيل الظل سخييف التصرف فضّلنا النزول من الحافلة والعودة إلى البيت وخسارة البطاقتين على خسارة الراحة النفسية والدين ، ولو قيل عنا ما قيل . وليت القليل والقال كان من الإنجليز فقط لهان الأمر ، ولكنه بدر عن تحسب فيهم الخير ، وتظن أنهم من بني جلدتك ويحملون من المبادئ والعادات ما تحمل .





## آذريجان

نحن الآن في دبي - الإمارات العربية المتحدة - وفي ثانويتها الأولى ، التي حملت اسمها .  
أواخر عام أربعة وتسعين وتسع مئة وألف . يدخل زميلي وأخي الأستاذ طلال الدرويش -  
من لبنان - وهو أخ كريم لطيف المعشر ، حلو الكلام ، ذو ثقافة عالية وأخلاق كريمة قائلاً:  
لقد عرض عليّ الأستاذ يوسف شُرّاب -أبو سامي - أن أستفيد من شهادة  
الماجستير في دراسة الدكتوراه في " باكو " عاصمة آذريجان وهو الآن يحضّر لها في معهد  
الاستشراق وقد عاد منذ أيام ، بعد أن أدّى امتحانات في بعض المواد قبل البدء بكتابة الرسالة  
.- وكان الأستاذ شُرّاب يعمل مشرفاً تربوياً في الثانوية نفسها سنوات عدة أثبت فيها جدارة  
أهّلته لأن يكون موجهاً تربوياً ناجحاً في المنطقة التعليمية في دبي ، وهو من غزّة هاشم  
المعروف أهلها بالخشونة والرجولة والأخلاق البدوية التي تخفي في طياتها لطفاً محبباً إن عرف  
الآخرون التعامل معهم والدخول إلى نفوسهم ، إلا أن لطف الأستاذ يوسف كان ظاهراً .  
فالابتسامة لا تفارق محيّا ، بالإضافة إلى لباقتة وتحميه إلى من حوله.

كنت أنظر إلى أبي حسين - الأستاذ طلال - أستشرف الغاية من حديثه . فأردف

قائلاً :

فما رأيك أن نبدأ معاً يا أبا حسن ، فلن أقدم على أمر لا تكون فيه معي ...  
كان الإيجاب السريع جوابي ، فقد كنت أقرأ كثيراً - وما أزال - فلم لا أتوجّ القراءة  
بدرجة علمية مناسبة ! ومما أسرع بي إلى الإيجاب أنني كنت ألتقي جاري الدكتور .... المدرس  
للنحو في كلية الدراسات العربية والإسلامية نندرس النحو ، فأرى معلوماته فيه متواضعة ،

وكثيرا ما أصوّب أخطائه ... ومع ذلك تراه في المنتديات واللقاءات يقدّم على الآخرين بلقبه العلميّ ... والدنيا- مع الأسف - مظاهر ، وغالب الناس يُؤخذون بالألقاب ... مع أن منهم - حاشا العلماء الأفاضل - من ينطبق عليه قول الشاعر الأندلسيّ:

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ      ألقاب معتمد فيها ومعتضدٍ  
ألقابُ مملكة في غير موضعها      كالهَرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

التقينا الأستاذ يوسف شراب ، وهو مندوب عميد معهد الاستشراق \_ أرشاد \_ والقائم على عملية التسجيل ، قدمنا الأوراق المطلوبة للتسجيل ودفعنا رسم الانتساب (٢٠٠) مئتي دولار ، ولم يمض شهر حتى جاءنا القبول على أن نحدد موضوع الرسالة للموافقة عليها .. سألت : إن كان من الممكن أن تكون الرسالة في النحو ، فكان الجواب : إن المعهد مختص بالأمر الإسلامية كافة، والأدب الإسلامي جزء منها، أما النحو فلا يدخل في ذلك.

استخرت الله تعالى ، وبدأت أفكر في موضوع غير مطروق يقبله المعهد ، فهداني الله سبحانه إلى عنوان جديد قد يقبل سريعاً ، فأستفيد من الوقت " الشعر العربي في الفتوحات العثمانية" ووضعت خطته وأرسلتها إلى باكو عن طريق الفاكس إلى مكتب الأستاذ الدكتور " رفيق عليوف " نائب العميد والمشرف مباشرة على الدراسات ، فمضى شهر حين جاءني الموافقة مع بعض التعديلات . وكان رسم السنة الدراسية الأولى ( ١٠٠٠ ) ألف دولار ، ولعل المعهد حين ترامى للدارسين خبره وكثر المنتسبون إليه زاد في رسمه السنوي ، فكان في السنة الثانية ألفاً ومئتين ، وفي السنة الثالثة ألفاً وخمسة مئة دولار ، وكان من بين المقررات الدراسية : التاريخ الآذريّ ، والثقافة الإسلامية ، ومقتطفات من الأدب في العصور الأدبية كلها على أن يصاحبها دراسة مستفيضة لفن من الفنون الأدبية ، فاخترت الشاعر العملاق أحمد شوقي في

إسلامياته.

ولغة إسلامية أو عالمية فاخترت الإنجليزية لإمامي المتواضع بها ، والإنسان بعد الخامسة والأربعين من عمره يصعب عليه أن يدرس لغة جديدة ، فكانت اللغة الإنجليزية منقذا لي من الدخول في متاهات اللغات الأخرى ، مع العلم أنني درست في جامعة حلب اللغة الفارسية ، وأحببتها ، إلا أن الزمن والدراسة السطحية لها وعدم متابعتها أكثر من ثلاثين عاما جعلها في طيّ النسيان .

كنت والأستاذ طلال الدرويش على مدى سنة ونصف السنة ندرس المقررات هذه استعداداً للامتحان فيها الذي اعتمد في أواخر حزيران من عام ستة وتسعين وتسع مئة وألف . ونجمع المصادر لبحثنا - رسالتي الدكتوراه - وكانت رسالته في " القص الفني في المثل العربي ، عصور القوة " وقد استفدت منها في كتابي " صور من التربية في القرآن الكريم " الذي نشرته دار ابن حزم عام ألفين . كانت الدكتوراة " آرتلي " مشرفة على الرسالة عن بعد ، فهي لم تزر الإمارات ، والفضل في ذلك لجهاز الفاكس الذي انتشر في التسعينات من القرن الماضي ، فسّهّل أموراً كثيرة . أما الأخ الأستاذ طلال فقد أشرفت على رسالته الدكتوراة " لورا " عن بعد كذلك .

في الأسبوع الأخير من حزيران كانت الطائرة الآذرية تمخر عباب الفضاء متجهة إلى إيران شرقاً بعيد العصر ، فتقرب المسافة بينه وبين المغرب ، ولم أكن أدري أن الصحارى تكثر في إيران حتى طرنا فوقها ، فإذا هي - الصحراء - شاسعة واسعة لا تكاد تجد في جنوبها سوى اللون الأصفر يتخلله نقاط خضراء ، هي الواحات المتناثرة دون انتظام في البحر الرملي الممتد ، يقاطعه جبال جرداء شامخة تطاول عنان السماء . فإذا ما اتجهت الطائرة نحو الشمال زادت

الرقعة الخضراء حتى تكون هي الغالبة ، ورأيت بعض البحيرات والأنهار . وتكاثفت الغيوم حتى تكاد تحجب عنك الرؤية . إلى أن ترى نفسك فوق بحر قزوين ، فتعلم أنك وصلت باكوا .... ولعلك تقول : إن المسافة بين الشارقة وباكوا قاربت ثلاث الساعات ، وحلقت بك الطائرة بعيد العصر ، وعلى هذا فلن ترى من إيران سوى ساعةٍ ونصفِ الساعة الأولى ، فكيف وصفتَ أعاليها فذكرت الأنهار والبحيرات والأرض الخضراء؟! أقول صدقتَ ولكن إذا دجت رحلتي الذهاب والعودة - وكلتاها كانت في النهار - وضح لك الأمر ورأيتَ معي ما رأيتُ وعانيتَ ما عانيتُ.

### مطار باكوا والليلة الأولى

كان بناء المطار صغيرا يكاد يتسع لركاب الطائرة ، الواقفين ينتظرون دورهم البطيء في الطابور أمام موظف الجوازات الوحيد . وجاءت حقيبتانا الصغيرتان ، فتلقفناهما . وسُئنا عن تأشيرة الدخول فأبرزنا بطاقتي التسجيل في الكلية ، وسمح لنا بالدخول بعد ساعة دون جوازي سفرنا ، وأخذنا إشعارين بأنهما في ذمة وزارة الخارجية ..... وعلى الباب شاب يقول بصوت واضح كلما خرج أحد المسافرين وبكلمات عربية ذات لكنة أعجمية : سيد " اوسمان مكزري " سيد " طالل درفیش " . نظر إلينا ونظرنا إليه وتبادلنا الابتسام ، وسلمنا عليه فإذا هو أحد العاملين في معهد الاستشراق مكلف باستقبالنا ..... الوقت يقترب من منتصف الليل . والمسافة بين المطار والمدينة يجاوز الثلاثين كيلومترا ، والإضاءة في الشوارع قليلة إلا أنها مؤنسة بأبنيتها المتباعدة التي ينبعث النور منها ، والسيارات المنطلقة هنا وهناك ، ورأينا أنفسنا حين اقتربنا من المدينة نتجه إلى حيٍّ يبدو عليه أنه جديد الإنشاء يضم الأسر المتوسطة القريبة من اليسار ، فالشوارع متوسطة العرض ، والبيوت منسقة ، وبينها أراضٍ خالية تنتظر أن تُبنى . . .

دخلنا بيتا مفروشا فرشاً بسيطاً مرتبا علمنا بعدُ أنه للدكتور " رفيق عليوف " يستقبل فيه الدارسين مقابل أجرة يومية ، قدرها سبعون دولاراً ، وراتب الموظف المحترم في إذربيجان تلك الأيام لا يجاوز الأربعين دولاراً شهرياً !! . حاول صاحب الدار أن يكرمنا فترك في البيت رغيفين وعلبة من السمك المحفوظ وبعض الفاكهة ، لكنه خال من الماء ! ولا حياة بغير ماء، خاصة المسافر الذي يريد الاغتسال وتبديل ثيابه ليستريح من وعثاء السفر ، ولكن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن

لم يكن بمخيلتنا أن هذا الثعلب يمسك بمفاصل الأمور المالية في المعهد ، ويحاول الاستفادة وحده بكل الطرق من الدارسين .... كان معنا بعض الطعام الذي طبخته أم حسين زوجة طلال ، فنحن نهتم بنوع المأكول وطريقة صنعه لترتاح النفس والمعدة ، وخاصة أبا حسين صاحب الذوق الرفيع والقدرة على أداء فنون الطبخ وممارسة هذه الهواية بإتقان . وتناولنا بعض الفاكهة بعد أن غسلناها بالصابون وبعض الماء الموجود الذي قننا استعماله ونمنا سريعاً ، دون اغتسال - طبعاً - فقد أخذ التعب منا كل مأخذ .

وفي صباح اليوم التالي جاء الدكتور عليوف مسلماً ومرحباً بوجهه البشوش ولسانه المعسول ، وحين طلبنا إليه أن يأخذنا إلى أحد الفنادق فوجيء ، وحسن لنا البيت كأنه سمسار وكأننا مستأجران لفترة طويلة يريد أن لا يطيرا من يده ، إلا أنه سرعان ما انتبه لنفسه وحملنا إلى فندق فخم المظهر قديم البناء ، يبدو عليه العز القديم فترة الخمسينات والستينات ، فرشته الفخم قديم لكنه ما يزال يحتفظ بقدر من الرواء والبهاء ، يقدم لزبائنه الفطور والعشاء أما الغداء فقد كنا نقصد له المطاعم التركية التي تقدم وجبات فاخرة تبدو لنا مقبولة السعر والمذاق .

## باكو العاصمة

المدينة متوسطة الحجم ، شوارعها تميل إلى النظافة والسعة ، فهي عاصمة البترول في العهد السوفياتي ، وكلية البترول الجامعية فيها عريقة خرّجت الآلاف من الطلبة والباحثين ، والبناء فيها يغلب عليه الحجر ، أما المجمعات السكنية الحديثة والكبيرة فقد أنشئت بالإسمنت المسلح والواجهات الزجاجية على الغرار الجديد ، لكنك تراها شأن المدن الروسية باهتة فقيرة ، يغلب عليها البؤس والفاقة . وعلى الرغم من ذلك فأجرة غرفتنا ذات السريرين في الليلة الواحدة مئة واثنان وعشرون دولاراً ، عشرون بالمئة منها لسمسارنا الذي لم نكن ندري عن صفقاته وصفقاته شيئاً إلا عندما فاحت رائحته التي زكمت الأنوف عام ألفين واثنين حين كان وزيراً للأديان .

جاءنا في اليوم التالي لاستقرارنا في الفندق الدكتور اللطيف رامز مرسالوف يصطحبنا إلى معهد الدراسات الشرقية " أرشاد " .. كان البناء ضخماً عالياً ذا طابقين ، قائماً على أعمدة مزركشة مستديرة رومانية الشكل . ذكرنا بجامعة دمشق ، والسراي والقصر العدلي بحلب ، وجامعة القاهرة القديمة . وكانت غرف الدرس على جانبي البناء من الداخل . وفي مكتب العميد وجدنا الدكتور عليوف وبعض الأساتذة الدكاترة ومعهم مؤلف " مختصر تاريخ آذربيجان " الدكتور محمود إسماعيل ..... كنت قد قرأت هذا الكتاب بإمعان فوجدت فيه مأخذ عدّة صوّبتها مع الدليل ، ولأنه على ما يبدو ما يزال مأخوذاً بالاشتراكية والنظام الشيوعي، وينتظر أن يعود النظام السوفياتي يوماً فقد تناول تاريخ آذربيجان من منطلق ما اعتقده، فأخطأ في استنتاجاته فكان لنا معه جولة إيجابية صرّح بعدها أنه لم يلتق طلاباً ناهمين يطرحون مواضيع وأفكاراً تصوب أخطاء الكتب التي يدرسونها .

وفي امتحان الثقافة الإسلامية كنا عند بروفييسور ما عدت أذكر اسمه ، مكتبه كبير يعمل فيه ثلاث من النساء حملة الدكتوراه ، كان الدكتور مراسلوف المترجم بيننا إذا استشكل عليه فهمنا في تناول بعض الأفكار .. كان اللقاء ممتعاً دام أكثر من ساعتين تناولنا الموضوعات فيهما بشفافية ونقاش هادئ .. وحين قلنا له : لم نبدأ مناقشة المقرر وقد مضى وقت طويل قال : كنتما اليوم أستاذي أتعلم منكما ، على العكس ممن يأتون والقلق باد عليهم والخوف من الامتحان ظاهر في حركاتهم وسكناتهم ، فيتلعثمون ويرتبون . وعلى الرغم أنهم من العرب وأصحاب التاريخ الذي أمتحنهم فيه - أنا الآذري الغريب - فلم يملأ الكثير منهم عيني ، فلما دخلتما مبتسمين واثقين من نفسيكما قلت قي نفسي أجربكما في قضايا أخرى ، فإن صدق حدسي استفدت منكما ، وإلا عاملتكما كغيركما ، فوجدت طرازاً آخر أعتز بالتعرف إليه ، والحديث معه ... شكراً لكما حللتما أهلاً ونزلتما سهلاً.

مستواي في اللغة الإنجليزية فوق الوسط ، وقد تركتها بعيد تخرجي من الجامعة عام سبعين وتسع مئة وألف ، وأنا الآن في السنة السادسة والتسعين بعد ست وثلاثين سنة أراني أمام امتحان فيها وقد نسيت منها الكثير ، ولا بدّ من استعادته ..... انتسبت إلى معهد الثقافة البريطاني في الشارقة في دورة نشطت ذاكرتي في استرجاع ما نسيته من هذه اللغة . وكان الأخ طلال متمكناً فيها ذا مستوى راقٍ ، فكان أستاذاً لي فيها . فلما حضرنا معاً امتحانها أمام عميدة كلية اللغة الإنجليزية في المعهد بدأت به تناقشه وتحاوره فكان أستاذاً فيها بحق، والحقيقة أنه عمل مدرساً لهذه اللغة سنوات عدّة في لبنان .... وجاء دوري فكان أول أسئلتها: أمتزوج أنت ؟ قلت: نعم . وكم لك من الأولاد؟ قلت : لم أرزق . أتزوجت أخرى؟ قلت: لا قالت ولم؟ فأخبرتها أنني خرجت من بلادي شريداً طريداً فكانت زوجتي معي على حلو العيش

ومرّه فلم أشأ أن أسيء إليها فيما تكره . فابتسمت " الحيزبون " وقالت هذا الوفاء بعينه ، وهكذا يفعل الحب والودّ، من أين أنت؟ قلت: من سورية . فبدأت تدمُّ الخليجيين الذين يكثرون من الزيجات وتفرغ ما في نفسها من سخط على الرجال المزواجين الذين تجاوزوها إلى غيرها، فبقيت عانسة!! - وهي فوق الستين - تندب حظها ، وأطرتني شاكرة شهامتي وحسن صبري ووفائي !!، وانتهى بذلك الامتحان قبل أن يبدأ بدرجة جيدة جدا أفرغت فيها جزيل امتنانها وعظيم تقديرها .

المعهد وبعض الصروح العلمية والفكرية والأدبية أقيمت على رابية مطلة على المدينة التي كان عدد سكانها قبل الحرب الأذرية الأرمنية في إقليم " كاراباخ " أقل من مليون نسمة ، فنزح إليها- بعد المعركة الخاسرة التي دعم فيها الروس الأرمن بالأسلحة والمعدات ، وجيش كبير منهم - مليون ونصف المليون تاركين أرضهم وديارهم ، ناجين بأنفسهم وأهلهم فازداد بؤس المدينة بؤساً ، وفقرها فقراً على الرغم من البترول المتدفق من أرضها وبحرها - فهي على شاطئ قزوين المغلق الذي تحيط به عدّة دول منها إيران جنوباً ، والعجيب أن إيران كانت عامل حسم هاماً في خسارة آذربيجان الحرب أمام الأرمن! فقد طالبت آذربيجان بعد استقلالها عن الاتحاد السوفياتي بالمنطقة الجنوبية التي ضمتها إيران إليها حين اقتسمتها الأخيرة وروسيا القيصرية في بداية القرن الماضي . وردّت إيران بدعم الأرمن ضد جارّتها وأختها في الدين والمذهب الشيعي حتى تنشغل بمصائبها عن المطالبة بشعبها وأرضه. ولا عجب -إذاً- أن نرى إيران تنشئ حرباً مع العراق في الثمانينات ، ثم تعادي أفغانستان فتشترك بجيش يقاتل مع الأمريكان ضدّهم عام ألفين واثنين. !!

خضعت آذربيجان للروس أكثر من مئة وعشرين سنة ، فضيّع أهلها ما بقي من دينهم،



فتراهم يعتبرون الإسلام قومية ، ففي العاصمة مسجداً فقط تقام فيهما الصلاة . الأول للسنة والآخر للشيعة ، ولا يقصدهما إلا الزوّار ، وحين تقول للمرافق خذني إلى المسجد يرافلك حتى الباب ، وينتظرك خارج المسجد حتى تنتهي من صلاتك!. وقريباً من الفندق على شاطئ البحر حديقة تنقلب بعد المغرب إلى ملتقى العشاق والزناة ، وليس من ضابط أخلاقي وديني ولا تشعر أنك في بلد مسلم ، كما تشعر حين تزور باكستان أو تركيا.

### الزيارة الثانية

أكملت الرسالة أواخر عام ستة وتسعين ، وأرسلتها إلى باكو لتطلع عليها لجنة من الأساتذة المختصين ولترجم إلى الأذرية - وهذا ما درج المعهد عليه- وعلى مبدأ البقرة الحلوب استوفى المترجم عن كل ورقة ثلاثة دولارات ونصف الدولار ، ولما كانت الرسالة كبيرة تكاد تصل إلى ثلاث مئة ورقة فقد دفعت ألف دولار ، ومثله رسم مناقشتها .... تطلب العمادة أن أتصل بالمترجم ، فاتصلت به لأجده يعترض على وصفي " أتاتورك " باليهودي الذي دمر الخلافة العثمانية، وقضى على الحرف العربي ، وسلخ تركية عن الشعوب الإسلامية، وحارب الإسلام فيها وقتل الدعاة . قلت له : ما شأنك أنت بذلك ؟ أنت المشرف على الرسالة؟ وأنت من يناقشني فيها؟! قال: لا . فعلام تعترض؟ قال : هو مثلي الأعلى في الحياة، وقد حطمت في نفسي هذا المثل . قلت: ألا تراني عزوت هذا إلى مصادره؟ قال بلى . قلت : فهذا رأيي لا أحيد عنه ، ودع غيرك يناقشني ... وانتهت المكالمة.

اخترتُ وطلائاً أواخر الشهر السادس من العام ألف وتسع مئة وثمانية وتسعين لمناقشة رسالتينا . سافرنا في اليوم الرابع والعشرين منه لنعود في الثامن والعشرين -خمس أيام فقط- وكان جواز سفري - وما يزال - كلما انتهى أجده عن غير طريق السفارة في الإمارات .

فأنا من الإخوان المسلمين الذين حُكِمَ عليهم بالإعدام حسب قانون العار الذي اتخذهُ مجلس الشعب السوري بأمر من الدكتاتور الهالك حافظ الأسد عام ألف وتسع مئة وثمانين

وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ ولكنّه ضحكٌ كالْبُكا

فماذا يقول الشاعر لو أنه عاش إلى أن يرى الظلم والإرهاب في سورية الحبيبة؟! سيرى العجبَ من شعبان حتى رجب! ولأنني من هؤلاء الرجعيين الذين يريدون للأمة العودة إلى دينها وربها وكتابه فقد شملني هذا القانون العار ، ولأنني نجوت من كيدهم وعذابهم فلن يعطوني حقي من الوثائق وسيتابعونني في رزقي ونزع الأمن والأمان من حياتي ، وخاب ظنهم . فمن كان مع الله كان الله معه ، حين عدت من رحلتي إلى آذربيجان وجدت أنهم أنخوا عملي بحجة أنني غير مُرَحَّبٍ بي في الإمارات، فقد اكتشفت أجهزة الأمن فيها أنني أحرَب عقول الطلاب، وأدعوهم إلى الله تعالى، وأحاول أن أكون القدوة والمثال . وهذا لا يرضي " الرويضات " واسيادها .

قلت لطلال : إن رأيتهم في المطار عرفوا جواز سفري فألغوا الإقامة فأخبر زوجتي بذلك حين تعود إلى الإمارات ،، وضحكنا .. فلما وقفت أمام الموظف ختم على الجواز دون أن يلحظ شيئا .. وهذا ما كان في العودة . أما طلال فقد استوقفوه في الخروج والعودة مدّة ليست باليسيرة ، ولعلمهم لم يثبتوا تأشيرة الإقامة في محفوظات الحاسوب فكانوا يعودون في المرتين إلى الوثائق في المركز الرئيسي . قال : لعل جواز سفري يا أبا حسين هو المزور لاجوازك!! وضحكنا وحمدنا الله تعالى على حفظه لعباده وسترهم . وفي الطائرة كان القلم والورقة بين يدي أكتب هذه القصيدة:

ياربنا

اغفر لنا ذنوبنا  
واستر علينا عيبتنا  
واختتم إلهي دائماً  
وكن لنا عوناً على  
بالصالحات يومنا  
ما كان قد أهَمَّنَا

يا ربنا

هيء لنا من أمرنا  
بالفضل منك إن بدا  
رُزُّ، فنحن الضُّعفا  
رَبُّ رحيمٌ ، غافرٌ  
سعادةً ، وخصنا  
في الأفق من تقصيرنا  
وأنت يا سيِّدنا  
رضاك مفتاحُ الهنا  
هذي الحياة عمَّنَا  
وبرُّك الفائض في

يا ربنا

أذهب عن الناس العنا  
على القتال تحت را  
فبالجهد إخوتي  
وبالجهد نستعي  
دُ ما مضى من عزنا  
مولي القدير نصرنا  
يورث أسباب الفنا  
وإن دهى أمرُ فبال  
وَبُعدنا عن شرعه

يا إخوتي

فلنرفع الأيدي إلى الله . م .  
العليِّ علَّنَا

استقبلنا في المطار أحد العاملين في المعهد ، وحمّلنا بسيارته إلى فندق أضخم من السابق وأعلى ، إلى الدور الرابع عشر - على ما أظن - وقد جاوز الليل الواحدة بعد منتصفه، وتركنا في غرفة أكل الدهر عليها وشرب ، وأجرتها مئة وعشرون دولاراً في الليلة الواحدة.

الغرفة مطلة على ساحة كبيرة كانت فيما مضى ساحة العرض العسكرية التي يُقام فيها سنويا أو في المناسبات القومية استعراض القطع العسكرية ويحتشد على جنباتها عشرات الآلاف يستمتعون بالاحتفالات المهيبه ، وقد يحضرها قادة " الكريملن " فتتجه إليها أنظار الملايين ووسائل الإعلام . وسبحان من يرفع أقواما ويخفض آخرين . وهي - الغرفة - أصغر حجما من التي نزلناها في المرة السابقة .. كنا مرهقين تعبنا ، فلم أستطع أن أعدّ من الصراصير في زاوية الغرفة فوقي أكثر من سبعة عشر ! وكان أبو حسين أنشط إذ عدّ واحداً وعشرين صرصوراً ، وفي الليلة التالية كنا أخذنا قسطا من الراحة واستعدنا للحرب فاشترينا " بيف باف " صوبناه على جموعها المحتشدة في الزوايا والأركان وفوق المنضدة وعلى حوافّ خزانة الملابس التي لا يعرف لها لون ، وفوق ما يسمّى " الموكيت " الذي داسه عشرات الآلاف من الزائرين على مدى خمسين سنة ، أو ربما أكثر فلم يعد له لون ، ولا تستطيع أن تدوسه حافيا وإلا حملت رجلاك مآسي أجيال سلفت. كانت إدارة الفندق تجري ترميمات له كاملة وصلت فيها إلى الدور الحادي عشر. والحقيقة أننا حين تجولنا في الأدوار السفلية كنا في عالم آخر، فكل شيء جديد ومرتب ونظيف وفخيم .. نظرت إلى الأخ طلال أقول " بينهما برزخ لا يبغيان " . قال : ما رأيك أن نبدّل المكان ؟ قلت : أسرع . فلما علمنا أن أجرة الليلة في الأدوار الجديدة مئتان وخمسون دولاراً عدنا إلى غرفتنا مرتاحين ، فقد قضينا على الصراصير

بنجاح منقطع النظر وكانت بالعشرات يتراوح طولها بين عقلة الأصبغ والعقلتين ، والمكان أعلى، يطل على أماكن أبعد ، وحالنا حال الشعب الذي فشل في أكل العنب:

وقال : هذا حصرم رأيته في حلب

في اليوم الثالث كنا على موعد في الكلية ليناقد كل منا رسالته . مشينا في المناطق القريبة من الفندق نستروح الأنسام ونتناول الشاي في إحدى الحدائق القريبة ، نفطر زيتاً وزعتراً من مطبخ أم حسين - فقد حملت زوجها أنواع الأطعمة التي كفتنا مؤونة شراء غير الخبز والماء- مع الشاي الساخن الطازج وقد أعده قبل أن ننزل معاً على أرجلنا هو للمرة الأولى ، وأنا نزلت مرة قبله لأجلب الخبز فلما وصل المصعد - وكان متسعاً - إلى الدور الأول فتح ربع فتحة وانقطعت الكهرباء وكنا نملؤه فاستنجدنا بمن يسمعنا ، ففتحوه يدويا ، وظلت الكهرباء منقطعة أكثر من خمس ساعات ، وحمدت الله تعالى على النجاة من الموت اختناقاً.

جاء الدكتور عليوف بنفسه يحملنا إلى الكلية ، وهناك تناولنا القهوة التركية ، فلما اجتمع الأساتذة الدكاترة المناقشون انتقلنا إلى قاعة كبيرة ، واتخذوا أماكنهم على السدة ، وجلس أبو حسين إلى طاولة أمامهم ..... واستغرقت مناقشة الرسالة ساعة من الزمن ، كان فيها الفارس المصاول الذي أثبت بفصاحته وحسن عرضه أهليته أن يكون " الدكتور طلالاً الدرويش " ثم جاء دوري ، فعرضت رسالتي وكان نقاش طويل دام أكثر من ساعة ، أوضحت فيه القصد من الرسالة ورأيي فيما وصلت إليه من البحث ، ونلت الشهادة بدرجة " امتياز " والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كان يوماً بهيجاً تمنينا أن يشاركنا فيه فرحتنا الأهل والأحباب ، ولا أكتمك أيها القارئ الكريم أن المناقشين كانوا مهذبين إذ نادونا : دكتور طلال ، دكتور عثمان ، ونحن ذاهبون إلى

أحد المطاعم الفخمة للغداء فوجدنا للقب الجديد طعماً حلواً ، إلا أن الزمن جعلنا نراه عادياً إذ فقد بريقه بعد أن سمعته كثيراً ، فأيقنت أن " أبا حسان " أقرب إلى نفسي وقلبي ، فقد صاحبي في حلّي وترحالي . وأشعر حين أنادي به بكل ما مرّ عليّ في حياتي من حلو ومر وشباب وكهولة ، وسعادة . إنه يعني العمر الذي أسأل الله تعالى أن يتقبل مني ما أحسنته فيه ، وأن يعفو عني فيما أسأته . إنه يجمعني مع رفيقة دربي وشقيقة عمري أم حسان .

أنحوكم أبو حسان



## إيطاليا ( ١ )

لا بد من العودة إلى الوراء في بعض الأحيان ليبدأ الحديثُ بدايةً صحيحة. فنحن في الثامن من تشرين الأول عام ثمانين وتسع مئة وألف للميلاد . في بيتنا المطل على شارع الجيش في الزرقاء الأردنية، كان قريباً من جمعية الزرقاء الإسلامية الخيرية في شارع الفاروق في قلب الحي النصراني استأجرناه من صاحبه في بناء له من عدة طوابق، زوّج ابنه في عيد الفطر المبارك، فكانت أغنية " بدنا نتزوج على العيد ، وبدنا نعمر بيت جديد " تصل إلى مسامعنا ليلاً نهاراً " فقط " . فمرة تنسينا مآسينا ، ومرة تنكأ الجرح الدامي النازف في أحداث حلب وبقية المحافظات السورية إذ ذاك.

كانت الدراسة قد بدأت في الجزائر ولما نُنه علاقتنا هناك ماليًا ، فودعني أخي كمال حفظه الله تعالى من باب المطار ، وكان المطار في ماركا لما ينتقل إلى جنوب عمّان - مطار الملكة علياء الآن . ولم يسمح له بالدخول حيث توزن الأمتعة ... كان السفر على متن الخطوط الأردنية إلى روما أولاً، نقضي الليلة فيها لتقلنا طائرة أخرى إيطالية في ظهر اليوم التالي إلى الجزائر العاصمة .

نزل معي في روما طالبان فلسطينيان نالا الشهادة الثانوية ، ويريدان الدراسة الجامعية في الجزائر، أحدهما سيصل إلى عين طاية ، قرب " روية " والآخر إلى " عنابة " ، وما تزال الجزائر حتى الآن تحتضن الفلسطينيين ، على الرغم من مشاكلها . " أما الثالث " رياض " فقد كان يعمل في مطار دمشق ، لم يلحق بالطائرة الإيطالية هناك فلحق بالثانية في عمان ليصل إلى باريس .

كان الطريق من " الكونتينتال " إلى روما ٣٥ كم . دخلنا فندقا وحجزنا غرفة بسريرين لي ولرياض، فقد كان رجلا لبقاً... أخرج من حقيبته الصغيرة أدوات الشاي وشربنا كأسين من العقيق اللذيذ ، ثم نزلنا نتجول في الشوارع القريبة تحت رذاذ المطر الخفيف ، ثم عدنا ، فمنا استعدادا لليوم التالي.

استيقظنا صباحا، وأفطرنا في الفندق ، وتمشينا في شوارع المدينة - المسرح الروماني: وقد رمم فظهر - على قدمه- مهيبا ، يتسع لآلاف الناس ، وهو بحجم مسرح " بصرى " السوري إلا أنه أكمل وأعمق . ونصب الجندي المجهول ومثيله في فرنسا أكبر وأجمل ثم دخلنا " الترمينال " وهي محطة القطارات الكبيرة ، التي ينطلق منها كل دقيقة قطار يتجه إلى مدينة ، والازدحام في المحطة على أشده ليلا ونهارا... ثم انطلقنا إلى المطار وودع كل صاحبه ولم أره بعد وقد مضى على تعارفنا السريع ثلاث وعشرون سنة ... هكذا الدنيا محطات سريعة ... ليتنا ننتبه إلى حقيقتها المضمحلة فنعتبر ، ثم نعمل للحقيقة الأبدية... واستغرق الطيران بطائرة إيطالية ساعة ونصف الساعة إلى مطار الدار البيضاء في الجزائر.

أوصلتني الحافلة إلى حي القصبة، فالتجّهت إلى دار الدكتور بلحاج شريقي، فاستقبلني ابنه أحمد،

أين والدك؟!.. الوالدان كلاهما في الديار المقدسة يحجان..

تقبل الله حجّهما وأعادهما مغفورا لهما مأجورين ... آمين.

كان ترحيبه بي جيدا ، وطلب مني أن أبيت في دارهم ، كنت أفضل الفندق لكن السمر إلى آخر الليل ، وطيب الحديث مع أخيه وزوج أخته، وحسن سماعهم أشرطة الكاسيت التي كنت أحملها -أشرطة أبي دجاجة الثلاث ذات الدفق الإيماني الحماسي الكبير- جعل الليل



يمضي سريعا فرأيتني أقضي بقية الليل عندهم... أهديت أحمد كتاب " جذور البلاء " للمرحوم عبد الله التل بعد أن أنهيت قراءته في الطائرتين كتاب يضع الدواء على الجراح وينبه الغافلين إلى الطريق المؤدي إلى استدراك ما فات ، والخروج من مستنقع التبعية للآخرين والسير قدما إلى مقدمة الركب العالمي....وكنت بدأت القراءة في كتابه الثاني " الأفعى اليهودية في معازل الإسلام " وهو كتاب جيد يدل على تمتع الرجل رحمه الله بذكاء وإيمان على مستوى راقٍ ، أنصح القارئ المسلم بدراستهما.

### يومان في بجاية

انطلقت إلى القرص الشعبي الرئيسي في العاصمة علي أنني الأمر دون الذهاب إلى بجاية، فلم أكن أريد أن يراني أحد هناك، لكن ذكروا وجوب الذهاب إلى بجاية ... أكلت صحن آيس كريم .. ثم من محطة الآغا وكان الوقت ظهرا ركبت باصا صغيرا ، وعزمت أن لا أزور أحدا ممن أحبهم ويجبوني كي لا أترك للنصيريين والحزبيين القذرين ممسكا يتكئون عليه في إيذائهم والمكر بهم ... ولكن في البويرة - عند منتصف الطريق صعد أحد الزملاء من مصر - عبد الحميد خضر-وتحاذبنا أطراف الحديث، قلت له : رؤيتك إياي سيضطرنى لزيارة هؤلاء الأحاب، لأنهم إذا علموا بوصولي ولم أزرهم فاللوم كثير . فقال : أنا لم أرك ولم أكلمك. إلا أنني ارتأيت أن يخبر خليلا بوجودي في مقهى البحر وأن يطلب إليه أن يأتي بحسام معه دون أن يخبره بوجودي، واستأجرت غرفة في فندق قاعة الشاي قرب بائع الكاتو الذي أحب مذاقه، ولكنني لم أكل منه شيئا ، ! ربما ،! لأن زوجتي التي تحبه مثلي لم تكن معي ، فلم أدخل إلى المكان على الرغم أنه جذاب يشد الجائعين وغيرهم.

التقيت الرجلين بعناق وشوق ، فهما في الغربة سدا كثيرا من الفراغات بلطفهما وحسن

أخلاقهما، وكانت الستان اللتان قضيتهما معهما جميلتين بصحبتهما، وأخبرني حسام أنه لم يكن يعرف سبب المجيء إلا قبل أن يراني بدقيقة من وصولهما ، وكان لقاء حلواً، وحديثاً عن الثورة الشعبية في حلب وحماة وبقية المدن السورية ضد النظام القمعي الذي جثم على صدور الشعب المصابر... قدمت لخليل أعداداً من مجلة النذير الصادرة عن الجماعة، فعلق عليها حسام قائلاً : كنت أسمع عن هذه المجلة ولم أرها إلا الآن ، فيها أخبار الجهاد والمجاهدين ، وكانت توزع بكميات كبيرة بين الشعب فيتلقفونها برغبة ، ويتداولونها بسرعة .... ثم ودعتهما .. وفي اليوم التالي كنت في طريقي إلى العاصمة فمررت على مدينة " أقبو " وبت عند الأخ الكريم طريف ، قريب الأستاذ إبراهيم عاصي رحمه الله تعالى ، فقد قتله الظالمون مع عشرات الآلاف من مثقفي الأمة وقادة المستقبل.

وفي المطار تأخرت مع حاجّين ، رجل وامرأته عجوزين، لم يلحقا بالطائرة السعودية ، ولا يعرفان لغة غير اللهجة الجزائرية، فرغبت في مساعدتهما عل الله سبحانه وتعالى يسهل أمري ، " والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه " . ووصلت إلى روما ، فذهبت إلى الفندق نفسه، ونمت سريعاً ، فقد كان اليوم طويلاً والسفر فيه مرهقاً.

## في روما

في المطار قدّمت بطاقة السفر على الطائرة الأردنية علي أجد مكاناً فارغاً فيها... قالت الموظفة بعد النظر فيها : بطاقتك هذه رخصت منها على أن تكون العودة بعد عشرة أيام ، ولم يمض على سفرك سوى أربعة أيام . قلت : وما المقصود؟ قالت : إما أن تنتظر أسبوعاً وإما أن تدفع ثمن البطاقة كاملاً . قلن : وكم أَدفع ؟ قالت : مئتين وعشرين دولاراً. قلت أصرفها سائحاً، متنقلاً بين ربوع إيطاليا أوفر وأجدي ... وثبّتُ الحجز بعد أسبوع كامل . إلا أن

موظفة أخرى همست : تعال بعد يومين أو ثلاثة .

قضيت اليوم الأول في حدائق روما ومتاحفها ، إلا أن نفسي انقبضت من تماثيل الآلهة وأصنامها ، أين الجمال فيها ؟ وأين العظمة التي تستقطب المئات يوميا ؟! ما هي إلا أحجار صم لا تعي ولا تعقل ، والنظر إليها يولد في النفس قشعريرة ، بله قرفاً واشمئزازاً ونفرة ... أحسست بثقل في قلبي ، وخفت أن أموت وأنا بينها ، ماذا أقول لربي إذا سألني سبب دخولي هذه المباءة، أقول: إنني كنت أزور معالم حضارية؟! وما الحضارة في زيارة رموز ديانة وثنية لشعوب همجية ، سطت على البشرية في عهدنا وطغت وعاملت الشعوب الأخرى معاملة قطعان البهائم؟ ولماذا أزور أوثانا كسّر أمثالها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة مصمماً على إزالتها قائلاً: " وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً " ؟! ... ليس من مكان أو موضع يتجه إليه النظر إلا وتجد فيه عرياً وابتذالاً وتماثيل تتجلى فيها المادة ، وتغيب عنها الروح. تصور أن تلاً يشرف على مدينة فلورنسا في وسط إيطاليا يحج السياح فيها إلى تمثال فيه يمثل العري الفاضح والقوة الجبارة ، ويدعون أنه للنبي العفيف والقائد الشريف سيدنا داوود عليه السلام!! هذا النبي العظيم الذي مدحه الله تعالى، فوصفه بكثرة التسبيح والتبتل إلى الله عز وجل ، والأدب الجم ، والأخلاق العالية ، هو عندهم مثال العهر والخيانة والفساد والزنا ، والعياذ بالله.

أراد صاحب الفندق حين نزلته أول مرة أن يغريني بالنزول في فندقه ، فقال بلغة إنجليزية مؤكداً بحركة يدوية متناسقة وصوت قوي "there is big break fast." وحسبت أن وجبة الإفطار ستكون دسمة ،ومنيت نفسي بصحن فول شهوي ، مع "فحل " من البصل وشيء من " الشطة " . وكنت قد عدت إلى الفندق متأخراً متعباً ، أجز رجلي من إرهاق

مسيرة تسع ساعات ، أطوف فيها بين الأسواق والمحلات التجارية ، أتعرف على أقوى عاصمة في الزمان الغابر قبل الإسلام ، مسارج وملاعب وشوارع ونُصُب وساحات وأبنية ذات طراز قديم . ورحت أسأل العرب - وهم قليلون - عن مصلى أو مسجد، أو تجمع لهم فلم أظفر بطائل.... \_ وسأحدثكم عن الظفرة الرائعة للحركة الإسلامية الواعية في إيطاليا -٢- إن شاء الله تعالى \_ ولم أعرج على مطعم خشية أن آكل ما لا يجوز من لحوم محرمة ، فوجدت بقايا خبز بيس ، وقليلًا من الشاي البارد صنعته بنفسي صباحا ، ولم أكن قادرًا على تجديده ، فقلت : " خبز وماء أكل العلماء " قلتها مع أنني لست منهم ولا حتى من طلبة العلم ، فشتان ما بين التدريس والبحث والتمحيص . وانطبق عليّ قول الثعلب الذي لم يستطع الوصول إلى العنب :

وقال : هذا حصرم رأيته في حلب

ونزلت في الصباح إلى بهو الفندق حيث الإفطار فكان الأكل ملعقتين صغيرتين من مربى المشمش المهروس ولفافتين صغيرتين زبدًا وقطعتين من خبز " التويست " وبيضة مسلوقة . قلت في نفسي: إذا كان هذا " big break fast " فكيف يكون small break fast? "

طُرق باب الغرفة في مساء اليوم التالي ، ولما فتحته سألني النادل : أتحب أن يكون فراشك دافئًا ياسيدي؟ قلت له سريعًا دون أن أعي حقيقة السؤال للوهلة الأولى: نحن في تشرين الأول والجو لطيف . قال : ولكنك وحدك وسريك مزدوج ، ولعلك تود مؤانسة ؟ فهمت وقتها مراده ، وقلت : لا لا أريد فلست بحاجة .

قال: ولكن عندنا أنواع ممتازة . قلت: أشكرك . مع السلامة . وأغلقت الباب ورأيت من

ثقب الباب يمشي متمهلا ، فالتفت عائدا إلى سريري ، فطرق الباب مرة أخرى.

أهناك شيء آخر ؟ قال : لن تدفع الكثير ياسيدي .

أدخلته . كان أسمر اللون طويلا ، نحيفا جعد الشعر . سألته بالعربية : أنت عربي ؟ قال

نعم ، ومن المغرب . ما اسمك ؟ قال سعيد . أمسلم أنت ؟ قال : نعم .

أتعلم أن ما تقدمه إليّ وتصبر عليه زنا حرمه الله تعالى ؟! سكت .. أتعرف معنى "

الديوث ؟ ظلّ ساكتا . قلت عملك هذا دياثة . أتعرف عاقبة الدياثة ؟ نظر إليّ ولما يجب .

الحرمان من الجنة ، والوقوع في النار . وغضب الله تعالى .

قال : إن سيدي صاحب الفندق يأمرني بذلك ، وهذا عملي .

قلت : أما سيدي وسيدك الحقيقي فينهي عن هذا ويعدّه فحشاء ومنكرا .

قال : ياسيدي إذا لم أفعل ما يطلبه مني فسيطردي من العمل ، ولن أجد غيره إلا بشق

الأنفس .

قلت له : يا أخي ، إذا اتقيت الله ثم بحثت عن عمل شريف يسره الله عليك ، وبارك لك

فيه . فالله تعالى يقول : " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب " .... وخرج

من الغرفة مطأطئ الرأس دون أن يستأذن .

لم يكن الرقيق الأبيض - بل هو أسود - هذا في تلك الأيام في بلادنا . وإن وجد فعلى

نطاق ضيق ، لا يكاد الناس تشعر به . ولكن في أوائل التسعينات كانت طوابير العاهرات

تقف في شوارع الفنادق في دبي في الإمارات - الديرة - من كل لون وجنس وتمر السيارات

تنتقي ما يشتهي أصحابها ، والشرطة تنظم سوق النخاسة هذا ، أما الفنادق فحدّث ولا حرج

.... هذا ما يريده منا ويصدره إلينا الغرب المتحضر ، ويزينه لنا ويدفعنا إليه ، وترانا يعبد الكثير

منا شهواته فلا يلقي للفضيلة بالا.

## الزيارة الثانية

قررنا أن نقضي جزءا من صيف سبعة وثمانين وتسع مئة وألف في إيطاليا وقد قيل إن هذا الصيف حار في البلاد العربية ، لم نكن نعرف أحدا في تلك الديار ، وكان أخونا الأستاذ غسان الخليلي تاجرا للأدوات الصحية والبورسلان في عمان ، ويعتمد لتجارته في إيطاليا الأستاذ " رضوان الألتونجي " وزار المدن الإيطالية مرات عديدة سعيا في رزقه ، فأعطانا عنوانه واتصلنا به.

وهكذا كان وحلقت بنا الطائرة الأردنية من عمّان إلى روما فوصلناها عصرا ووصل معنا حقيبة زوجتي فقط، أما حقيبتي فظلت في مطار عمان ثلاثة أيام أخرى ، وعلى شباك الشكاوى طلبنا الاتصال بنا في بولونيا حين تصل الحقيبة لنعود فنأخذها.

كان الجو في روما يميل إلى الحرارة، حين اتجهنا إلى الشمال قليلا قرب جبال الألب السويسرية . إلى مدينة بولونيا حيث الاعتدال الأكثر والازدحام الأقل .... كان " التيرمينال " محطة القطارات كبيرة تتوزع فيها السكك الحديدية توزع الشرايين في الجسم، وفي كل دقيقة ينطلق منها إلى المدن الأخرى قطار أو أكثر .. كان هناك نظام وترتيب، فأنت تستطيع اعتمادا على اللوحات المنبثة هنا وهناك أن تعرف القطار المتجه إلى المدينة التي تريد الانتقال إليها، ومكان انطلاقه ولحظته، والمحطات التي يقف فيها ، والزمن الذي يستغرقه الوصول إليها. أمر غاية في النظام والدقة، ويحضرني قول الأستاذ عادل فارس حين يتنقل في القطارات بين المدن الألمانية وحده وهو يجهل لغتها : كنت أقرأ ساعة الوصول إلى الهدف قبل الصعود إلى القطار فإذا توقف في الوقت المحدد في محطة ما أنزل فأرى نفسي في المكان الذي أريد .

ركبنا القطار المتوجه إلى بولونيا، في الشمال الشرقي من البلاد، وهي تبعد أكثر من ثلاث مئة كيلومتر عن العاصمة... كان مسرعا في حدود اثني كيلومتر في الدقيقة . وكان أكثر الطريق أنفاقا ثم جسورا ، وأذكر أنه جاز أحد الأنفاق الجبلية الطويلة في اثنتين وعشرين دقيقة . وقبل المغيب بساعة مررنا على الأرض المائية - سميتها بهذا الاسم لأننا قطعنا في حدود دقيقتين خمسة أثمار ، اثنان منها بعرض نهر دجلة ، واثنان يتجاوزان المئة متر عرضاً والخامس بعرض نهر بردى!!.. ألا تستحق هذا الاسم!؟!

كانت أكثر الأراضي الزراعية على جانبي الطريق وعلى مد النظر مليئة بعرائيس الذرة . ثم علمت أن إحدى شركات زيوت الذرة العملاقة تتكفل بشراء المحصول بسعر مغرٍ . وهي التي تمد المزارعين سنويا بالبدور والأسمدة ، وهي التي تحصد وتفرق الحب وتعبئه في الأرض نفسها . حتى إنها تساعدهم في أقساط الدراسة الجامعية لأبنائهم . ثم كعادتي رحلت أقارن بين تسابق الشركات الأوروبية - ولمصلحتها طبعاً- إلى كسب المواطن الأوربي ليكون إلى جانبها وفي صفها، وبين الضغط والجبر والتسلط الرهيب في بلادنا الذي -بجرة قلم -يفعل ما يريد المتسلطون لأن المواطن عندهم قطيع من البهائم يساق بالعصا ليس غير .

وصلنا أول الليل إلى بولونيا فاستقبلنا أحد مساعدي أبي عبده آلتونجي، وآلتونجي باللغة التركية " صائغ الذهب وبائعه" وحملنا إلى النزل الصغير الهادئ على طرف المدينة . كانت الليلة هادئة ، والتعب باديا علينا فاستلقيت على السرير سريعا يساعدي على كسلي هذا فقدان الثياب، ولن يكون بوسع أم حسان أن تفرض عليّ " الأتيكيت " الذي تنخر رأسي به كل ليلة قبل النوم.

عند الصباح جاء السيد رضوان يسلم علينا فتعرفت عليه ، فأستاذي " محمد سعاد

سمان" حفظه الله تعالى درسي اللغة العربية في المرحلة الثانوية وحببها إليّ هو زوج إحدى أخواته، ووالد رضوان القاضي الممتاز في حلب يعد من رجالات البلد في منتصف القرن الماضي يعرفه القاضي والداني. كنا بحاجة إلى الراحة فودّعنا على أن يرسل مساعدته يعرفنا على البلدة فأشترى ثياباً وأعوض بعض ما فقدته مؤقتاً إن أحسنت الظن بشركة الطيران ، أو يكون التعويض نهائياً إن لم أحسن الظن بها .ولكن خدمة الطيران الإيطالي كات ممتازا ، فقد أرسلت الحقيبة بعد أيام إلى روما ، ومنها إلى بولونيا ليريجوني من عناء السفر ذهابا وإيابا . قبل أن أستلم الحقيبة طلب الموظف فتحها ، فوجد لوحا من صابون " الغار " الأخضر الكبير ، فقال: ما هذا؟! وكأنه اكتشف شيئا خطيرا . أهو ديناميت؟! ضحكنا ، وأمسكت باللوح وقلت: هذا صابون مشهور في بلادنا . فضحك معنا.

كانت المدينة راقية البنيان قديمة، ليس فيها أبنية شاهقة، لكن النظافة والتناسق واضحان، ولا تجد فيها أجهّة ولا عظمة، إنما ترى جمال القديم ولطافة الحديث ....

اليوم الجمعة ، والساعة قاربت الثانية ، قال مضيبي : بعد قليل تبدأ صلاة الجمعة ، ونحن قرييون من المصلّي فهلم أعرفك على الإمام وعلى بعض المصلين . ... وصلنا متأخرين قليلاً حين دخلنا بناء في شارع رئيسيّ وصعدنا الدرج إلى الدور الثاني . ثم دلفنا إلى إحدى الشقق وكانت كبيرة تتسع لأكثر من مئتي مصلّ، ،، لم يكن الخطيب موجودا ... قالوا : الغياب ليس من عادته ، ولعل هذه أول مرة يغيب فيها ، انتظروه دقائق ، ثم تقدّمت إلى المنبر الصغير وهو دكّة مرتفعة قليلا ، وكانت الخطبة مرتجلة ، تحدّثت فيها عن العمل الإسلامي في بلاد الغرب، منبها إلى أن المسلمين هنا على ثغرة مهمة من ثغر الإسلام . ولما انتهينا من إداء الصلاة رأيت نفسي أعرف العديد من المصلين ،فسلم بعضنا على بعض بحرارة وشوق،



وتعرفت على عدد آخر منهم صاروا إخواناً بعد ذلك وأحباباً.

كان الليل لطيفاً حلوا حين زرنا دار الأخ رضوان ، كانت تشبه الدور العربية ، وحديثها داخلية مشرفة على مساحة واسعة من الدور الأخرى . وفوجئت بدخول الأخ الدكتور " ماهر قباقبي " وكان إذ ذاك طالبا في كلية طب الأسنان، غير منتظم في الدراسة يهتم بالعمل في الدرجة الأولى لأنه متزوج وأب لثلاثة ذكور وكان ولداه إذ ذاك في الثامنة والسابعة من العمر، وولده الثالث طفلا صغيراً . كنت أعرف أن ماهرا في إيطاليا ، ولم أدر أنه في مدينة " فُرارة " القريبة من بولونيا فكانت المفاجأة سارة . كانت السهرة ممتعة على طرف بركة السباحة الصغيرة، على شذا الفل والياسمين مع أحباب ترتاح إليهم ، وتأنس للحديث معهم.

### تربية الأبناء

تربية الأبناء في الغربية تحتاج إلى جهد مضاعف ، فالأب والأم بالإضافة إلى وظيفتهما الأبوية ينبغي أن يكونا الصديقين والمدرسين والمربيين . يضاف إلى ذلك الاهتمام - في مجتمع لا علاقة له بالإسلام ولا العروبة وأخلاقهما - بتأصيل العلاقة بين الأبناء والدين واللغة الأم - العربية - لغة القرآن والدين.

هكذا حاول أبو عبدالله " ماهر " وزوجته فقد أسمعنا الولدان شيئا من القرآن الكريم ، وحدثانا بلغة عربية جيدة ... وأفلحت تربية الوالدين أولادهما ، فهذا عبد الله عام ألفين بعد أربعة عشر عاما من ذلك اللقاء أراه شابا لطيفا ملء العين يقود مجموعة الشبان المسلمين في اتحاد الهيئات والجمعيات الإسلامية في إيطاليا ويشرف على حسن إداؤها، ويثبت في ذلك جدارة يساعده في نشاطه زوجته الشابة سمية ، ولا غرو ففرخ البط عوام كما يقول المثل .. الأب عضو فاعل في عديد من الجمعيات الإسلامية في أنحاء إيطاليا وأم عبد الله مسؤولة

العمل النسائي في هذا الاتحاد كذلك.

## فينيسيا

في اليوم التالي اتجهنا إلى البندقية " فينيسيا " بالقطار فلما قاربناها لاحت من بعيد مجموعة متقاربة من الجزر ... نزلنا من القطار ، والمحطة في أول المدينة كما يبدو ، ورأينا أقدامنا تشدنا إلى منتصف المدينة الرئيسي.

الشوارع قنوات مائية، والمواصلات فيها قوارب كبيرة تعادل الباصات ، وهناك الفوارب الصغيرة يستأجرها البعض " تاكسي " ، كما أن لكل بيت مصفات لسياراته المائية الخاصة، أما من أراد أن يركب العربة التي يجرها الحصان ، ويتنزه بين البيوت الأثرية أقصد " الجندول " - وهو قارب طويل مدبب من الطرفين ضيق يتسع عرضا لراكب واحد فقط- وجد صفا طويلا منها ينتظر السياح يجول بهم ، في شوارع البلدة وأزقتها بفن ومهارة دون أن يصطدم أحدها بالآخر، والظريف أنك تجد في هذه الشوارع والأزقة إشارات المرور التي تراها في أي مدينة ، فهذا شارع ذو اتجاه واحد ، وهذا ذو اتجاهين ، وهذا يُمنع إيقاف القوارب فيه .

وسط المدينة مزدحم بالسياح والمطاعم ومحلات بيع الهدايا. وكلها في أزقة ضيقة لا تتسع للعربات ولا الموتوسيكلات، كثير منها مسقوف يلطف الجو، يتخللها حدائق صغيرة معلقة وملاعب للصغار ، فإذا رغبت الانتقال إلى جو أرحب ومكان أهدأ أو أحببت أن ترى المدينة كلها عن بعد أخذت وسيلة مائية تناسبك، مخرت بها عباب الخلجان بين جزيرة وأخرى ، حتى يستقر بك الطواف على إحداهنّ، فتجلس في مطعم يقدم لك " البيتزا الإيطالية بالجبنة اللذيذة، ولكن حذار أن تتناول واحدة باللحم فهو على الأغلب لحم خنزير ، وهؤلاء الخنازير يتلذذون بلحمه ويفضلونه على لحوم الأنعام.

قلت لرافع ألتونجي أخي رضوان ، وهو شاب لطيف المعشر لا يتجاوز الثالثة والعشرين :  
نود أن نستروح أسبوعاً في قرية هادئة على سفح جبل . قال وقعت على الخبير . متى تودان  
ذلك؟ قلت: غدا إن أمكن. قال آتيكما في الساعة الثامنة صباحا .

كان للشباب مصنع للثريات ينتج أنواعا جيدة منها ، يوزع بعضها في إيطاليا ويصدر  
أكثرها إلى دول الخليج. نشيطا ممتلئا حيوية ، ذا أخلاق عالية ، يحب خدمة الناس ومساعدتهم  
ما أمكن. هذا الصنف من الناس في بلاد الغربية ليس بالقليل .

### أزياجو

انطلق بنا في سيارته نحو جبال الألب قريب الحدود السويسرية ، ثم بدأ يصعد طريق  
الجبل الملتف، وكان انحناء الطريق يمينا وشمالا وصُعُدا ملفتا للنظر. فنحن نعلو بسرعة ، والأرض  
تحتنا يزداد امتدادها ، وتصغر مرئياتها. .... وصلنا إلى بلدة " أزياجو " ونزلنا من السيارة  
لابسين المعاطف...

الجو ملبد بالغيوم ، والرذاذ يداعب وجوهنا .... وقفنا أمام نزل صغير ذي ثلاثة طوابق ،  
أمامه حديقة مسورة مرتبة . الطابق الأرضي للإدارة والجلوس والمطعم . وفي كل من الطابقين  
العلويين ست غرف مفروشة فرشاً أنيقاً... غاب رافع عنا أسبوعاً..

المنطقة كانت مرتفعة عن جهة الشرق التي جئنا منها ، لكنها كانت تبدو - وحوها  
الجبال المكسوة بالثلج على شكل دائرة شبه كاملة - مركز التتوء المرتفع نصف الدائري في  
وسط الطاسة الكبيرة المستديرة . وقد كانت الوالدة رحمها الله تصب علينا الماء الساخن في  
الحمام من طاستها المصنوعة من النحاس الرقيق المموج برسوم نافرة تدل على ذوق صانعها  
وشاريها .

يبعد المكان عن منتصف أزياجو مسيرة خمس مئة متر نقطعها مشياً فنشتري المياه الغازية والحلوى والفواكه، أو نتعرف على البلدة الصغيرة الهادئة ، ثم نؤوب إلى حديقة قريبة من المنزل أو إلى المنزل نفسه لنجلس في حديقته الجميلة، قتلاعب زوجتي صغار الأطفال، ويداعبونها ببراءتهم الحبيبة إلى القلوب ، وكنت أشاركها مرة ، وأخلد إلى نفسي مرة أراقبهم من بعيد، أو أبدأ مشروع قصيدة.

زوجتي تجيد استعمال الشوكة والسكين في طعامها ، وأنا أجيد استعمال أصابعي فيه ، ولا أشعر بلذة الاكل كما تريد هي، بل كما أريد أنا ... ادّعت أن الناس ينظرون إلينا ونحن نأكل فينبغي أن نريهم أننا متحضران ، لكنني لم أقتنع ، فليس التحضر بطريقة الأكل أو اللباس، إنما بالتصرف الحسن مع الناس وإظهار الاحترام لهم ... وأن أحترم نفسي قبل كل ذلك، فلا أشعر أن ما أتصرفه في بلادنا صحيحا يكون في غيرها خطأ .. مددت يدي إلى الدجاج أنثره بين أصابعي، ثم ألتهمه بطريقي التي اعتدت عليها أعجبهم ما أفعل أم لم يعجبهم . ما لي ولهم!! وأصابعي أنظف من الشوكة والملعقة، ولسوف أغسلها بالماء والصابون . لم يكن الناس ينظرون إلينا .. إن خجلنا يوحي إلينا بذلك، والحقيقة أن كل واحد مشغول بنفسه... ومنذ ذلك الوقت أفعل ما أريد ، وتفعل هي ما تريد ... علمنا بعض أهلينا أن نرضي الآخرين بالتخلي عن بعض خصوصياتنا ، وهذا على ما أعتقد نابع من الشعور بالنقص أمامهم ...

## ميلانو

حملنا رافع إلى بولونيا مرة أخرى لنستقل القطار إلى ميلانو مروراً بمدن عدة منها " بريشيا " التي سأكلمكم عنها لاحقاً إن شاء الله فهي تستحق وقفة طويلة . وصلنا بعد العصر إلى

محطة القطار الرئيسية في المدينة ، وكان في انتظارنا الأخ الدكتور منذر الأصيل ، جليسي على مقعد الدراسة منذ الصف الرابع الابتدائي في مدرسة العرفان في قلب حلب القديمة .

كان ترحيبه حارا .. أخذنا إلى بيته . تجاوز الأربعين ولما يتزوج بعد . إلا أنه كان منشغلا بالدراسة التي قضى في تحصيلها اثني عشر عاماً أنماها قبل وصولنا بشهر، فقد كان عصامياً يعمل ويدرس ، وكان ذا أخلاق ودين ، فهو لمعرفته اللغة الإيطالية جيدا يترجم الخطب والمحاضرات الدينية للزوار من العلماء والدعاة.... قدّم مسابقة للتوظيف فكان ترتيبه الثاني من ثلاثة وثلاثين كلهم إيطاليون .. قلت له فلن يأخذونك إذاً . قال : لم ؟! قلت : أليسوا إيطاليين ؟ . قال : بلى ، ولكن ما علاقة ذلك ؟. قلت : هم إيطاليون ، وأنت غريب ، ولعلمهم يريدون توطين العمل كما في بلاد العرب !. ففي دول الخليج مثلا ، حيث أعمل لا يلتفتون إلى الكفاءة والفهم والنشاط ، ويفضلون المواطن ولو كان حمارا ينقصه الذنب. ففي منطقة دبي التعليمية في السنة نفسها صرفوا إداريا فلسطينيا ناجحا وهو في أوج عطائه ، فلما اعترض الغيورون من أبنائها على هذا الفصل المخجلّ بالعمل وقالوا : إن هذا الرجل يقوم بعمل عشرة. قيل لهم : وظّفوا مكانه عشرة!... قال منذر : لا ترى في إيطاليا ولا في أي بلد يحترم نفسه غير حب العمل ، وتقديم البارزين فيه دون النظر إلى مثل هذه التفاهات. ولم يمض شهر حتى كان الدكتور منذر يمارس عمله قبل الإيطاليين أنفسهم.

ميلانو عاصمة الغنى في الشمال الغربي الإيطالي ، بل في إيطاليا كلها ، وهي مدينة صناعية كبيرة يكاد عدد سكانها يفوق الملايين الثمانية. تكثر حولها المصانع ، ويخترقها تحت الأرض خط المترو الذي يصل أطرافها بشبكة أنفاق كبيرة لا تقل عنها في روما. لم أشعر برغبة في البقاء بها لأن أسواقها - ونحن في الصيف - تغلق قبل غياب الشمس بساعة ، فترى

الشوارع مقفرة إلا من مارة يسعون إلى كافتريا أو خمارة ، أو مسرح .. لكن المنطقة الخضراء حولها غنية بالبحيرات ، ومن أكبرها " ليكو دي جارا " قضينا فيها يوماً ممتعا ، فقد كانت كبيرة عميقة ، استأجرنا قاربا يمشي بدفع الأرجل وقيادته سهلة ، وقريبا من البحيرة تمتعنا بـ " التلفريك " الذي حملنا إلى أعالي الجبل في قاطرة مغلقة شبيهة بالباص الكبير، وكان صعوده ونزوله بشكل عمودي تقريبا ومخيف . والتقينا في قرى الجبل ببعض العرب فكان سلام وتحية يدلان على الراحة النفسية التي يشعر بها من يلتقي بني وطنه في الغربية ...

### برج بيزا

ركبنا القطار إلى " جنوا " وسأحدثكم عنها بإسهاب ممتع إن شاء الله لأنها تستحق ذلك في حلقة قادمة ، ومنها انتقلنا شرقا إلى "كرارة " ولي فيها قصة غريبة أحدثكم عنها حين نذكر جنوا .. وصلنا إلى مدينة صغيرة فيها بناء عجيب مائل : إنه برج بيزا القائم في وسط المدينة ، يقع برج بيزا في مدينة توسكانا بإيطاليا وهو منشأة معمارية جميلة وفريدة من نوعها، وهو مبني على طراز معماري روماني ومصنوع من الرخام الأبيض وعلى شكل أسطواني يتكون من ثمانية طوابق، نوافذه على شكل قناطر.

أما سبب شهرة هذا البرج فبالإضافة إلى تصميمه الرائع هو بناء لا يقف بشكل عمودي مثل كل الأبنية، بل هو مائل بشكل ملحوظ، وسبب حدوث هذا الميل هو حدوث هبوط في التربة تحت جزء من قاعدة البرج، وظن الجميع أن البرج سينهدم إلا أنه بقي شامخاً حتى الآن.

وقد حاول المهندسون والمعماريون استدراك هذا الميلان ولكنهم لم ينجحوا تماماً، وفي عام ١٢٧٥م تم استكمال الدورين الرابع والخامس في اتجاه الجهة المعاكسة لجهة الميلان لتعديل مركز الثقل ولكن الميلان استمر في الزيادة إلى أن بلغ الآن حوالي ١٨ قدماً.

ومن أجل المحافظة على البرج أقيمت عدة سقالات ودعامات حول الهيكل الخارجي كإجراء وقائي مؤقت لمنعه من السقوط.

ويحاول عدد كبير من أشهر المعماريين العالمين حل مشكلة البرج التي تعتبر من أصعب المشاكل الهندسية للمحافظة على شكل البرج المائل.

صعدنا إلى الطابق الأخير ، كان البناء من الداخل متسعا لا ينبىء خارجه عما بداخله، وكان عدد الداخلين في ازدياد، ولعل المسؤولين عنه منعوا من جاء بعدنا من الدخول لظنهم أن الثقل إذا ازداد كان عاملا مهما في تفاقم الميلاق .

### برج بيزا ثانية

في شهر تموز من عام واحد وتسعين وتسع مئة وألف كانت العطلة الصيفية قد بدأت ولم أكن وزوجتي نرغب في السفر خارج الإمارات. فقد كانت آثار الحرب العراقية الأولى مخيمة على الأمة كلها ، والرغبة في التغيير فاترة .. رأينا الأهل السنة الماضية وحججنا، واعتمرنا مرتين بعد الحج ذهابا وإيابا إلى الأردن ... مضى هذا الشهر هادئا رتيباً... ودخل آب وازداد اللهب، واشتدّت الحرارة ، فعرضت على نصفي الآخر أن نهرب إلى مكان ما .. تركيا - مثلا- فلم تبد رغبة في الخروج من البيت بله السفر..... .

رن جرس الهاتف ضحى أحد الأيام .... من المتكلم ؟

صوت نسائي يجيب : المنطقة التعليمية في دبي ؟... أستاذ عثمان ؟ قلت : نعم أنا الأستاذ عثمان ، تفضلي أيتها الأخت الكريمة. قالت : السيد مدير المنطقة يطلبك غدا العاشرة ، أرجو أن تكون في الموعد ..... مدير المنطقة الأستاذ حمد تعرفت عليه منذ ست سنين حين كان ولده تلميذا عندي ، وكان بيننا استلطاف . وهو رجل ذو أخلاق حميدة

كاسمه.

كنت عنده في الموعد. قال نحتاجك يا أستاذ في مهمة إلى إيطاليا زهاء أسبوعين . في مدينة قرب برج بيزا مع فريق كرة القدم الإماراتي في المباريات العالمية لمن هم تحت سن الثامنة عشرة، بعض الأولاد يحملون مادتي العربية والإسلامية علك تساعدكم في أوقات فراغهم ، وهناك مكافأة نقدية مجزية، وأنت موثوق عندنا .... قلت لنفسي : جاءك ما تريده دون عناء، هذه أم حسان عازفة عن التحرك هذه السنة ، والسفر للرجال فقط. .... أشكرك يا أستاذ على حسن ظنك بي

كانت الموظفة حاضرة فأخذت جواز السفر ... ولم تمض أيام حتى كانت التأشيرة وبطاقة السفر جاهزتين واستقبلنا في روما مندوب فريق الإمارات إلى فندق قريب من الملاعب وكان لقاء طيب يدل على رغبتهم بوجودنا فقد كنا أربعة ، ثلاثة من سوريا للعربية والإسلامية والانجليزية والرياضيات والرابع إماراتي للفيزياء .... هناك واحد من الطلبة اللاعبين يحمل مادة التربية الإسلامية ، وثان يحمل العربية والإسلامية . حضر كلاهما درسا يتيما في الدين ، والآخر حضر نصف ساعة واعتذر أنه سيتدرب لمباراة الغد . جاءني في اليوم التالي كابتن الفريق يعتذر نيابة عنهما عن المتابعة لانشغالهم ... قلت كما تريدون. ولكن لماذا طلبتم مدرسين ؟... ضحك ، وقال : وهل أعمالنا كلها مدروسة؟! نحن يا أستاذ ارتجاليون في كل شيء. وخجل أن يقول : أنتم تكملون "ديكور الفريق. "

المال عند أهل الخليج - والإماراتيون منهم - يحسبون المال فقط أسّ النجاح! لا تتعجل الدليل ، فقد خبرتهم ست عشرة سنة. كانت مجموعتهم الرباعية مؤلفة منهم ومن الألمان والسودانيين ونيجيريا - على ما أتذكر. .. وكانوا يعولون على الصعود إلى الدور الثاني أن



يخسروا فقط أمام ألمانيا ، ويعوضوا بالنقاط أمام السودان ونيجيريا. .. فخسروا أولاً مع  
النيجيريين ، وسحقهم السودانيون سبعة /صفر ! وأجهز عليهم الألمان أربعة/ صفر.  
والعجيب أن حرب البلقان بين الصرب والمسلمين كانت على أشدها ، ومدرب فريقهم  
صربي!! ولا عجب فالوعي الديني والوطني ضعيف ، ففي عام ألف وتسع مئة واثنين وتسعين  
احتفلت أسبانيا بمرور خمس مئة عام على القضاء على المسلمين في الأندلس وشاركتها  
الإمارات احتفالها!!!... أما اختلاط الفتیان بنادلات الفندق فحدث ولا حرج .!! استغل  
المدرسون الفراغ وزاروا روما وبرج بيزا والمدن القريبة منا . خطبت فيهم الجمعة ، وكنت إمامهم  
في الصلوات ، ولم أخرج من الفندق على مدى اثني عشر يوماً إلا للتفرج على البلدة وشراء  
الهدايا ، ولم نتلقّ مكافأة على الرغم أننا طالبنا بها مراراً، ولعل خسارة الفريق مباراته يتحملها  
من كان مجيئهم شؤماً عليهم.!!



## إيطاليا ( ٢ )

سنغيّر كلمة واحدة في المثل " مصائب قوم عند قوم فوائد " فنقول مواع قوم... ففي صيف عام تسعة وتسعين وتسع مئة وألف دعي أحد الأساتذة إلى المخيم الصيفي لاتحاد الجمعيات والهيئات الإسلامية في إيطاليا. وكان عضوا في مجلس شورى الإخوان المسلمين السوريين الذي انعقد في الوقت الذي تبدأ فيه فعاليات المخيم الإيطالي تقريبا . فرشحي إلى ذلك المخيم ، فسافرت إلى " أنكونا " المدينة الجميلة على ساحل البحر الأدرياتيكي جنوب " فينيسيا " بثلاثين كيلومترا تقريبا . وهي نظيفة صغيرة الحجم ، يخترقها نهر متوسط .. هادئة تشعرك بالأنس ، ذات جمال أخاذ... فإذا ارتقيت الجبل إلى الشمال الغربي منها عشرين " كم " في طرق منعرجة وصلت إلى قرية " أرشيفيا " فإذا تسلقت بسيارتك سفح القمة مئات الأمتار - في دقائق قليلة- وجدت فندقا صيفيا مطلاً على الوديان من حولك في منظر بهيج ،متعة للناظرين ، وإلى الغرب ملاعب ومقهيين ريفيين بسيطين ...

الفندق من طابق أرضي في بهو الاستقبال ، وهو كبير كنا نستعمله للصلاة ، وإلى الغرب منه قاعة للمحاضرات الشتوية ، وقد جعلت لنوم الأولاد أيام المخيم، وإلى شرق البهو شرفة سماوية كبيرة تتسع للمئات ، كانت المحضرات الصباحية والمسائية والأنشطة تعقد فيها.

وفي الأسفل المطعم الضخم ، يتسع المئات . كان ثلاثة أرباع طعامنا في المخيم " سباغيتي " مما جعلني أضرب عن المعكرونة بعد عودتي من إيطاليا ثلاثة أشهر على الأقل لأنساها ولأعيد التوازن بينها وبين الأطعمة الأخرى.. وفي الطابق السفلي نفسه قاعة لممارسة الرياضة . لكننا كنا نمارسها في الهواء الطلق ، بين الأشجار وعلى الطرقات.

أما الغرف ففي الطابقين العلويين ، وهي غرف صغيرة يحتلها الأسر والصبايا اللواتي أوصلهن أولياء أمورهن ولم يشاركوا في المخيم . أما الرجال ففي الطرف الغربي للفندق ساحة سماوية تنصب فيها الخيام ، ويوزع في كل خيمة عدد متجانس منهم . والفندق على جماله يعتبر من فئة النجمة الواحدة ، إن كان لأمثاله بين الفنادق تصنيف .

وصلنا إلى مطار " أنكونا " ليلة بدء المخيم ، ولم نجد من يستقبلنا مع أن من تركناهم في عمان تكفلوا بإخبار القائمين على المخيم بوصولنا ، لكنني تعرفت في الطائرة على أستاذ من جماعة العدل والإحسان المغربية التي أسسها الأستاذ عبد السلام ياسين حينما بدلنا الطائرة الإيطالية من ميلانو، وكان رجلا لطيفا ذا أخلاق عالية .. جاء من يأخذه إلى المخيم ، فحملنا معه.... تحدثت بلغة الجمع لأني سافرت والأستاذة عائشة شعبان يرافقها ابنها يمان وكان طالبا في السنة الثانية الجامعية.

استقبلنا في المخيم الدكتور محمد نور دثّان رئيس الاتحاد الإسلامي ، وهو أخ صديق أعرفه منذ أكثر من عشرين عاما ، كان شابا في الخامسة والثلاثين من عمره في أوائل الثمانينات . مفعما بالحيوية والنشاط، ولم أفاجا كثيرا حين رأيت الشيب يزين فوديه ويغزو رأسه، فأنا كذلك صورة تؤكد أن الإنسان مرتحل إلى الله تعالى ، وأن كل مرحلة يمر بها دليل على ذلك ، إلا أنه والحق يُقال لم يزل كما عهدته.. سريع الحركة.. يقظ البديهة.. دائم الابتسام .. ذا عينين تغزلان ذكاء.. لطيف المعشر ... وبهذا كان جديرا بقيادة اتحاد الجمعيات والهيئات الإسلامية في إيطاليا.

يبدأ يوم المخيم بصلاة الفجر ، بعدها خاطرة أو كلمة صغيرة لا تتجاوز ربع الساعة ، ثم ذكر لله تعالى وأدعية وأوراد ... راحة ، أو قراءة من القرآن الكريم .. رياضة جماعية خارج

الفندق على السفوح ساعة يتخللها أناشيد وهتافات ، وتبسط أخويّ ...وفي الثامنة إفطار خفيف وصلاة الضحى ... وفي التاسعة تبدأ المحاضرات إلى الواحدة ظهرا .ثم الغداء الجماعي، والقبلولة، أو اللقاءات بين الأصدقاء الذين يغتنمون مثل هذه المناسبات ، فيجددون العهد بينهم، أو ينشؤون علاقات وصلات جديدة ، والمسلم أوف مألوف.

وفي الخامسة عصرا إلى الثامنة محاضرات أخرى، أو تُطرح أفكار جديدة تفيد المسلمين في مجتمعهم الغربي الجديد لتناقش وتُنضج ، ويشعر المسلم أن عليه أن يكون فاعلا ومنفعلا ، وأنه عامل إيجابي في مسيرة المسلمين في إيطاليا وأن عليه أن يتحمّل المسؤولية في توجيه أبنائه وإخوانه والحفاظ عليهم من لجج الفساد والانحراف في مجتمع يموج بها وتضطرب سفينة الهداية في خضمّه ، فلا بد من اليقظة والعمل الدؤوب للوصول بالأسرة والمجتمع المسلم إلى بر الأمان والإيمان ، وإلا ابتلع الطوفان وتتأبّع الأمواج وقوئها كلّ شيء ، فذاب فيه وكان ما نتحاشاه ، الخسارة في الدنيا والآخرة - لا سمح الله - وعلى هذا يراهن الغرب ، وإلى هذا يسعى ، وله يخطط ، وكم ضاع من المسلمين في الغرب بسبب الإهمال ، وانعدام التربية والتوجيه.

تنوع المحاضرات .. أدب وإخلاق ودعوة ، تحت عنوان عام ينضوي المخيم تحت لوائه، وتهدف المحاضرات والأنشطة لتحقيقه . يتخلل ذلك أناشيد وأنشطة فكرية ومسابقات . وقد نلتقي بزائرين ومسؤولين إيطاليين من عليّة القوم وأصحاب القرار ، نستمع إليهم ويستمعون إلينا بأسلوب حواريّ متحضّر ، فيتعرف هؤلاء إلى المواطنين المسلمين الإيطاليين - لا أقول إلى الجالية المسلمة - فكلمة " الجالية " تعني أننا معشر المسلمين ماكنون إلى زمن سوف نجلو بعده ، ويعود كلٌّ إلى المكان الذي قدم منه !! لا لا ،إن المسلمين في كل مكان مواطنون ، وينبغي أن يشعروا بمواطنتهم ليفيدوا ويستفيدوا ... يحافظون على دينهم ، وينشرونه في

الأرض، ويقدمون القدوة الصالحة، فيكونون دعاة إلى الله، ومثالا حسنا يهتدي بهديه الناس. كان مسؤول المخيم في تلك السنة أخ من غرب إيطاليا، دخل نور الإسلام قلبه، ومازج روحه وعقله، درس العربية وعب من فيض الإسلام، ثم أكرمه الله تعالى بترجمة معاني القرآن إلى الإيطالية، وطبعه طبعات عديدة، واقتناه الكثير من الإيطاليين، أسأل الله أن يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم. هذا المسؤول إلى لطفه وحسن إخلاقه كان حازما في قيادته للمخيم، حريصا على إنجاحه، فوفقه الله تعالى إلى ذلك.

تقسم إيطاليا إلى ثلاثين محافظة، في الجنوب عشر، وفي القسم الغربي عشر، وفي القسم الشرقي عشر. ولكل عشر محافظات رئيس... زار المخيم رئيسة المحافظات الشرقية. ووعدت الحاضرين أن تبذل جهدها ليأخذ المسلمون حقوقهم أسوة ببقية المواطنين الإيطاليين، كما زار المخيم بعض النواب فأحسنوا الحديث. وكان للدكتور أبي صبحي دشان دور محمود في خدمة المسلمين. كما أن نائبه في الاتحاد الدكتور "أبا الخير بريغش" ذكي الفؤاد، داعية متميز، يبذل وقته ماله في خدمة إخوانه ودعوته - ولا أزكي على الله أحدا - فقد عرفته عن كثب منذ سنوات طويلة، لا يألو جهدا في سبيل هدفه، وهو محاضر بارع، يغتنم الفرص يحدث فيها الإيطاليين عن الإسلام ويدعوهم إليه.

للشباب الذكور تدريباتهم المناسبة لأعمارهم، في مكان قريب من المخيم الرئيسي يقوم به موجهون أكفاء، زرهم مرتين على ما أظن... كانت الزيارة طويلة، فيها من التباسط والتحبب ما جعل بعضهم يحرص على مراسلتي، وجاء بعضهم في السنة التالية إلى عمان لزيارتي

للنساء في الفترة المسائية نشاطهن الخاص - وللأخت أم اليمان دور مميز في ذلك مع

بعض الداعيات - وأذكر أنني ألقيت عليهن محاضرتين ، وأفدني بأخلاقهن وصبرهن على أزواجهن وتربية أبنائهن ما جعلني أقر بأنهن مجاهدات ، وعلى ثغرة خطيرة من ثغر الإسلام. جزاهن الله الخير، وأقر أعينهن بصلاح أولادهن .

وكذلك للفتيات ، فيما يخص الجانب الأنثوي ودور المرأة في المجتمع الغربي ، وتربية الأبناء على الإسلام والأخلاق الحميدة دروسهن الخاصة ، قام بذلك المربيات الفاضلات ، يساعدهن في ذلك الأساتذة المحاضرون ، والقائمون على تربية الفتيات من المقيمين . فللفتيات نشاطهن المميز أثناء السنة ، وسعدت حين وجدت الفتيات في مخيم قريب من الفندق يشرف عليهن حراسةً وخدمةً طاقم كامل من المربين الجيدين.

الليلة الأخيرة هي ليلة السمر الجماعي والمؤانسة ، تمثيلات ، قصص قصيرة مبتكرة فيها دعاية ، أناشيد دينية ، وأغان محتشمة ، ومسابقات علمية ودينية متنوعة ..... ثم توزيع الهدايا على الفائزين بها، وعلى القائمين بخدمة المخيم .

وفي يوم الجمعة صباحاً أوصلتني الدكتورة أبو صبحي إلى مطار أنكونا ، ومنه إلى ميلانو حيث استقبلني المهندس " محمود عسفة " مهندس أردني درس في ميلانو وبقي فيها . سألته :  
لم فضلت الإقامة في بلاد الغربية ؟

قال: وجدت نفسي هنا

قلت: كيف ؟

قال: سأكون في إربد نقطة في بحر من الذين يعيشون ليأكلوا ويشربوا فقط.

قلت: وهنا ؟

قال: دعوة ، وشعور بالذات ، وإحساس بأنك تقوم بما يجب عليك تجاه المسلمين

وغيرهم.

هنا الحياة الحقيقية ، وهنا بناء لجيل سيكون -إن شاء الله - حزمة النور المنتشر في أرجاء أوروبا.

استضافني في بيته حتى حان وقت صلاة الجمعة وخطبتها ، فأخذني إلى ملعب مسقوف لكرة السلة وكرة الطائرة ، تابع لإحدى بلديات ميلانو... يستأجره المسلمون كل جمعة ساعتين فقط لإقامة شعائر صلاة الجمعة .... مُدَّت البسط وسجاجيد " الموكيت " . كان عدد المصلين يقارب الألف ، وكان موضوع الخطبة " تربية الأولاد في بلاد الغربية " .... استعدت ذكرياتي مع بعض الأصدقاء القدامى كالدكتور " بهاء الدين غريواتي " من حلب ، وهو متزوج من ابنة الأستاذ " كمال قدسي " الذي فر بدينه بعد أن قتل النظام المجرم في سورية ولديه المجاهدين الشهيدين عبد الله وعصام رحمهما الله تعالى رحمة واسعة وأسكنهما فسيح جناته .... ثم تغدينا في مطعم أخ فلسطيني سماه " مطعم القدس " قرب البلدية الرئيسية في ميلانو .

استغرقت الطائرة في طريق العودة ساعتين وربع الساعة في حين أن رحلة الذهاب إلى ميلانو كانت في ساعة ونصف الساعة .. لقد كانت الطائرة من الطراز القديم ، تمشي متمهلة وعلى ارتفاع اثني عشر ألف قدم ، يريني الأرض والبحيرات والانهار والغابات الكثيرة بشكل واضح وأرى الناس بسياراتهم ، وعلى أقدامهم كأنهم أمامي على شاشة التلفاز . لقد كانت رحلة ممتعة أنستني طول الرحلة وقصرت المدة.

استقبلني في المطار الأخ هشام القدسي أخو الشهيدين ، عبد الله وعصام ، وأخذني مباشرة إلى مغارة ضخمة للصواعد والنوازل - وقد سبقنا إليها جمع من أهل المخيم- ليس لها

في العالم مثل على ما أعتقد ، فطولها كما يقول الدليل أكثر من اثنين وعشرين كيلومترا ، ولا أدري مدى عرضها ، لكن تجولنا فيها لم يتجاوز الكيلومترات القليلة ، فالطرق متلوية . تدخل مرة كهفا ، ومرة تسير على جسر وقد يصل ارتفاع المغارة إلى سبعين مترا ، وإلى أكثر من ذلك أحيانا . جوها بارد طبعاً . ويتجاوز الصاعد أو النازل حجم شجرة ضخمة بارتفاعات شاهقة، وقد تصل إلى أشبار ، ويؤلف الماء بركا صغيرة وكبيرة . وقد تجد عشرين دليلا أو أكثر، مع كل دليل بين العشرين والثلاثين زائراً . مغارة ضخمة لم يكتشفوا بعد امتداداتها. فسبحان خالق الكون ومصوره .

### بريشا

تقع هذه المدينة الصناعية الجميلة في الوسط الأعلى من إيطاليا ، بين ميلانو التي تبعد عنها تسعين

كيلومترا ، ومدينة " تورنتو " في الشمال الشرقي قرب سويسرا المدينة التي يقطنها الدكتور أبو الخير بريغش ... بريشا تشعرك بالهدوء والطمأنينة ، كان فيها عام ألفين مخزن، فيه قبو .... هذا هو المركز الإسلامي فيها ، ويقع في حي ضيق .. يشتكي القاطنون فيه من بعض تصرفات المسلمين غير الواعية!!

يضع أحدهم سيارته في مكان غير مناسب مثلا ، أو يكثر من استعمال البوق بشكل مزعج ودون سبب ، أو يجلس على الرصيف فيخرج المارة ، أو يبيع الحشيش والمخدرات فيعطي انطباعا مقرفا عن المسلمين .. لأنه واحد منهم !! هذا بالإضافة إلى الجهل المستحکم في عقول البعض والمعشعش فيه . فتسعة أعشار المسلمين البالغ عددهم في إيطاليا مليوناً ونصف المليون من العرب المغاربة الذين يأتون تهربا إلى إيطاليا عن طريق مالطة من جهة



البحر، وهم عمال فقراء - والفقر ليس عيباً - إلا أنه لا يساعد على الدراسة والثقافة ، وهم مسلمون عاطفةً لا فهماً ، ومؤمنون وراثه لا عقيدة . حاشا أن يكونوا كلهم كذلك . ففيهم الدعاة العاملون العمالقة من أرى نفسي صغيراً أمامهم ، ولكنهم جنود للدعوة مجهولون ، سأذكر بعضهم حين أتحدث عن " جنوا " إن شاء الله تعالى . ولهذا السبب وغيره كانت المراكز الإسلامية المدارس الميدانية والحاضن الإيجابي الأصيل لهؤلاء الإخوة المهاجرين .

دعاني الدكتور " أيمن صباغ " رئيس المركز الإسلامي في بريشا وأنا في المخيم إلى قضاء رمضان القادم فيها ... وهكذا كان . نزلت في بيته ، فأهله في الإمارات . ويبعد المصلى عن بيته أكثر من كيلومتر واحد . تعرفت الطريق في الأيام الأولى ، ثم بدأت أذهب إليه وأعود منه مشياً على الأقدام . وكانت صلاة العشاء تقام بعد أذانه بساعتين أو أكثر حين ينتهي الناس من أعمالهم .

غالباً ما نصلي العصر جماعة ، بعدها درس في السيرة النبوية الشريفة ، أو قراءة في رياض الصالحين ، أو تفسير لسورة أو آيات ، أو فقه الصيام ...

أما الإفطار ففي بيوتات الإخوة ، وأكثرهم - كما ذكرت - من المغرب ، وكانت " الحريرة " أول ما يتناولها الصائم بعد التمر ، وهي ثقيلة على معدتي لأنها دسمة ، وكان طعمها لذيداً . ثم نقوم لصلاة المغرب ، ثم الخبز الذي لا يخبز إلا في رمضان ، وقد يخلط بالحبّة السوداء أو شيء يشبهها ، ثم المقبلات ، بعدها الطعام غير الرئيسيّ ... أما الكسكس والمرق فبد الانتهاء من العشاء وقيام الليل . إلا أنهم يقدمون كل شيء قبل الصلاة حين نفطر عندهم لأننا لن نستطيع العودة بعد الصلاة ، إلا إذا كنا نفطر في بيت قريب من سكنانا .

كان الإمام مغربياً حافظاً للقرآن الكريم، قد هذبه القرآن ، يصلي فينا الصلوات كلها،

فروضها وقيام الليل ، وكانت الخواطر منتصفَ صلاة " التراويح " . وقد لا تتعدى ربع الساعة  
أما إذا كانت محاضرةً فقبل صلاة الوتر .

وصارت صلاة الفجر يومي السبت والأحد تقام في المصلّى حتى يعتاد المصلون ارتياده في  
أغلب الصلوات.

كنت أجد كثيرا من الشباب قلبه معلق بالمصلّى فأحمد الله على ذلك ، وأدعو لهم  
بالثبات على الدين والتزام التقوى .... دعاني بعض الشباب العزاب إلى الإفطار عندهم فلبيت  
راغبا التعرف على أحوالهم على سجيّتهم وطبيعتهم .... دخلت البيت فإذا فيه أكثر من  
خمسة عشر شاباً ، كلهم صائم والحمد لله ، فلما حان وقت الإفطار وأفطرنا على تمرات قاموا  
إلى الصلاة جميعاً ، اغرورقت عيناى بالدموع .. لك الحمد يارب أن هديتهم في هذه الغربة إلى  
التقوى والصلاح . وتذكرت حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : ليبلغنّ هذا الدين  
ما بلغ الليل والنهار ...

وليصلنّ هذا الدين روما ففتحنّ كما فتحت القسطنطينية ، ولن يكون هذا الفتح بين  
عشية وضحاها ، إن له مبشرات ومقدّمات وإرهاصات ، وليدخلن كثير من الإيطاليين  
الإسلام ، ولن يكون غريبا ، وسيعيشه الكثير واقعا لا حلما ، حتى يأذن الله بالفتح المبين .

كان حلم الإخوة القائمين على العمل الإسلامي أن يكون لهم مركز إسلامي كبير يجمع  
شتات المسلمين في هذه المنطقة ، والحلم يحتاج إلى سعي ، والسعي يتطلب همة ومغامرة  
وتخطيطا . ففي الأيام الأخيرة من رمضان عشر الإخوة على مساحة من الأرض على تقاطع  
مهم في الطريق إلى ميلانو تبلغ أكثر من خمسة آلاف متر مربع ، أقيم على ألفي متر منها  
بناء ضخم من طابقين ، لكنه كان مهجوراً ، ، ليس فيه سوى الأعمدة والسقوف والجدران ،

يعيش فيه المشردون من اللصوص ومن يشابههم.... فرأوا فيه ضالتهم ، وسرعان ما شرح الله صدورهم له ، فاتفقوا على شرائه ، وبدأت التبرعات وعملية البناء .... زرتهم بعد سنتين فوجدت البناء يكاد يكون كاملاً ، المحراب يتسع لألف مصلي في الطابق الأرضي وفي السدّة ، أما في القسم الآخر فإنك تجد في أسفله غرف الإدارة والاستقبال ، أما فوق فست غرف دراسية .. أما دار الإمام فعلى السطح مشرفة على ما حولها ، وهناك غرفة تتسع لعدد من الضيوف الموسمين.

وكنت اقترحت على الإخوة أن يهتموا باستضافة الزائرين في المركز نفسه ، ما يوفر عليهم نفقة الفنادق الباهظة ومواصلات الذهاب والإياب والزمن ، ويهب فرصة أكبر للاستفادة منهم .فكان جناح الاستقبال جاهزا ، واستقبل الإخوة المسلمون فيه عام ألفين واثنين شيخين فاضلين.

كنا نזור المدن القريبة من بريشا في الأسبوع ثلاث مرات تقريبا في رمضان عام ألفين للميلاد ، ولعل القارئ يقول : لم لا تذكر السنة الهجرية ألفاً وأربع مئة وعشرين ، فرمضان منها لا من السنة الميلادية؟! .. فأقول : صدقت وأنت تعرف غلبة التاريخ الميلادي على كل شؤون حياتنا سوى التاريخ الذي لا بد منه لإقامة الشعائر الدينية ، من صيام وحج وزكاة...

نזור المدن القريبة ... نفطر في بيت أحد الإخوة .. ونتجاذب أطراف الحديث في أهداف المسلمين الإيطاليين خاصة والأوروبيين عامةً .وعن المشاكل التي يثيرها جهلة المسلمين من أصحاب الفهم الضيق والعقول القاصرة ، فتنعكس سلبا على المجتمع المسلم ، وربما يتسع الخرق على الراقع !! من ذلك أن رئيس البلدية في تلك المدينة ، ويتعذر استذكار اسمها بعد أربع سنوات من الزيارة تردد على مصلى المسلمين يريد بناء جسور معهم لخدمتهم ، وليكسب

أصواتهم في انتخابات البلدية القادمة ، فرحب به المسلمون والقائمون على شؤونهم ، وطلب من مسؤوليهم أن يزوروه في مكتبه ... وهناك وعدهم بأرض بينون مركزهم الثقافي عليها ، وأن البلدية ستقدم لهم مبلغا من المال يبدأون به مشروعهم.... وعاد هؤلاء مستبشرين يعرضون على إخوانهم في المصلّى ما جرى بينهم وبين رئيس البلدية ، وبعد أسبوع زاروه في مكتبه ففوجئوا أن بعض قاصري العقول ذهبوا إليه قائلين : نحن لا نحتاج إلى أموال المشركين في بناء مركزنا الإسلامي ...! ونسي هؤلاء أو جهلوا أنهم يعيشون بين ظهرائيهم ، وأن الدولة تأخذ الضرائب منهم كما تأخذها من بقية أطراف الشعب الإيطالي لتصرفها عليهم مرة أخرى، وأن هذا حق من حقوقهم!! ... وطلب إليهم أن يجمعوا صفوفهم ويكونوا رأيا واحداً ، فهو وإن كان يريد خدمتهم فإنه يسعى لخدمة نفسه أولاً ، ولا يريد أن يضيّع مستقبله السياسي.

ثم بعد صلاة العشاء محاضرة في رمضان والأخلاق الإسلامية - جعلنا الله تعالى من أصحابها - فقد روى الحسن عن الحسن عن أبي الحسن عن جد الحسن : أنّ أحسن الحسن الخلق الحسن .... أو في تربية الأبناء ، فهم أمانة في أعناقنا . والخلق الحسن يحببنا إلى الناس فيسمعون منا ، ثم يأخذون عنا ، " فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ... " .. مشاكل المسلمين كلها ناتجة عن جهلهم بدينهم ، وعدم اهتمامهم بتربية أبنائهم ... ترد على ذهني كثير منها قاصمة للظهر ، أذكر حادثة واحدة لتروا عميق المآسي التي يخلفها الجهل والغربة في غير بلاد المسلمين.

جاءني أحدهم شاكيا حين وجدني وحدي يبثني همّه الذي أثقل كاهله:

- ابنتي تريد أن تزورني ، وأنا أرفض ذلك رقضا قاطعا.
- لماذا وأنت أب ، والأب ينبغي أن يضرب مثلا في العطف والرحمة؟

- لقد تزوّجت دون إذن مَنّي.
- لئن أخطأت وعاقبتّها مدّة من الزمن للعفو عنها خير ، هل تسمح لأمها وإخوتها أن يزوروها ؟
- نعم ، ولكنني أقسمت بأغلظ الأيمان أن أتبرأ منها ، فليست ابنتي ، ولست أباهاً.
- وهل زوجها سيء إلى هذه الدرجة التي تجعلك ترفضه وترفضها بسببه ؟
- لا، أبداً ، هو الذي يدفعها إلى تجديد بناء العلاقة الأسرية وإعادة المياه إلى مجاريها.
- قلت في نفسي : هناك كلام يريد الرجل أن يقوله ، ولكنه لم يحسن التعبير عنه ، أو هو أمر جلل يمنعه أن يرميه وحده ، فلأشجعه.
- أهو نصرانيُّ ؟ ورغبت أن يقول : لا ، فترتاح نفسي.
- طفر الدمع من عينيه ، وهزّ رأسه بالإيجاب ، ثم قال : نعم.
- وكيف اختارته ؟ أين كنت ؟
- رفضت ذلك وهددتها ، وقلت لها : إنّه ليس منّا . فأعلنت أنّها تحبه.
- قلت لها إنه كافر . فلم تهتم بذلك ... ستكونين مثله... الحب أعمى قلبها.
- أيسعى هو إلى رضاكم ؟ ويريد وصالكم ؟
- نعم .. حاول ذلك مرارا.
- لم أشأ أن أزيد همومه ، فأقول له إن ابنته مرتدّة ، أوإنها لم تعرف الإسلام ابتداء...إنه هو الذي تركها لأهوائها وشهواتها ، ولم يعلمها دينها ، همّه أن يجمع المال ، وأن يشتري ما يلزم

البيت من طعام وشراب ...اهتم بأولاده مادّةً ، ولم يعلم أنه مسؤول عنهم وراعي لهم ... ونسي أن الرزق من عند الله ، وأن عليه أن يهتم بالدين والأخلاق قبل كل شيء .. فضيّع ابنته . وصحا إلى أبنائه الآخرين يجمعهم ويلم شتاتهم قبل أن يضيعوا جميعا. لكنّ الثمن كان باهظا.

- بُعدك عنها لن يعيدها إلى دينها ... لكن اغتتم رغبتها وزوجها في إرضائك .

ويبين لها بعد أن تأنس إليك عظيم ما ارتكبته ، وادعها وزوجها إلى الإسلام ، عسى الله أن يجعل هدايتهما على يديك . ثم اطلب من مسؤولي المركز أن يساعوك في ذلك ، وسأخبرهم بما جرى بيني وبينك ...

هذا غيض من فيض .... إن المسلمين في بلادهم يحتاجون إلى من يذكرهم دائما بالله ، ويدلهم على الطريق ، فما بالك بمن يجهلونه منهم ولا يجدون من يسدّد خطاهم ، ويأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب ، ويعينهم على فهم دينهم والعمل بمقتضاه ؟

ولا ننس أن الإضاءات المشرقة في بلاد الغرب كثيرة وتزايد بعون الله تعالى ، ليكون فتح القلوب والعقول مقدمة لفتح ما وعدنا به الله تعالى على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

أثناء بقائي في بريشا دعيت لخطبة الجمعة في ميلانو القريبة منها أكثر من مرة مما جعلني أتعرف عليها أكثر وعلى بعض المسلمين فيها ، فبدأت أتقبلها ، وقد كنت أنقبض كلما ذكرت أمامي أو دخلتها ، ولا أدري السبب ، وما كل شيء له تفسير ... ففيها عديد من الإخوة والأحباب يدعونني إليها فلا أجد في صدري رغبة في الذهاب ولكن الأمر بدأ يتغير ، وهذا دليل على أن الإنسان عدو ما يجهل.

استأجر الإخوة من بلدية بريشا خيمة ضخمة تتسع لأكثر من خمسة عشر ألفاً . لإقامة

شعائر صلاة عيد الفطر ، وكان العيد يوم الجمعة ، فامتألت كلها وبقي كثير من الناس خارجها ، وكانت الخطبة عن التعايش الإنساني بين المسلمين والنصارى ، فكان تجاوب راعي الأبرشية هناك إيجابيا وكان لقاءات بين الطرفين جيدة . صلينا بعد طلوع الشمس بساعتين ، وانتظرنا إلى وقت الظهر فصلينا الجمعة وكانت اللقاءات الودية بين المسلمين تثلج الصدر . ثم انطلقنا جماعات إلى مطاعم يشرف عليها المسلمون نتغذى ونقضي يوما ممتعا في زيارات لأماكن سياحية جميلة.

وفي اليوم التالي كان موعد الناس رائعا ، يلتقي الأصدقاء من مدن مختلفة متباعدة في مكان وسط يجمعها ، فتقضي يوما بأكمله يفرغون فيه أشواقهم ، أو قل يجددون فيه أشواقهم هذه ، وهناك لقاءات للجالية المسلمة - وذكرت كلمة الجالية لأنها ما عادت هذه الأيام تحمل معنى الجلاء والعودة - متعددة . منها

### مؤتمر ريمني السنوي

" ريمني " مدينة سياحية على بحر الأدرياتيك تحت أنكونا وفينيسيا ، صغيرة مشهورة في أوروبا بكثرة فنادقها وملاهيها وخماراتها ونوادي القمار فيها ، يقصدها السياح في الصيف فيعبون من الشهوة الحرام التي يجدونها هناك على قدم وساق يذكي أوارها شياطين الإنس والجن ... وترى الناس سكارى ، وهم في الحقيقة سكارى . لا يدرون ما ينتظرهم من عذاب الله الأليم.

في هذا المكان بالذات ، وفي منتصف الشتاء القارس تنقلب الأمور ثلاثة أيام بلياليها من فسق وفساد إلى تقوى وذكر لله تعالى ، فإلى القرب من النهر بعيدا عن البحر بناء ضخمة فيه قاعة كبيرة تتسع للآلاف من الناس ، بملحقاتها من قاعة للطعام وكافتيريا واستراحة يجتمع

الدعاة من المسلمين ، مع أسرهم في عطلة رأس السنة ، فتزدحم بهم على اتساعها وتزدهر كثير من الفنادق بروادها المسلمين ، فتقول سبحان مغير الأحوال . وتساءل الله تعالى أن تكون المدينة طول السنة هكذا ،

عدد المؤتمرين في رمي أكبر بكثير من عددهم في المخيم الصيفي في أرشيفيا وقد يصل إلى خمسة آلاف أو أعلى ، فالجميع في عطلة ، والمؤتمر ثلاثة أيام لا ثمانية . من ٢٦ كانون الأول إلى ٢٩ منه ووافق هذا مثيله في رمضان ، فدعيت إليه وألقيت فيه محاضرة وخاطرة . وكان من الأساتذة الذين دُعوا إلى المؤتمر الشيخ الأردني " عبد الفتاح أبوزنط " وكان جريئا في طرح الأفكار ، ولعله كان يبالغ في الاعتداد بنفسه أيضا . وحضر من الجزائر والمغرب أستاذان كريمان أفاد جميعهم جزاهم الله كل خير .

ومن الأمور الحسنة أيضا أن يصلي الناس الفجر في بهو الفندق الذي ينزلون فيه ، ومن ثمَّ خاطرة قد تطول أو محاضرة ، فتجد الفندق كأنه خلية نحل .

طهارة يمتاز بها المسلمون أينما كانوا وحيثما حلوا ، لا يريدوا الفاسقون الضالون فقديما قال قوم لوط غير راغبين بهذا النبي الكريم ولا بأهله وأتباعه: " أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون " . وحديثا قالها الفرنسيون على لسان رئيسهم ، ثم على لسان أحد أعضاء برلمانهم : هؤلاء المسلمون يأبون الاتصال الجنسي بين المراهقين والمراهقات ويدعون — بزعمهم — إلى الطهر والفضيلة .

وإلى اللقاء إن شاء الله في إيطاليا — ٣ —





### إيطاليا ( ٣ )

دعاني الإخوة المسؤولون في اتحاد الجمعيات والهيئات الإسلامية إلى مخيمهم السنوي في أرشيفيا قرب مدينة " أنكونا " على شاطئ البحر الأدرياتيكي للمرة الثالثة - وقد لقيت بفضل الله تعالى قبولا لديهم . عام ألفين واثنين . وصحبني في رحلتي هذه زوجتي مدعوّة لا مرافقة، فهي من حفظة القرآن الكريم ، والمدرسة الأولى للغة العربية في الإمارات ، ثم الموجهة لها ... لتلقي على النساء في المخيم بعض المحاضرات والعظات .

استقبلني الإخوة وكأنني واحد من المقيمين هناك ، فما عدت غريبا عنهم بعد الزيارات المتكررة لمخيماتهم ومؤتمراتهم ومدنهم، وسرعان ما اندمجنا في الترتيبات الأولية ، فقد وصلنا قبل يوم من بدء المخيم، وتعرفت أم حسان إلى النساء فأحبتهن وأحببنا ، وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المسلم ألف مألوف " . وذكّر صلى الله عليه وسلم كلمة " ألف " قبل مألوف " لأن على المسلم أن يسارع في الاندماج بإخوانه ويتحجب إليهم فتكون المبادرة الأولى منه ، فيأمنسون إليه ، ويزول منه حذرهم ، ويتقبلونه بينهم.

أرسلت رابطة العالم الإسلامي إلى المخيم ثلاثة من موظفيها مشاركين في المخيم ، وكانوا شبابا في مقتبل العمر، قليلي الخبرة في الحياة الاجتماعية، وتبرعت للمخيم بخمسة آلاف دولار، واشترطت على إدارة المخيم .. أو اشترط هؤلاء باسمها:

١. أن تكون المحاضرة الأولى اليومية لأحدهم.
٢. أن يكون مبيتهم في أحد فنادق أنكونا الجيدة.
٣. أن يُخصص لهم سيارة تقلهم إلى المدن القريبة ( سياحة ).

٤. وعلى هذا فطعامهم في الفندق أو في مطاهم المدينة وحيثما يصلون في جولاتهم...  
قَبِلَ القائمون على المخيم هذه الشروط على أن يُصرف على " جحا " ما تبرع به !!!  
ولا يطلب من أحد إلا ما يستطيعه ويرضاه، وما قدم هؤلاء إلا للفرجة والنزهة على  
حساب منظمتهم .. ولم يأتوا دعاء !! وإلا لزموا المخيم وبنوا علاقة طيبة مع المسلمين فيه ،  
وعاشوا كما يعيش الآخرون وتحسسوا آمالهم وآلامهم ، والداعية حريص على لقاء إخوانه  
والتقرب إليهم ، يغتنم هذه الفرص ولا يضيّعها .. أما أن تكون المحاضرة الأولى يومياً  
لأحدهم، ثم يسرعون بالمغادرة ، ولا يلتقون أحداً ، وسيارةً .. ووو .. فعلى مثل هذه المنظمة  
أن تتقي الله في الدعوة إليه واتخاذ الأساليب الصحيحة ، وإرسال القدوة الواعي الغيور على  
الإسلام والدعوة إليه.

عن هذا المخيم غاب جماعة العدل والإحسان المغربية التي أسسها الشيخ عبد السلام  
ياسين .

لأنهم اصطدموا بالجماعة المغربية الأخرى ..... ومن المؤسف أن بعض المحاضرين  
الذين قدموا في المخيمين السابقين من كلا الجماعتين - بدل الدعوة إلى الله ونبذ الخلافات  
بين المسلمين داخل المغرب - أججوا الصراع بين الفريقين ونقلوا الخلاف خارجه ، وهذا يدل  
على التخلف الذي يعانيه المسلمون تفكيراً ، ويعيشونه واقعا..!!

خطبتُ الجمعة في مدينة فلورنسا ، ويسميتها الإيطاليون " فرنز " كان المصلى ضيقاً على  
شكل مستطيل متطاوّل، يتسع بالكاد لمئتي مصل . وهذه المدينة ملتقى مواصلات الخط  
الحديدي القادم إليها من الجهات الثلاث الرئيسة ، الشمال الشرقي والغرب والجنوب. يمر فيها  
نهر عريض ، جسره الضخم منازل قديمة . وكنائسها ضخمة وقديمة وكثيرة ، لكنها تشكو من

تناقص المصلين المطّرد . وهذا العزوف عن الكنائس جعل القائمين عليها يبيعون الكثير منها . وبعضها على أجهتها وفخامتها لا يؤمها أحد ، فهي مغلقة . ولما رأى رجال الدين النصارى أن بعضها ينقلب مساجد وتُزال بعضُ معالم الشرك فيها تنادوا إلى منع بيعها للمسلمين ، ونادوا بالثبور وعظائم الأمور ، واتخذوا قرارا بهذا المنع . وقد زرت مسجدا في بلدة " بادوفا " هو جزء من كنيسة كبيرة دفعها صاحبها لمقاول رمم الكنيسة ، فباعها للمقاول للمسلمين في هذه المدينة ، فبني مسجد المدينة عليه .... وقامت الدنيا .. ثم قعدت ... وإلى جانب المسجد في بادوفا نهر متوسط المجرى غزير المياه . والمدينة قريبة إلى " فينيسيا " ضافنا في بادوفا الدكتور الحلبي " عبد الله الباش " أبو محمود والتاجر اللطيف " مصطفى جبل " أبو أسامة الذي صحبنا وزوجته الفاضلة في زيارة إلى مدينة فينيسيا في عصر يوم مشمس بعد انتهاء مخيم أرشيفيا.

رغب بعض الشباب أن أزورهم في رمضان في مدينة " جنوا " الساحلية القريبة من الحدود الفرنسية ، ويبدأ رمضان في العشرين من تشرين الثاني ٢٠٠٢ للميلاد. ... حملتنا الطائرة إلى مطار ميلانو ، فوصلناه عصر اليوم الثاني من رمضان ١٤٢٢ للهجرة ..... قال موطف الاستقبال : إلى أين ؟

- إلى جنوا ... المركز الإسلامي فيها..... نظر في التأشيرتين متفحصاً وكنا قد استصدرناهما في الصيف من القنصلية الإيطالية صالحتين عدة مرات ولمدة ستة أشهر حين دعانا الدكتور محمد نور دشان إلى مخيم أرشيفيا قرب أنكونا . قال:

- لكن تأشيرتيكما للمركز الإسلامي في أنكونا ، وأنتما ذاهبان لجنوا.

- هما تابعان لاتحاد الجمعيات والهيئات الإسلامية.

- تفضلاً معي إلى الضابط المناوب ، هو المخول بإدخالكما.

دخلنا غرفة كبيرة فيها منضدتان ، إلى إحداهما يجلس ضابط عرض الموظف عليه الأمر فقال بلكنة إيطالية مفهومة:

" - رمدان .. رمدان أي رمضان ، وأشار إلى درج فيه ختم ، فأخرجه الموظف وختم به الجوازين وسلمنا إياهما....

استقبلنا أخ مغربي لطيف السميت ، بسام المحيا ، " عبد الحميد " وسلم علينا بتهذيب ثم قادنا إلى سيارته القديمة ، وانطلق بنا على طريق جنوا ... توقفت السيارة على الطريق بعد مسيرة ربع ساعة .. قد تعطل جهاز الكهرباء فيها، وحاول أن يكلم أحدهم في جنوا لكن بطاقة الهاتف ما عادت ترسل لكنها تستقبل ... نظرت إلى أم حسان فوجدتها قابضة وراءنا مسترخية، كأن الأمر لا يعينها . السيارات تمر إلى جانبنا مسرعة ، والشرطة - وقد حل الظلام - لم ترنا فلم تقترب منا .

- ماذا ستفعل يا عبد الحميد؟

- أنتظر الأخ إدريساً ، فهو من أرسلني.

- وما تظن أنه فاعل إذا كلمك ؟

- يأتينا بسيارته ليأخذكما ثم أتدبر أمر السيارة.

- كم المسافة بين ميلانو وجنوا ؟

- أكثر من مئتي كيلو متر ، وحوالي الساعتين

- هل معك ماء نشرب، فنحن صائمان ، وقد دخل العشاء ؟

- آسف جدا ، فما كنت أظن أننا سننقطع ، كنت سأقف عند أول مقهى كي

نظرت.

قلت في نفسي ليس من المعقول أن ننتظر ساعتين بعد أن يخطر ببال إدريس أن يتصل!  
ومتى سيتصل؟... التفتُّ إلى عبد الحميد قائلاً:

- خذ هذا الرقم . فإذا كلمك إدريس فأعطه إياه ليتصل بالدكتور ماهر قباقيجي  
في ميلانو ، واذكر له المكان الذي نحن فيه كي يدلّه عليه ، وليعطه رقم هاتفك، فسيأتينا فوراً  
أن شاء الله ، فأبو عبد الله صاحب مروءة ونجدة.

وانتظرنا ربع الساعة فاتصل إدريس يسأل عنا ... ثم اتصل ماهر بعده بدقائق يستفسر  
عن مكان وقوف السيارة ، وكان قريباً منا فجاءنا على التو ، ومعه " ونش " ليحمل السيارة  
إلى مكان آمن ، ثم حملنا بسيارته -جزاه الله خيراً - إلى عيادته .... وهناك أفطرنا بعد ثلاث  
ساعات من أذان المغرب ، وصلينا المغرب والعشاء .. وجاء الاخ إدريس حفظه الله تعالى من  
حنوا وحملنا إليها ، فوصلناها بعد منتصف الليل.

نزلنا " موتيلا " وهو فندق صغير ، يشغل المستأجر فيه غرفة وتوابع لها من حمام ومطبخ  
مدة ليست بالفصيرة ، فيشعر أنه في بيت لا فندق ، لكن أم حسان لم تطبخ فيه سوى  
مرات قليلة . وكان جلّ إفطارنا في بيوت المصلين الذين يصرون على دعوتنا جزاهم الله خيراً  
... كان المكان بعيداً عن المصلى ، وأخونا عبد الحميد يوصلنا إليه وإلى منازل الآخرين . ولم  
نجرب الذهاب إلى المصلى والعودة منه في الحافلة إلّا في أواخر إقامتنا في جنوا. وقد سألتهم  
عن سبب استضافتنا بعيداً عن المصلى فأفادوا أنه أرخص وأوسع . والحقيقة أنه ليس أرخص  
من وسط المدينة إذا أُضيف إلى أجرة المكان تخصيص مرافق لنا يقوم بإيصالنا ، بل هو أغلى  
بكثير . وقد يتأخر عبد الحميد أو غيره فنصل إلى المصلى متأخرين أو لا نصل .

جنوا مدينة ساحلية متطاولة على شاطئ البحر المتوسط ،قد تمتدّ طولاً أكثر من أربعين كيلومترا، لكن عرضها لا يتجاوز خمسة كيلومترات ، فهي ساحلية جبلية ، ترى نفسك في طرقها وشوارعها طالعا نازلا ، وهذه الطرقات ضيقة متعرجة ، والأبنية يعلو بعضها بعضا في نسق عجيب . وفوق الوديان جسور تصل بين الحواري والأحياء السكنية . والمسافة بينها وبين مدينة " كرامة التي استضافنا في بيته هناك أحونا هشام قدسي تبلغ تسعين كيلو مترا ، الأنفاق بينهما التي تخترق الجبال العالية تبلغ الستين نفقاَ!... ولأن الطرق ضيقة متعرجة فسياراتهم صغيرة الحجم تفيد في حرية الحركة وسهولتها وتناسب المواقع الصغيرة . أما حدائقهم فعلى شريط الساحل مرتبة جميلة ، لا تسمو إلى جمال حدائق المدن الشمالية . ويكثر في المدينة العمال الغرباء ويقل المثقفون فيهم ، ، فعلى سبيل المثال لم أجد فيها من الأطباء المسلمين المترددين على المصلى أحدا ،على الرغم أنهم كثيرون في المدن الشمالية . وهناك مهندس واحد هو الأخ " حسين " فلسطيني من غزة ، ودارس دكتوراه فلسفة من الكويت ، والأخ " محمد حنون " مندوب إحدى الجمعيات الفلسطينية - على ما أعتقد- ، والمئات منهم بعد ذلك عمال ... وبينهم كثير من أهل البوسنة والهرسك الذين فروا من الاستئصال المتعمد الذي مارسه الصرب والكروات في بدابة التسعينات من القرن الماضي .

أخبرني الأخ الدكتور " بهاء الدين غريواتي " المقيم في ميلانو أنه استأجر وبعض المسلمين - لا يتجاوز عددهم سبعة- حين كان في جنوا هذا المصلى عام ألف وتسع مئة وتسعة وسبعين بمبلغ بسيط ، وكان صاحب البناية رجلا عجوزا كريما أحبهم لأخلاقهم وبعدهم عن المفاسد ،فكان يمهلهم في السداد ، وقد يضع عنهم بعض الإيجار ..... والمصلى مخزن أسفل بناء كبير ذي طوابق عديدة في وسط البلدة ، يُصعد إليه قرابة الثلاثين درجة ، فهو قائم على

تل مرتفع ليس صحياً تماماً ، لكنه متسع قليلاً ، ففيه بهو متوسط وغرفة للإدارة ، ومصلى للنساء ، وغرفة للأطفال ، ومصلى للرجال يتسع لأكثر من ثلاث مئة مصليّ.

مات الرجل العجوز وورثه ابن أخته - في الستين من عمره - كان يزيد الأجرة عليهم كل سنة ثم طالبهم بالخروج من المبنى، واستصدر حكماً بذلك ، فأغلقت البلدية المصلى صباح السادس والعشرين من رمضان ١٤٢١ قبل سنة من زيارتي هذه - ليلة القدر - بالشمع الأمر ، فكان صدمة للمسلمين في جنوا ، قاموا على إثرها باعتصام أمام البلدية ، واتفقوا بكفالة رئيس البلدية على تمديد فترة الإيجار سنة ونصف السنة فقط . وكم كانت فرحتهم بقيام ليلة القدر في المصلى نفسه ، وكان هذا فتحاً من الله يشكر عليه الشكر الجزيل ويُحمد.... ولما شعروا بوجوب البديل بحثوا عنه فوجدوه في بناء في مكان قريب من المصلى يتسع نصفه لخمس مئة مصليّ ، والنصف الآخر للدور الأسفل فيه حُطط أن يكون للإدارة ومنزلاً للضيوف ، أما الدور الثاني فللإمام...

هكذا كان المخطط حين غادرتهم نهاية رمضان. وقد يسر المولى سبحانه دفع ثمنه كاملاً، وهم يحتاجون أكثر مما دفعوه من ثمن ليصبح صالحاً لإقامة الشعائر واستقبال الزائرين. إنّ وجودَ إمام متخصص وداعية مقيم في المسجد لأهمّ للمسلمين في بلاد الغرب من أي اختصاص آخر . فهو - إن كان داعية - جمع المسلمين في منطقتهم ، وكان مبعث النور فيها ، يرجعون إليه في علاقاتهم الاجتماعية والدينية ... وإنه لمن المؤسف أن ترى مدينة مثل " بادوفا " عام ألفين واثنين ، والمسجد ملك للجالية المسلمة - وهناك تحدّ لهم - أن يجعلوا إمامهم شاباً ليس فيه من ميزات سوى أنه عذب يحتاج غرفة صغيرة في المسجد ويرضى براتب زهيد ثم يكنس المسجد وينظفه !! فإذا وجد عملاً أفضل تركهم دون أن يخبرهم !! وحتجتهم في

ذلك أن الناس لا يتبرعون لراتب إمام متخصص... .. حين زرتم وكان لي عندهم محاضرة لم

أجد أكثر من ستة أشخاص !!! لماذا ، وقد دعوتوني ؟

قالوا: لم يعتد الناس على وجود أنشطة في المسجد .

قلت: لو أنكم استعنتم برجل نذر نفسه لله وللدعوة ، وأمّنتم له سكنا لا ثقا ، وراتبا

مقبولا لجمع الناس ، فأفادهم ووثقوا به والتزموا المسجد وأنشطته ، وتبرعوا للمسجد بسخاء

نفسٍ وأريحية... .

لم يكن الإخوة في جنوا حين قدمت إليهم قد دفعوا من ثمن بناء مسجد المستقبل سوى

الثلث ويعادل أربعين ألف يورو ، وينبغي أن يكملوا الثمن في آخر رمضان ، وإلا ضاع العربون

ونخسروا المكان . وجمع ما تبقى من المال من العمال أمر مستحيل .... بدأت أحث المصلين

على التبرع كل يوم في منتصف صلاة التراويح ، ثم اقترحت على أعضاء الإدارة أن نزور المدن

الصغيرة الأخرى حول جنوا، فأصلي بهم العشاء والتراويح ، وألقي محاضرة ، ثم نجمع التبرعات

لهذا المشروع . . . وهكذا كان فيوما نبقى في جنوا، ويوما نذهب إلى غيرها ، ثم كثفنا الذهاب

إلى المدن مبعدين ، وجعلت ثلاثة أيام فقط في الأسبوع لجنوا . وكان الإخوة في كل مكان

ذهبنا إليه إيجابيين والحمد لله رب العالمين ، وتزداد التبرعات وتنتشي الأريحية في رمضان الكريم،

وفي الثلث الأخير منه على الأخص ، .. وجاء المدد من المراكز الكبيرة الغنية . وسافر الأخ

مسؤول المركز إلى دول الخليج ، عله يستفيد من أهلها ، ومعه ما يثبت صدق المشروع . . .

وكان الله في عون العباد حين يقصدون وجه الله تعالى . وسُدّد ثمن البناء في الموعد المحدد، فله

الحمد والمنة ، وله الفضل في كل شيء.

مواقف رائعة رأيته في هؤلاء الإخوة الأحباب، تعلن أن الخير يؤتي أكله كل حين بإذن



الله تعالى ، وأن النفس الإنسانية حين تُعامل بالحكمة والموعظة الحسنة تسمو وتبذل في سبيل الله الغالي والنفيس :

أحدهم يملك مطعمًا يقدم فيه شتى المأكولات الإيطالية والعربية ، يقصده الإيطاليون والعرب على حد سواء ، صاحب المطعم هذا قدم شابًا من مصر ، لم يرّبّه أهله التربية الصالحة قبل أن يدعوه يهيم على وجهه في بلاد الله الواسعة . فلم يكن له رادع يمنعه أن يقدم الخمر والنبيد ولحم الخنزير لذرائعهم ... وتفتح له الدنيا بابها الواسع ، ويكثر ماله ويتزوج إيطالية كانت تعمل نادلة في مطعمه أعجبه منها ما يعجب الشرقي من أدب وطاعة وجمال ... ثم يريد الله تعالى له الهداية فيأتي بعض من كان يتوسم فيهم الخير من أصحابه وأبناء دينه ووطنه يسألهم : كيف يرضي الله تعالى .... فيقولون له : باب التوبة مفتوح ، ولكن ينبغي أن تتخلص من مالك كله فهو مال نجس ، كنت تقدم للذرائع الخمر واللحم الحرام . ... وطن نفسه على التوبة .. أما أن يتخلى عن ماله كله فهذا يصعب عليه ، فقد أفنى سنوات من شبابه يسعى إلى جمعه .. إنه يريد أن يتوب صادقًا ، ويريد من أصحابه أن يعينوه على شيطانه . ولا يستطيع أن يعود عاملاً في مطاعم تباع الخمر وتقدم الأكل الحرام لطالبيه !!! كاد شيطانه يغلبه فيعود إلى سابق عهده ، وينغمس فيما كان فيه من فسق وفجور وفساد ، لكن بذرة الخير أبت أن تعود للضمور .. ويسألني:

- ماذا أفعل؟ تتقاذفني الأهواء لتبعدني عن التوبة ، وفي داخلي صوت الرحمن ينبهني إلى أن العمر يسارع، وأن الحياة إلى أفول ...

- الأمر بسيط يا أحمد وأسهل مما تتصور ، فديننا يسير لمن بدأ في السير على صراطه.

- ولكنهم أكدوا أن عليّ أن أتخلى عن جهد العمر كله ، وأعود إلى الصفر،  
فأنطلق من جديد.!

- أكنت تقدم في مطعمك الخمر والخنزير فقط ؟

- لا.. طبعاً ، فجل الأطعمة كانت شرقية وعربية ، .. وهناك المشروبات الغازية

والحلوى

- هذا يعني أن جُلَّ ماكنت تقدمه أكل حلال ؟

- نعم يا سيدي .. أوكد لك ذلك...

- وماذا يفعل الإنسان ليطهر ماله من الخبيث فيه ؟

- هذا ما أسألك عنه ، وأجدُّ في السؤال يا شيخخي.

- أمتنعتَ عن تقديم ما ليس حلالاً؟

- نعم ، وأقسم لك على ذلك ، وكل من يأتيني يعرف ذلك.

- ليس هناك من مشكلة . أكثر من الصدقات ، واستغفر الله تعالى وساعد المحتاج

.. هذا كل شيء .. قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن هذا الدين يسر.. وما شادَّ الدينَ  
أحدٌ إلا غلبه "

- أهذا كل ما يُطلب مني ؟ !

- نعم ، يا ولدي .. حين دخل المشركون الإسلام وزكت نفوسهم امتنعوا عما

يغضب الله تعالى وتصدقوا ودفَعوا زكاة أموالهم ، وصاروا من الدعاة .. وأنت الآن تائب ترجو  
غفران الله ورحمته ، وتسابق إلى رضوانه.

حين كنت قبل صلاة الوتر أدعو الرجال والنساء إلى التبرع لشراء المسجد كنت أجده

كل يوم يبذل المال عن سماحة نفس ، وحين تقدم امرأة قطعة ذهب - وكنّ كثيرات حفظهن الله وأزواجهن وأولادهن - هدية منها للمسجد ، فأعرض هذه القطعة للبيع أراه يشتريها بأضعاف ثمنها ، ثم يعيدها هدية للمسجد مرة أخرى ..... ويجتهد في الدعاء أن يغفر الله له ، وأن يرزقه الرزق الحلال... وأبتسم له وأشجعه ، فالإنسان يحتاج للمؤازرة والتشجيع .

لا أدري كيف يتشدد الدعاء ، وقد أمروا أن ييسروا ولا يعسروا ! وأن يقربوا ولا ينفروا ، وأن يحببوا الدين إلى الناس ، وأن يزرعوا حب الله تعالى قي قلوبهم قبل التخويف منه .

أحد المواظبين على الصف الأول في المصلى حريص على أن يرافقه ولده في رمضان وغيره في صلاته ، وحريص على أن يكلمه بالعربية ، ويقضي الصيف في مصر - فهو مصري - مع أسرته ليصل بينها وبين الأهل وعاداتهم ، والبلد وتاريخه .... يقول لي بحرقه وألم شديدين :

- جئت إيطاليا شاباً يافعاً، لا أعرف من أمور ديني شيئاً ، فوجدت ما يريد المتفلت، فانغمست في كل شيء لا أحرم ولا أحلل . وصاحبت إيطالية كانت لي زوجة دون عقد . فهذا دأب الإيطاليين والغرب عامة . ورزقت منها ثلاثة أولاد ، هذا - وأشار إلى صبي في الثامنة - أكبرهم ..... قلت لأم الأولاد سأذهب إلى القاهرة لأتوب وأتزوج . قالت :

- وأنا أألت زوجتك ؟

- لا بد من عقد وزواج من امرأة مسلمة ، فأنا أريد أن أتوب إلى الله .

- لقد وحت فيك منذ تعرفت عليك الرجل المحب لي المتفاني في خدمة أسرته .

- وأنا وجدت فيك المرأة المحبة لي ولأولادنا .

- فما الذي طرأ وتريد بسببه خراب أسرنا ؟

- بقائي معك زنا ، وأنا أريد امرأة مسلمة أعاشها بالحلال .

- أنا أعلن إسلامي بل أدخل فيه عن طواعية ، لنبقى معا نربي أولادنا.  
كان جوابها يقطر حبا واحتراما . ورغبة في دوام الرابطة إلى الأبد . وسافرنا إلى القاهرة ،  
وعرضنا أمرنا على بعض علمائنا ، فأسلمت زوجتي وعقدت عليها ... لكن هم حين سألتهم  
أن يسجلوا أولادنا رفضوا ، فهم أبناء الزنا .... عنفوني ، واسمعوني قارص الكلام ، وقالوا إن  
هؤلاء أولاد زنا ، وأنهم ليسوا أولادي شرعاً! .. وعدت أدراجي حزينا كاسف البال ،  
منفطر الفؤاد . قلت له:

- بإمكانك أن تسجل زواجك مستدركا السنين السابقة.  
- فعلت ذلك، ومن ثم سجلت أولادي، وانتهى الأمر بين الناس وعلى الورق،  
ولكن أحقا

ليسوا أولادي؟ لا أرثهم ولا يرثونني؟

كان الموقف صعبا يحتاج إلى حكمة وفهم غابا عن أصحاب العلم والفتوى ممن أنبوه  
ووجوه فالرجل لم يكن في بلد مسلم ، ولم يكن ملتزما بدينه ، وعاش مع امرأة أخلصت له،  
وأخلص لها ، ولم تسلم نفسها لغيره طيلة هذه السنين ، وهذه الحياة الطبيعية لغير المسلمين .  
والإسلام يجب ما قبله . وكان زوجها فاسقا جاهلا ، ثم تاب إلى الله وأتاب . وتوبته تجب ما  
قبلها ، على أن نتذكر أنهما في غير بلاد المسلمين . ... ونسأل أنفسنا : ماذا نقول عن  
المشركين والكفار الذين أسلموا ، وأسلم معهم زوجاتهم وأبنائهم ؟!!! ألم تبق الأسرة هي  
الأسرة ؟ واعترف الإسلام بالأمر الواقع المنطقي ؟

- إن ولدك يشبهك يا أخي كثيرا ، أليس كذلك ؟  
- ضحك ولف ولده ، وقبله ، ثم ضمه إلى صدره يشمه .

- من هذا يا ولدي يا سعيد ؟ وهل تحبه كثيرا ؟
- هو بابا.... وأنا أحبه أيضا ، وأحب ماما كذلك.
- إنه ولدك يا أخي ، وأنت أبوه ، يرثك بعد العمر الطويل ، وأسأل الله سبحانه أن يجعله من الصالحين العاملين بما يرضيه تعالى .
- كانت فرحة الأب بابنه وأبنائه جميعاً لا توصف . فما ينبغ للمفتي أن يسرع بالفتوى إلا بعد تدقيق وتمحيص ، ودراية بزمان الفتوى ومكانها.
- جاءني قبل سفري بأيام يقول:
- لم تصم زوجتي رمضان كله ، ولم تصل الصلوات المكتوبة كلها . أطلقها لأنها مرتدة ؟
- وهل أعلنت ارتدادها صراحة ؟
- لا .. كلما سألتها هذا السؤال بادرت إلى النفي . لكن من لا يصوم ولا يصلي مرتد فعلا وإن أنكر ذلك قولاً.
- لا تتسرع . أحبها أم لا ؟ أتريدها معك أم لا ؟.
- أحبها وأرجو لها الهداية ، فهي محبة مطيعة.
- اعلم يا أخي أنها إنما أسلمت لأنها تحبك ، ولتبقى معك ومع أبنائها . فافرق بها، وأعنها على دينها ، وعلى فهمه ، وحببه إليها ، وعاملها باللطف والحنان ... وإياك أن تتركها ... إن شيطانها ينتظر أن تهملها ليزداد وسواسه فيها ... فكن عوناً لها عليه ، إنها بحاجة إليك ، وأولادكما بحاجة إليها وإليك كذلك ، والزمن والمتابعة وطلب العون من الله كفيل بتقويم كل اعوجاج .

ولعلي وجدت في إخوان جنوا أمثلة رائعة لا تقل في اهتمامها بالدين والعمل له عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل إن أصحابه صلى الله عليه وسلم وجدوا على الخير أعوانا، ولم يجد هؤلاء على الخير أعوانا ، فهؤلاء أحبابه ، وأولئك أصحابه .

من هؤلاء الشباب الأخ " إدريس " المغربي نائب رئيس المركز الإسلامي في جنوا ، شاب في الثلاثين من عمره . جاء إلى إيطاليا للدراسة الجامعية بعد أن نال الثانوية العامة في المغرب ، ودرس سنتين ثم انقطع عن الدراسة لضيق اليد ، وبدأ يعمل في شركة كبيرة في جنوا لتنظيف المؤسسات والأماكن العامة ، ويحمل أدوات التنظيف ، ويجلو الأراضي والأماكن ... ثم يأخذ بيده كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم فيجلو قلبه و قلوب إخوانه المسلمين من درن الحياة اليومية ويعمل مع إخوانه الدعاة في الدعوة إلى الله تعالى في صفوف الجالية المسلمة والإيطاليين الذين يعمل معهم . ورعايتهم ، ويقود مع رئيس المركز وأعضائه مسيرة الخير والعطاء .

رأيته يقضي الساعات الطويلة في خدمة إخوانه في رمضان فسألته: أتركت عملك يا

أخي ؟

فأجاب مبتسما وقد فهم ما أرمي إليه : لم أتركه ، ولكنني كنت أكثر من العمل الإضافي

قبل رمضان حتى إذا ما جاء موسم العبادة تفرغت تقريبا لهذا الشهر الكريم .

كان جوابه جوابَ من يرى الدنيا معبرا للآخرة عليه أن يجوزه بأخف التكاليف المادية

وأثقلها معنى وفائدة وثواباً .. أما زوجته فكانت نعم الرفيق الذي يؤازره ويشد على يديه

ويدفعه إلى المزيد من الأداء الجيد ... فالدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة .

دعانا إلا بيته القريب من المسجد لنفطر عنده ذات يوم . أتدرون حجم بيتهما الذي

يؤويهما وولديهما الصغيرين!!؟ هذا البيت المؤلف من ممر، جعلاً منه مطبخاً وغرفتين

صغيرتين؟

.... لم تكن مساحته تتجاوز ثلاثين متراً ... نعم ، بل أقل من ذلك إذا لم تخب حساباتي ! فما يسمّى غرفة الضيوف حين جلسنا فيها وأمامنا سفرة الطعام - وكانت ابنته الصغيرة نائمة فيها على فراش صغير يناسب حجم ابنة أربع سنوات - وسعتنا أنا وهو فقط دون زيادة.....

وكان وزوجته وولده رفاقنا في أكثر الجولات في المدن التي قصدناها لإلقاء المحاضرات وقيام الليل والتعرف على المسلمين فيها . كان سعيداً قانعاً بما قسم الله له . رضي النفس ، باسم الوجه ، طلق المحيا . حفظه الله وأجزل مثوبته. .... كذلك كان رئيس المركز الأخ الفلسطيني ، وأظن اسمه أسامة - إن أسعفتني الذاكرة - عملاقاً في جسمه الطويل الممتلئ ، جميل الخلق والخلق . يعمل بائعاً أميناً للحم في متجر قريب من المصلّى ، وإدارياً ناجحاً أميناً في المركز الإسلامي .. يعطيان وإخوانهما أسوة رائعة ، وقدوة صالحة ، ويشبتون أن المسلم - أيّاً كان - مثال حي واقعي للإنسانية الرائدة إلى الحق وإلى صراط مستقيم.....



## إيطاليا ( ٤ )

اتصل بي قبل رمضان ١٤٢٥ بأيام السيد " رضوان " ولا أقصد خازن الجنان ! فلست على هذا المستوى من التقوى ، لكنه الأخ الفاضل رئيس إدارة مسجد " بولونيا " في إيطاليا التي بت أشتاق إليها وأحن إلى أيامها ، فقد كانت زيارتي إليها موفقة ورغبتني في التواصل مع أهلها من المسلمين متنامياً ... يسألني الأخ الكريم إن كان بالإمكان أن أحل ضيفا عليهم في هذا الشهر المبارك ، ورغبتني في الدعوة أن أم المؤمنين قد ترافقني . و " قد " هذه للتحقيق ، فوافقت راغبا رغبة المشتاق إلى أحبابه ، وهم أحبائي لا شك ، فقد عرفتهم منذ سبع عشرة سنة أو أكثر ، وفي بولونيا على الأخص . كما أن زيارتي الأولى إلى إيطاليا كانت في شهر تشرين الأول من عام ألف وتسع مئة وثمانين من القرن المنصرف . . . فعهدي بهذا البلد -إذاً- ربع قرن من الزمان .. وإذا تأصلت الصلة بين الإنسان وأرض الله - أينما كانت - ذكريات وعلاقات إنسانية وإخوانية ودعوية تولد اندماج وتفاعل إيجابي يعمق الصلة ويدفع إلى اللقاء المتناسق بين خلق الله سبحانه إنسانا وحيوانا وجمادات ... وعلى هذا قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لجبل أحد حين ارتجف : " اثبت أحد، اثبت . فإن فوقك نبياً وصديقاً وشهيداً " . وقد كان معه الثلاثة الكرام أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وذو النورين عثمان .. وتشرفني بذكر هؤلاء السادة العظام في هذا المقام مع رابعهم علي رضي الله عنهم جميعاً يعرج بي إلى كتابي " قصص رواها الصحابة رضي الله عنهم " فقد أهديتهم الكتاب فقلت :

إلى الصديق والفاروق أهدي      كتاباً صغته دُراً بعقدي

وذو النورين فاسمي من نده      ورابع هؤلاء الصيّد جدي



إليهم أنتمي قولاً وفعلاً  
فإن الحقُّ بهم فالوُدُّ ودي  
ولست بمدرِك منهم يسيراً  
ولكنَّ حبُّهم في الله سعدي  
فيا أصحاب خير الخلق عذراً  
فأنتم قدوتي ، والله قصدي  
عساني أبلغ الفردوس فيكم  
إلى الرحمن في جنات عدن

اصطحبت كتاب الدعوة الموجه إليّ وإلى السفارة في عمّان فأبرزته للقنصل مع الأوراق الثبوتية الأخرى ، فتجلّى توفيق الله تعالى لنا إذ لننا التأشيرة بعد أسبوع في السابع من رمضان وكان يوم الخميس ، ومن ثمّ حملتنا الطائرة الأردنية إلى روما في صبيحة اليوم التالي - الجمعة - ولم يكن في استقبالنا أحد . فبولونيا تبعد عن المطار قرابة خمس مئة كيلو متر ، ونحن نعرف الطريق إليها ، فقد سلكناه مرات عديدة . لكن الأمر اختلف هذه المرة ، فقد كنا ننتقل من المطار إلى روما بالحافلات أو السيارات ، أما الآن فالقطارات تنطلق إلى قلب المدينة العريقة من المطار نفسه . والذي يفرض علينا الإقرار بتقدم أوروبا أمور كثيرة منها : أن الحكومات فيها تسعى لاسترضاء الشعب في زيادة الخدمات وتحسينها ، وتحاول جهدها أن ترتفع بمستوى الحياة وتذلّلها للناس كي تكسب أصواتهم الانتخابية فتبقى في سدة الحكم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . أما حكومات البلاد العربية فقد كفت نفسها مؤنة التشبث بالحكم ، والتصقت به التصاق أوتاد الجبل بأعماق الأرض !

فلا حاجة للاهتمام براحة الشعب والسهر على مصالحه ما دامت مصالحها تتعاضم دونه .. فمدينتي حلب - مثلاً كانت زهرة المدن العربية نظافة وجمالاً ، وكانت عمان عاصمة الأردن قرية صغيرة إذا ما قورنت بها .. وبعد ثلاثة عقود من سيطرة الحزب الميمون . وكلمة الميمون اسم من أسماء القردة . ينفر منها الزائرون فهي كما- يزعمون . قرية كبيرة كثيبة المنظر

ظلت حبيسة القرن الماضي ، بينما تجدد عمان من أنضر العواصم العربية ... ومن مآثر الحكومات العربية الساهرة على أمن الوطن والمواطن أن أمريكا على الرغم من جورها تلتزم بقوانينها فلا تهشم عظام من تحقق معهم ولو كانوا عربا إن كانوا في بلادها ، وأوربا كذلك تلتزم بعضَ الحقوق الإنسانية ، وعلى هذا فقد تكفلت الحكومات العربية بهذا القدر من خدمة السادة الغربيين الذين يرسلون إليها هؤلاء المساكين لتطحن جماجمهم ، وتخلط لحمهم بعظامهم . فالقوانين السائدة في بلاد الإسلام والمسلمين أنه " لا حرمة للإسلام ولا للمسلمين...!!!! " .

استغرق الطريق إلى روما نصف الساعة ، وفي محطة القطارات الضخمة termini centrale انتظرنا القطار الذاهب إلى بولونيا أقل من نصف ساعة ، ثم حين ركبناه سار في موعده المحدد ينهب الأرض نهباً مخترقا الأنفاق الجبلية ، ومعتليا الجسور والأتجار لا يكمل ولا يمل حتى قطع أربع مئة وعشرين كم في ثلاث ساعات وعشرين دقيقة.

كان الأخ " دانيال " - الذي سمي نفسه بعد إسلامه " محمداً " وتزوج مصرية ، فأنجبت له عمر وعائشة وعاش في مصر سنتين . ينتظرنا في رصيف النزول ، فعرفناه وعرفنا دون سابق معرفة ، كما يلتقي الصديقان والأخوان بعد فراق ، يشتاق أحدهما للآخر ، فالإسلام جمع بين الأرواح المؤمنة ، فيعرف المسلم أخاه ببسر وسهولة ويتسمان ثم يتعانقان ، فقلباهما متعلقان بنور الله ، يفترقان ويجتمعان على ذلك ... يا الله ما أحلى الحب فيك ، يا الله ما أقوى الرباط في شرعك؟! يارب ، ، ، يا رب اجمع المسلمين على رضوان منك وحب في جلالك:

وأسأل ربي أن تسلما

أحن إليك أخي المسلما

ومن كل قلبي أن تنعما

وأرجو من الله في كل آنٍ

فأنت حبيبي وأنت صديقي	وأنت نصيري أن أظلمنا
وفيك الأخوة تثمر نوراً	وفيك الوداد كغيث همي
مصيري مصيرك حلواً ومرّاً	كلانا إلى المكرّمات انتمى
قضى الله أنّ الرباط العظيم	رباط العقيدة ، ما أكرما
يشد الأواصر بين العباد	ويحيي القلوب بشرع السما
وينشئ جيلاً قوياً عزيزاً	يطاول في العزة الأنجما
ويقتلع الكفر من جحره	وفي الله يبذل غالي الدّما
أراك على البعد مهما نأيت	بهذي الحياة لي التوأما
وأشقى إذا شمتُ فيك هواناً	حماك الإله وما أرغما
وترتاح نفسي إذا عشتَ حراً	وتسعد روحي أن تغنما
وأنت الشفاء لجرحي السقيم	وكنتَ له دائماً بلسما

كانت سيارة الأخ محمد دانيال قريبة من محطة القطار ينتظره هناك أخ بوسني هاجر إلى إيطاليا أثناء الحرب الصربية الكرواتية البوسنية فتلقفه وإخوانه المهاجرين الجالية المسلمة في إيطاليا فضربوا بذلك أروع الأمثلة في المحبة الإسلامية ، وقد حدثنا الدكتور محمد نور دشان رئيس الرابطة الإسلامية في إيطاليا حين كنا في مخيم أنكونا الصيفي عام ألفين ما فعلوه حين استقبلوا إخوانهم المهاجرين البوسنيين.

وصلنا المسجد بعد أذان العشاء بساعتين - في الثامنة والنصف - فتناولنا إفطارنا ذلك اليوم في مطعم المسجد ، حيث يفطر هناك يومياً ثلاثون مسلماً أو أكثر من فقرائهم ومن لا أسرة لهم ، وقد تجتمع عدة أسر تجلب معها إفطارها فيكون تظاهرة جميلة يشعر فيها الحاضرون

بنعمة الإسلام عليهم . ثم صليت وزوجتي المغرب جمع تأخير وأقيمت صلاة العشاء بعدها مباشرة في التاسعة ، وقد اعتزم الإخوان هناك تأخير صلاة العشاء والتراويح ليتسنى للكثير من المصلين حضور الصلاة في المسجد أيام رمضان المبارك. لم أشعر بالتعب فقد صليت فيهم العشاء والركعات الأربع الأولى من التراويح ، ثم كانت المحاضرة بين جزأي صلاة التراويح - وهي ثمان ركعات- يوميا في حدود الثلاثين دقيقة ، قد تزيد أحيانا. أما قبل صلاة العشاء بثلاث الساعة كل يوم فقد تعمدت أن أقرأ باباً من رياض الصالحين شارحا ومفسراً - أو مقطعا من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فنستشف ما وراء السطور من المواقف التربوية والإيمانية ، وكنت حريصا على أن يشاركني الحضور بعض التصورات والاستنتاجات ليتعودوا استنباط الفوائد وصيد الخواطر . وليس من عاداتي حيازة الحديث فهذا أدعى إلى غفلة الحضور وقلة الانتباه وضياع الفائدة . إن مشاركة الحضور في المحاضرة -إجمالاً- أدعى إلى اليقظة وحسن الفهم ، وهذا ما يريده المحاضر الحريص على وصول الفكرة إلى الأذهان.

كان المسجد على اتساعه في بنائه الجديد الذي صار جاهزا لاستقبال المصلين قبل بدء رمضان بشهر تقريبا يغص بالمصلين من كل بلدان العالم الإسلامي ، من الهند إلى المغرب إلى أمريكا... والحمد لله رب العالمين وكان الأخ " سعيد " المصري إماما له على مدى سنوات عدة إلى أن اعترفت الصحة الإيطالية بشهادته في " طب الأسنان " التي نالها من مصر ، فانتقل إلى عمله الجديد في اختصاصه ، وهم يبحثون عن إمام وخطيب لمسجدهم العامر في بلاد الإسلام الجديدة " إيطاليا " مدينة " بولونيا . "

كانت العشرة الأخيرة من رمضان دليلا على تمسك المصلين برمضان والفائدة من خيراته، شأنهم شأن المسلمين عامة يتعاملون بمنطق التاجر العجول الذي يريد اقتناص الربح

الكثير بالجهد القليل !! ولا يخلو هذا العمل من دفعات إيمانية متأصلة في نفوسهم ، كان عليّ أن أنفذ إليهم منها لأبيّن لهم أن رب رمضان هو رب الشهور كلها وأن عليهم أن يقوموا الصلة بالله عز وجل ، فيكون رمضان مدرسة للتهديب ونزح الران عن القلوب والأفئدة ، والثبات على عهدنا مع الله تعالى في السعي لرضاه .

في المسجد جماعة من المسلمين يحبون الإسلام لأنهم يحبون الله تعالى ، لكن أسلوبهم فج وطريقتهم غليظة فظة ، سببها الجهل بأمور الدين ويحسبون أنهم على هدى واضح ، يسيئون إلى الإسلام من حيث يريدون الدعوة إليه وينفرون الناس منه إن كانوا غير مسلمين ، وينفرون إخوانهم منهم لخلافة طبعهم وقصر نظرهم إلى الحياة وفهمهم المبتور لمقاصد الدين الحنيف ، أما القائمون على المسجد ففيهم الواعي المتفهم وفيهم الجاهل المتعالم ، فيكبل الثاني الأول ويخرب عليه وهو يظن أنه يحسن صنعاً . ولا يستطيع القسم الأول - الفاهم الواعي - أن يكبح جماح من معه لأنه عبء ثقيل عليه ، يخرب عليه عمله وبهذا يكون مقيد اليدين أمام الآخرين - أصحاب الأسلوب الفظ - وقد عانيت من القسمين اللذين كان بعض منهما يتراشق بالفاظ لا تنم عن ذوق ولا فهم ولا دين، والناس في الصلاة ! وكل منهم يحسب أنه يحسن صنعا . وهذا ناجم في أغلب الأحيان عن التسرع في التصرف ، وانعدام الحكمة ، وعن الجهل في العلم الشرعي ، فقد وجدوا أنفسهم في بلاد الغرب يكادون ويكاد أبناءهم يضيعون في آلة المادة الطاغية فتسئموا العمل الإسلامي وهم غير أهل لحمل هذه الرسالة فتعثروا تعثرا شديدا . وأعتقد أنهم إذا رزقوا داعية واعيا حكيماً وكانوا صادقين في دعوتهم - وأحسبهم كذلك - فسيكون للعمل الإسلامي على أيدي الصالحين منهم أثر إيجابي طيب إن شاء الله تعالى.

إن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قد وعد بفتح الروميتين ، وقد فتح الله تعالى على يد الخليفة محمد الفاتح القسطنطينية ، وليكون إن شاء الله على يد المسلمين الإيطاليين الفتح الثاني ، فالظهور السريع للإسلام في عقر دار النصرانية على مدى ثلاثة عقود من الزمان إرهاب واضح ودليل دامغ على صحة ما أخبرنا به الصادق الأمين ورسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولن يكون فتح روما إلا بعد مقدمات تمهد لهذا الفتح العظيم ، فالدعوة الإسلامية يتسع مداها ، والإيطاليون إن أحسنّا سبيل الدعوة أربعة أقسام:

أما القسم الأول فهم الذين أسلموا لله تعالى وملاً الإيمان أفئدتهم ، فهم منا ونحن منهم ، فإذا عرفوا الإسلام تمام المعرفة كانوا الدعاة إلى قومهم ، فقريش أعلم بشعابها ، ولكل قوم مفاتيح ، وهم أعلم بالطريقة إلى قلوب قومهم.

وأما القسم الثاني فأصحاب العقول الواعية التي تعرف الحق من الباطل لكن نفوسهم ضعيفة لا يُسلمون إلا أنهم لنا مناصرون ، ولقضيتنا داعمون ، ولا بد أن نعاملهم المعاملة الحضارية التي نكسب بها ودهم ونستميلهم إلينا.

وأما القسم الثالث فهم الذين وجدوا من المسلمين الأخلاق الحسان ، والأدب الجم ، والمعاملة الطيبة التي تجعلهم على الرغم من بعدهم عنا حيايين ، يكفوننا شرهم كما كفوننا برهم . وهذا ربح للعمل الإسلامي بطبيعة الحال .

أما القسم الرابع فهم شياطين الإنس الذين لا يرون في المسلمين إلا الأعداء الألداء ، فالقسم الأول كفيل بهم ، وقدما قالوا : لا يفل الحديد إلا الحديد . ولم يكن العرب كلهم مسلمين ، فلا غرو أن تجد من غيرهم من هو بعيد عن الإسلام .

إذا أراد الإنسان أن يزور بلدا مجرد التعرف إليه أو البقاء فيه مدة يسيرة لم يكلف نفسه

ما يكلفها من ينوي البقاء ويستوطنه ، ولعل من حكمة القدر وحتى يُمضي الله سبحانه وتعالى ما يريد سهل للعرب والمسلمين أن يهاجروا إلى إيطاليا وزين لهم أن يروها بلدهم ، فبدأوا باستئجار الصالات المناسبة لتكون مصليات يؤدون فيها صلواتهم اليومية ، ثم بدأوا منذ سنين بشراء بعض الكنائس المطروحة للبيع فقلبوها بعون الله مساجد ، أو الأبنية التي تصلح ابتداء لمثل ذلك ، ثم بدأوا يشترون الأراضي المناسبة لبناء المساجد في كل أنحاء إيطاليا كما يفعل إخوانهم في أوروبا فقد زرت مدينة صغيرة قرب بولونيا "باتزاني" وصليت فيهم وحاضرت بعنوان "اغتنام الفرص" وكان مسجدهم جميلا جدا وواسعا ، حوله مرافق المدينة متوفرة ، من يدخله ترتح نفسه ويسعد بما يرى من ترتيب واعتناء ، ويكاد المسجد على رحابته يمتلئ بالمصلين فتتذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام " ليلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ... " فتقول منشرح الصدر : صدقت يا حبيبي يا رسول الله .. وأزور مدينة جبلية تبعد عن بولونيا مئة كيلو متر " فركاتو " فأرى مسجدها يغص بالمصلين يقرأون قبل صلاة العشاء سورة مريم ، فأسلم عليهم وأعيش معهم على مدى نصف ساعة أدب إبراهيم عليه السلام في دعوته أباه والناس من حوله. ثم أصلي بهم العشاء ... وجاء الإمام يقرأ من سورة الأحزاب الركعات الأربع الأولى ، فعشت معهم في رحاب الأدب النبوي في بيت الزوجية نصف ساعة أخرى وأجزم أن الإسلام ألقى بجرانه في أوروبا ولا سيما إيطاليا فأقول : إن الفتح فتحان : الأول عقيدي ثقافي والثاني يأتي عما قريب تشريعا وقوة ... والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... وأزور مدينة " جنوة " العريقة على ساحل البحر المتوسط وهي تبعد ثلاث مئة كيلومتر جنوب غرب بولونيا وقد عشت فيها رمضان ١٤٢٢ فأخطب فيهم الجمعة وأجلس فيهم إلى ما بعد العصر ، نتذاكر تلك الأيام وما فعلوا في مسجدهم الجديد وعلاقتهم بغير

المسلمين فيدعوني الأخ " إدريس " نائب رئيس المسجد حفظه الله تعالى وهو اللولب الذي وهب نفسه الليل والنهار لخدمة دينه إلى الإفطار على مائدة جمعية نصرانية تدعو للسلام والوثام مع المسلمين ، فأحمد الله تعالى - وهو سبحانه أهل الحمد والثناء - أن جعل للإسلام مرتكزات قوية في عقر بلاد التشليث.

أما بولونيا فمدينة لطيفة تجمع بين القديم والحديث ، الأرصفة في منتصفها مسقوفة مقنطرة ، وكثرة الخانات فيها ملفت للنظر ، يذكرني بخانات حلب فخامة وتنظيما يحيط بها " المحلق " إحاطة السوار بالمعصم مارا بأبوابها القديمة . وفيها كذلك المسلة المائلة ، المدعمة بالإسمنت وهي بناء عال يذكر ببرج بيزا، لكن عرضها لا يتجاوز سبعة أمتار، وهي ذاهبة في العلو.

لم أر رغبة في زيارة كنيسة الضخمة إلا أننا زرنا كنيسة القديس " لوقا " وهي قائمة على سفح الجبل المطل على بولونيا فكنت وأنا في داخلها أرفع صوتي بقول " لاإله إلا الله محمد رسول الله " ولعل خوفي أن أموت فيها أو في إحداهن جعلني أستكف عن زيارة كنيسة بولونيا العريقة ... ومن اللطيف الغريب أن أخانا الحبيب "محمد الزرقاء " أبا جميل " المقيم فيها منذ ثلاثين سنة أخذنا إلى بناء قديم له أربعة زوايا تشكل مُربّعاً قطره عشرة أمتار ، وبين الزاويتين المتصالبتين مسافة أكبر ، إذا وقف اثنان رأس كل منهما إلى الزاوية ، وأعطى كل منهما ظهره للآخر وتكلما بصوت منخفض سمع الآخر حديثه بوضوح .

حدثني جمع من الإخوة في بولونيا أنهم رأوا من أفضال الله تعالى عليهم في مسجدهم القديم الصغير أن الجو مهما كان ممطرا والسماء مكفهرة ثم حان وقت صلاة الجمعة أو صلاة العيد فإنه يتحسن وقت الصلاة والخطبة ليتمكن الناس من أداء فريضة الجمعة أوسنة العيد ،



فيتوقف المطر، وتخف شدة الرياح . فإذا انقضت الصلاة عاد المطر كما كان أو أشد وعاودت  
الريح هبوبها ... حتى جاء يوم الأحد غرة شوال ١٤٢٥ قبل عشرة أيام من كتابة الرحلة -  
فهي طازجة كما ترون- والمطر ينزل بغزارة في بولونيا والبرد شديد ، .. والخيمة التي سمحت لنا  
بها البلدية كي نقيم فيها صلاة العيد تتسع لأقل من ثلاثة آلاف مصلي .... ورأيت الفضل  
المتكرر بأم عيني ... انقضت الغيوم في الساعة السابعة صباحاً ، أي قبل الصلاة بساعتين ،  
وكانت الشمس ترسل أشعتها على المكان فتظهر البهجة والبسمات على وجوه القوم  
وشفاهم وهدأت الريح ، فكان الجو لطيفاً تماماً واجتمع أكثر من عشرة آلاف مصلي نعم  
وأكثر من هذا العدد ، ثلثا المصلين خارج الخيمة يكبرون ويهللون ، والأولاد يلعبون ويقفزون ،  
صليت فيهم ثم خطبت ، ثم سلم المسلمون بعضهم على بعض ، وبدأوا بالانصراف جماعات  
إلى المطاعم والأندية ... تلبدت السماء بالغيوم واشتد عصف الرياح ثم انهمر المطر بغزارة  
يعوض ما فاتته ... سبحانك ربي سبحانك... الخير بيدك .. والفضل منك ... وأنت الرب  
المعبود والسيد الودود ، لا إله إلا أنت ... اللهم اجعل قلوبنا بك موصولة ، فلا قاطع لما  
وصلت ولا مانع لما أعطيت...

من أعظم اللحظات التي يعيشها المسلم في هذا الزمن الرديء أن يسمع ويرى دخول  
إنسان جديد في هذا الدين المبارك العظيم ، فيثبت إيمانه وتقوى عزيمته ويستمد حرارةً في  
الإيمان وبرودة في اليقين . فقبل صلاة العيد والناس يكبرون ويهللون ، ويتردد صدى هذا  
الإعلان الهادر في جنبات الخيمة وخارجها على بعد مئات الأمتار ، وبعض المسؤولين من غير  
المسلمين ضباطاً وجنوداً ينظمون السير وعملية الدخول إلى مصلى العيد يمسك بيدي أحد  
الإخوة المنظمين يقودني إلى المنصة فأخذ مكاني بين المكبرين والمهللين ، وقد قارب الوقت

التاسعة والنصف موعد صلاة العيد يتقدم أخ صومالي ومعه شاب أمريكي في الخامسة والعشرين من عمره يخبرني أن هذا الأمريكي الذي لا يعرف العربية ولا الإيطالية عازم على إعلان إسلامه والنطق بالشهادة . فقال : متى تسمح بإعلان إسلامه ؟

قلت : معاذ الله أن أكون من يسمح أ ويمنع ، إنما هو الله سبحانه يرى في عبده الخير ، ويراه يسعى إليه فيمده فيه ويدفعه إليه . " ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً"

قال : أي الوقت تراه مناسباً أن يعلن إسلامه فيه؟ قبل الصلاة والخطبة أو بعدهما ؟  
قلت مبتسماً : كنت أداعبك يا ولدي في هذا اليوم البهيج ... والأولى أن يعلن إسلامه قبيل الصلاة والناس حاضرون ليكون هذا الإعلان شاحناً لنفوسهم وقلوبهم . أما بعد الصلاة فالكثيرون منهم ينفتلون خارجين .... ولما قمت وأراد الناس القيام قلت لهم إن أخوا جديدا سيكسبه الإسلام وتكسبه الدعوة ، فسألته بالإنجليزية التي لا يحسن غيرها : أتقر بأن الله واحد لا شريك له ولا ولد ؟ وأن عيسى رسول الله وليس ولده ؟ وأن محمداً رسول الله ؟ فكان يؤكد ذلك ، ثم نطق الشهادة باللغة الإنجليزية وأنا ألقنه إياها ، ثم نطقها بالعربية فضج المصلون بالتكبير والتهليل ، وسلمنا عليه بسلام الإسلام وهنأناه بالهداية والإسلام . وقمنا إلى الصلاة فكانت أول صلاة له بعد الإسلام هداه الله تعالى وثبته على الصراط المستقيم . ... لكنني أهمس بقوة في آذان الدعوة أن ارعوا إخوانكم الجدد وراقبوهم وقدموا لهم العون ولا تتركوهم ، فكم من الناس أسلموا ثم ارتدوا حين تُركوا . فالله الله فيهم لا تدعوهم لشياطين الإنس والجن يفتنوهم ويضلونهم...

كان الإعلام الإيطالي هناك ورجال الأمن بيننا يسمعون ويتابعون الوضع باهتمام ...

تسألني صحفية عن الإرهاب في الإسلام : فقلت لها ليس المسلمون إرهابيين ، وليس في الإسلام إرهاب ، إن الإرهابيين من دخلوا بلادنا فدمروها وقتلوا أهلها . قالت فكيف رأيتم الإيطاليين ؟ قلت: حضاريين في بلادهم وأهل لطف . هداهم الله للإيمان ، وشكر لهم حسن ضيافتهم.

قضينا يوم العيد في منطقة جبلية . البرد شديد لكن الصالة دافئة ..الرجال في زاوية والنساء في زاوية أخرى والأولاد بينهم يلعبون ، وكل من الطرفين منشغل بالحديث الأخوي المنفتح الذي يقرب القلوب بعضها من بعض . ... لم يكن طعام العيد منسفاً أردنياً ، ولا مسخناً فلسطينياً ، ولا كبسة سعودية ، ولا بريانياً خليجياً ولا كبة سورية أو لبنانية ...لقد كان طعامنا في العيد " بيتزا إيطالية... "



## أمريكا ( ١ )

في الشهر الأول من عام ألفين وواحد للميلاد جاءني دعوة من رئيس مجلس أمناء المدارس الإسلامية في ولاية نيوجيرسي الأمريكية - وهي ولاية في الشمال الشرقي من الولايات الأمريكية المتحدة على حدود ولاية نيويورك - للاطلاع على مناهجها العربية والإسلامية.

انطلقت إلى " قلعة " السفارة الأمريكية في حي " عبدون " في مدينة عمان .. وهي بحق سور ضخمة على رابية كبيرة غرب المدينة مطل عليها ، حوله من كل الأطراف مسافة أمنية ممنوع تجاوزها، يحيط بها الحواجز الأمنية ، ممنوع وقوف السيارات أمامها ، بابها الأمامي الكبير مغلق .. ويفتح حين تخرج سيارات أولي الشأن! أو حين تدخلها بعد تفتيش دقيق يقوم به حرس السفارة من الأمريكيين أنفسهم - فهم لا يثقون بغيرهم - ... كان المكان مهيباً لا ترتاح له النفوس المبحولة على البساطة واليسر أمثالي ... أوقفت سيارتي بعيداً على جانب طريق فرعي غير ممهّد ، تكثرت فيه الحصا والحجارة ذي حفر متناثرة هنا وهناك ، لا تناسب خطورة المكان!! ولعلها كانت مقصودة توحى للزائرين بالحذر والرهبة فهم عند أبواب أقوى دولة في التاريخ كله . والدخول إليها صعب تتجلى أولى مصاعبه بهذا المنظر المهيب وموقف السيارات البعيد .. العشوائي ..

كان الناس - مع ذلك - طوابير يُعدّون بالمئات يأملون دخول هذا الصرح الكبير لينفذوا منه إلى دنيا الثراء والقوة!! فهناك الغنى والمال ، وفي بلادنا الفقر والكفاف . وهناك العزة والقوة ، وفي بلادنا الذل والفقر ... كانوا يقفون أمام بوابة شبه مغلقة عليها موظفون يسمحون بالدخول لاثنين أو ثلاثة بين آونة وأخرى .. وقفت في الطابور قريب الساعتين

والسلسلة أمامي تتناقص شيئاً فشيئاً حتى صرت أمامهم وبدا لي ساحة كبيرة أمام بناء عالٍ فيه أبواب الكترونية وغرفة ذات نافذة صغيرة ، حين وصلت إليها تفحصت الواقف فيها أوراقى ثم دُفعت إلى باب يفتش في الداخلون تفتيشاً دقيقاً خرجت منه إلى ساحة ممتدة ... ثم دخلت إلى حيث سبقني السابقون .. وقفت أمام طاوور آخر لكنه قصير وسريع يفضي إلى موظفة تأخذ الأوراق وإيصال المقابلة ، وقد كان خمسين دولاراً ، وقد صار بعد الحرب العراقية مئة دولار ليساهم العرب والمسلمون في العملية الديمقراطية الأمريكية لإخوتهم في بلاد الرافدين ... في عملية قيصرية أودت بمئات الألوف منهم ، وما تزال طاحونة المدنية الأمريكية حتى هذه اللحظة - وإلى أن يأذن الله بالفرج - تعمل فيهم خراباً ودماراً وإذلالاً ... وحسبنا الله ونعم الوكيل....

كانت الردهة طويلة والمراجعون يجلسون على كراس حديدية متلاصقة أمام سبع غرف زجاجية صغيرة أو أكثر متلاصقة يجلس فيها أمريكيون ينادي كل منهم اسم أحد المراجعين فإما أن تكون المقابلة طويلة ، وإما أن تنتهي في ثوان وتطير الخمسون دولاراً في " خبر كان " أو في " خبر ليس " فكلمة " ليس " أكثر تعبيراً من أختها ..

- لم ترغب في السفر إلى أمريكا ؟
- أرغب في زيارة أخي في مدينة كذا.
- لا ، هذا ليس مقنعاً ، إنك تريد البقاء هناك . نحن آسفون.

وينهي المقابلة.

ويسأل غيره :

- ماذا ستفعل في أمريكا ؟

- سياحة فأنا تاجر .
  - رصيدك على ما يبدو لا يكفي
  - معي الكثير بين يديّ " كاش "
  - لم تقنعنا .. آسفون .
- وتنتهي المقابلة ... مر أمامي أحد عشر مراجعاً على هذه الشاكلة ، فقلت في نفسي :  
 قد تكون الثاني عشر ، إنهم يطردون الناس طرداً ، بعد أن يسلبوهم البديل النقدي لهذه المقابلة  
 الكريمة !! وبدا لي أن أعود أدراجي ، فلا أقابل هؤلاء اللئام ... وقبل أن أتخذ قراري سمعت :
- " مستر أوتمان ماكنزي " إلى الكاونتر " أربأه " أربعة ..
- تقدمت إليه ولم أكلمه ، إنما قدمت له بطاقة الدعوة .
- ما الشهادة التي تحملها؟
  - قدّمت له صورة عن شهادتي الماجستير والدكتوراه .
  - ألك مؤلفات في اختصاصك ؟
  - هناك العديد منها.. وأريته بعضها .
- لم أترك له مجالاً لسؤال آخر ، إذ قدمت له جواز السفر المليء بتأشيرات إلى دول ال " شنجن " وبريطانيا ليطمئن أنني سأعود إلى عمّان دون أن ألتصق في بلاد العم سام السعيدة .
- قال للمترجم : اسأله عن سبب استعجاله في تقديم أوراقه ؟ .. ابتسم المترجم .. وسأل :
- قلت له : لقد صرف هذا المتعجرف الكثير قبلي ، فهو أشد سرعة مني .
- ضحك بعد أن أوصل له المعنى بتهذيب ، وقال : لقد علمني اللقاء اليومي للمراجعين  
 على مدى الأيام الطويلة السابقة أنواعهم ، واعتدت اختصار الوقت !! .. سأوافق على إعطائه

التأشيرة .. وأخذتها عصر اليوم نفسه عدة سفرات على مدى سنتين ... وفي اليوم التالي غيروا رأيهم فطلبوا جواز السفر ليلغوا هذا الكرم ، ويجعلوها سفرة واحدة فقط .

أقلعت الطائرة الأردنية من مطار الملكة علياء الدولي متجهة إلى " امستردام " محطتها الأولى ، فوصلتها في أربع ساعات ، لبثنا فيها ساعة ثم انطلقت بنا نحو الغرب إلى العالم الجديد .. استغرقت الرحلة في المرحلة الثانية ثماني ساعات لا أرى سوى الزرقتين - السماء والبحر - ... يارب ما أعظمك !! نحن في فضاء لطفك ، بين مخلوقين عظيمين من مخلوقاتك .. أقربهما تحتنا ، يبعد عنا أكثر من عشرة كيلومترات ، والآخر لا يدري بعده الحقيقي سواك ... أنت بارئه . وقد قال علماء الفلك : إن قطر السماء الدنيا مئة وأربعون مليار سنة ضوئية .. ثم أردفوا بقولهم : وقد يكون أضعاف ذلك ، والله أعلم ... وهذا من أدبهم مع الله سبحانه . فالإنسان مهما أوتي من علم فعلمه ظنيّ يحتاج أن يسدده المولى العالم بما خلق ... هذه السماء الدنيا للسماء الثانية كحلقة في فلاة ، والسماء الثانية للثالثة كحلقة في فلاة .... والسماء السابعة للعرش كحلقة في فلاة ، والعرش للكرسي كحلقة في فلاة ، والكرسي لعلم الله سبحانه كحلقة في فلاة ...!! وما قرأت قوله تعالى : " وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون " في حالة تفكر وتدبر وأنا أتصور الكون الفسيح بما حوى مقهوراً لله تعالى خاضعاً لعظمته - جل جلاله - إلا أخذتني هزة الحقير الصغير أمام العظيم الجليل . " فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله "

وحين غربت الشمس كانت الطائرة على مدرج مطار " نيويورك j-f-Kennedy " تلك المدينة الضخمة التي سأفرد لها مقطعا أثبت فيه مشاعري نحوها سلباً وإيجاباً ، على الرغم

أن كثيراً من الإخوة يعرفونها أكثر مني ، ولكن لكل امرئ أسلوبه ومشاعره ووجهة نظره فيما يرى ويسمع وقد تحب النفس ما يكرهه غيرها ، وتعجب بما يزدريه الآخرون.. .." والناس فيما يعشقون مذاهبُ. "

كان الدكتور " مروان عجم " المختص بالدواجن ، وزوج أخت الدكتور " محمد نور الدين خوام " رئيس مجلس أمناء المدارس الإسلامية في نيوجيرسي ورئيس مجلس شورى " مسجد البرودويي "broad way" " ينتظرنى حاملاً بالعربية كنيتي " أبا حسان " وإلى جواره " نبيل رحيم " أحد الشباب المصريين ، وكان طيب القلب لطيف المعشر بديناً ، يحمل معه أينما ذهب بطاقة " السيد " مفتخراً بها فهو ينتمي - كما يزعم - إلى سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه وأسرته بعيدون عن الحياة الإسلامية الهادفة ، ولا يعرف من الدين سوى الصلاة والعبادة ، وهو متزوج من نصرانية أمريكية تحب ولديها وزوجها ، وتخلص له ، فهي من نصارى يلتزمون الأخلاق وتقديس الزوج ، وينأى نساؤهم ورجالهم عن الزنا والفجور . ويتزوج الرجال منهم عدة نساء ، وينجبون الكثير من الذرية... ويحافظون في مجتمعاتهم المنغلقة على أعراف القبيلة .... والرجل " نبيل " بسيط التفكير، يحب خدمة إخوانه لكنه بعيد عن الدعوة ، وتأثيره في أسرته ضعيف . وهنا مكمّن الخطورة في انتقال الإنسان إلى الغرب المسيحي ، فلئن حافظ هناك على دينه فأولاده أو أولادهم ينشأون على دين النصرانية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أعرف أخاه الدكتور عبد القادر عجم ، فهو أصغر من مروان ، ويعمل طبيباً في إيطاليا، مدينة " بريشا " حين زرتها في رمضان منذ أربع سنوات - عام واحد وعشرين وأربع مئة وألف للهجرة ، توثقت العلاقة به وبأخيه عمر الذي يدرس المحاسبة الهندسية ، وهو شاب ظريف



ودود ، وذو أخلاق عالية إنهم بشكل عام يحبون الناس من حولهم ويمتازون بلطف المعشر وطيب السريرة وحب الخير ..... رفعت يدي لمروان من بعيد ، وسلمت عليه بابتسامة اخترقت الجموع الغفيرة ، فردّها بأحسن منها ... وما إن وصلت إليه حتى كان نبيل قد استقدم سيارته وساعدنا في حمل الحقائب.... وانطلقت سيارته بنا تخرق المدينة الشهيرة بجسورها وجزرها وشوارعها العريضة والضيقة ستين كيلو مترا حتى وصلنا إلى مدينة " باترسون " كبيرة مدن " نيو جيرسي " new jersey " غرب نيويورك

### نيويورك

كان " جيمس الثاني " - قبل أن يصبح آخر ملك يحكم بريطانيا قبل ثورة " كرومويل البيوريتانية " - يدعى " دوق يورك " ، وقد أطلق المستعمرون الإنجليز اسمه على المدينة التي انتزعوها من الهولنديين الذين بنوها فوق الغابات الخضراء وبين الأنهار والتلال وقرب المحيط، وسموها " نيو أمستردام " .

وكان " هنري هدسون " قد اكتشف المدينة في بداية القرن السابع عشر، ولهذا فقد أطلق اسمه على النهر الكبير بها، وكان الهولنديون قد اشتروا جزيرة " مانتاتن " بما لا يزيد عن ٢٤ دولارًا، دفعوها للهنود الحمر على شكل عقود من الخرز الرخيص .

وكما هو الحال في كل الولايات المتحدة، فقد توافدت الهجرات الأوروبية إلى المدينة بدءًا بالهولنديين والسويديين إلى الإنجليز إلى كل الباحثين عن مهرب خارج أوروبا التي كانت - آنذاك - قد مزقتها الحروب الداخلية .

كانت نيويورك عاصمة الولايات المتحدة

وكانت " نيويورك " عاصمة للولايات المتحدة الأمريكية لفترة من الزمان تزيد عن عام

كامل، كما كانت -ولا زالت- معبر البلاد الذي يستقبل كل وافد إليها وتقوم المدينة على جزيرتي "مانهاتن" و"ستاتن آيلاند" إضافة إلى "بروكلين" و"كوينز" و"برونكسن"، وبهذا تعد المدينة خمسة مدن، أشهرها جزيرة "مانهاتن" حيث إنها سوق هذه المدن، بل ومركزها التجاري والثقافي والفني والاجتماعي .

ويقوم على الجزء البحري من المدينة تمثال الحرية الأخضر اللون، الذي يحمل شعلته الشهيرة والتي تم تجديدها في ٤ يوليو عام ١٩٨٦، كما (كان) قائماً على جزيرة "مانهاتن" الطولية الشكل برجا مركز التجارة العالمي الذي كان يبلغ ارتفاع كل منهما ١١٠ أدوار .

كما يوجد بها مبنى "الإمباير ستيت" المشهور، الذي (عاد) أعلى مباني نيويورك بعد انهيار برجي مركز التجارة في ١١ سبتمبر، ويوجد بها أيضاً مبنى الأمم المتحدة وشارع "وول ستريت" الشهير، وبورصة نيويورك، والحي الصيني، وحديقة "سنترال بارك" وشارع "برودواي"، ومركز "لنكولن"، ومتحف "المنيروبوليتان"، وحي "هارلم"، وغيرها الكثير من الشوارع والجامعات والأحياء والمباني التي ضاقت بها أرض "مانهاتن"، فارتفعت مبانيها إلى عنان السماء .

أما "مانهاتن" فهي تعني -بلغة السكان الأصليين للبلاد (الهنود الحمر) - "أرض التلال"، وكان هؤلاء السكان يتراجعون أمام الغزو الأوروبي، فتم مصادرة أرضهم أو شراؤها بالفتات، إلا أن السكان الجدد كانوا يبقون -فقط- على الأسماء القديمة مثل "ماساتشوستس" و"الموهوك" وغيرها .

### مركز التجارة العالمي

أما مبنى مركز التجارة العالمي المكون من برجين، والذي تم الانتهاء من بنائه عام ١٩٧٣، فقد كان حاصلاً على الأرقام التالية :

\*بلغ ارتفاع المبنى ١٣٥٠ قدمًا، استُخدم في بنائه حوالي ٤٢٥ ألف ياردة مربعة من الأسمنت المسلح و٢٠٠ ألف طن من الحديد .

\*فتحت فيه ٤٣٦٠٠ نافذة، وكان يعمل في مكاتبه نحو ٥٠ ألف شخص، ويؤم المبنى يوميًا ٨٠ ألف زائر لقضاء مصالحهم وأعمالهم .

\*ومن فوق سطحه تستطيع رؤية أماكن تبعد حوالي ٥٣ ميلاً، كما يمكن رؤية مدينة "فيلادفيا" إذا كان الجو صحواً .

وعلى الرغم من كل هذه البنايات الشاهقة الكثيرة، فقد بقيت من ذكريات اللون الأخضر من نيويورك القديمة حديقة "سنترال بارك" الشهيرة بكونها إحدى أكبر وأضخم حدائق العالم، والممتدة في نهاية جزيرة "مانهاتن" .

### الشارع العريض

وفي نيويورك أيضًا أطول شارع في العالم، شارع المسارح والأضواء؛ تلك المسارح التي لا تشغل سوى جزء بسيط من شارع "برودواي" الذي يعني "الشارع العريض"، والذي يذكر اسمه أذهاننا بمسارح أمريكا الاستعراضية المبهرة خلال عقود الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين .

" قسمت " اسم عربي صار عنوان مسرحية تدور أحداثها في عصور العرب القديمة عُرضت لأول مرة على مسارح "برودواي" في عشرينيات القرن الماضي؛ حيث لم تكن صورة العربي كإرهابي أو بدوي جاهل قد انتشرت في سينما هوليوود، ولكن كانت الأجواء العربية في المسرح -بل والسينما أيضًا- عبارة عن سحر وغموض وقصور فخمة، أو خيام منصوبة في الصحراء، وفي جو رومانسي صافٍ رقيق .

نيويورك غثها أضعاف سمينها

\*حي هارلم أحد أشهر أحياء نيويورك، أخرج أعظم عازفي موسيقى "الجاز" في بداية القرن العشرين، وراقصي ديسكو الشوارع، وفريق "هارلم" العجيب لكرة السلة .  
وهناك حيان اثنان باسم "هارلم"؛ أسود وأسباني، وفي الحين بؤس كبير وضجيج موسيقى  
صاخبة وبيئة مصدرية للجريمة غير المنظمة .

إلا أن "حي هارلم" كان في بداية القرن الماضي سكن الأثرياء من اليهود أصحاب الملايين، وكان من أجمل أحياء المدينة وأغناها.

لم أشعر بالراحة حين كنت أزور المدينة لإلقاء محاضرة أو خطبة أو زيارة صديق ، فقد كنت أشعر بالغثيان وضيق في النفس والرئتين حين أرى ناطحات السحاب تمنع عني الهواء والشمس ، وحين أرى الأعداد الهائلة من الناس تملأ الشوارع جيئة وذهاباً ، فعدد سكانها خمسة عشر مليوناً فضلاً عن القادمين إليها نهاراً. كما أن معدّل الجريمة فيها كبير وفي وضوح النهار ، فالعصابات تنتشر في الأحياء الفقيرة بشكل مرعب، وفي غيرها بحيث لا يأمن الإنسان على نفسه ، وفي أنفاق المترو وفي الأماكن النائبة ، أما السرقات التي تصاحب القتل فحدّث ولا حرج . وهذا لا يعني أن المدن الأخرى ليس فيها مثل هذا الفساد ، إلا أنه في نيويورك أشد سوءاً . فشارع مارتن لوثر كنج والمنطقة الوسطى في حي هاليدون في باترسون ترى قطعان الأمريكيين السود في الشارع تغتتم غفلة من أعين الشرطة المتجولة فيهما لتقتنص غريباً، سرقة ونهباً وسلباً أو تقتحم محلاً تجارياً ولو أدى إلى القتل والقصص المتواترة في ذلك عجيبة تدل على الفراغ الروحي ، وعلى الفلتان الأمني .. وحين انقطعت الكهرباء في صيف عام ألفين وثلاثة أربع ساعات في نيو جيرسي ونيويورك وفيلادلفيا وواشنطن جرت ملايين

حوادث السطو والنهب فيها .. وكان الإخوة هناك في بداية وصولي إلى باترسون يجذرونني من السير بسيارتي في هذه الشوارع والأحياء ليلاً ، فإذا توقفت السيارة لأمر طارئ فما ينبغي أن أنزل منها ، وعليّ استدعاء الشرطة فوراً... هذه حقيقة التقدم والتطور في بلاد العم سام !! فهل في أشد بلاد المسلمن فساداً وسوءاً تجد مثل هذا؟!!

### باترسون

مدينة قديمة صناعية يتفرع عنها مدن صغيرة تتصل بها شأن البناء الأمريكي والأوروبي المتصل بعضه ببعض ، ليس فيها أبنية عالية ولا شوارع فخمة عريضة ، يخترقها نهر متوسط الحجم ، غزير المياه ، وحوها بحيرات كثيرة ، صغيرة الحجم وكبيرها ، وهي تعد بحق مخازن المياه في المنطقة . عدد سكانها يتجاوز نصف المليون ، منهم ما لا يقل عن خمسين ألف مسلم .. من معالمها

- الشارع الرئيسي " main street " يكثر فيه بشكل جليّ واضح المحلات العربية بلافتاتها التي تدل على غلبة العنصر العربي فيه مطاعم ودكاكين صغيرة وكبيرة وأفران الخبز العربي والحلوى والألبسة العربية والإسلامية والمواد المنزلية ، وصالونات الحلاقة والألكترونيات ، والمقاهي والمكتبات العربية ومكاتب الجرائد والمجلات العربية والمقاهي .....

- المساجد : وأكبرها مسجد ال " broad way " في نهاية شارع " مارتن لوثر كنج " marten louthier king street " " وقد كان كنيساً يهودياً ، اشترته الجالية الإسلامية بعد أن انتقل سكن اليهود من هذه المنطقة إلى منطقة أخرى أكثر حداثة وأبعد عن الناس ، وهذا دأب اليهود ، يناون بأنفسهم في " غيتات " خاصة بهم ولا يختلطون ب "

الأميين " . هذا المسجد يتسع لألف وخمسة مئة مصل ، وأمامه ساحة كبيرة للسيارات ، تفرش في الأعياد لاستقبال العدد المتزايد للمصلين . والمسجد يتألف من طابقين : الأول لصلاة الرجال ، ومن خلفهم النساء - في الصلوات الخمس - والثاني لصلاة النساء في الجمع ، وفي القسم العلوي جناح شرقي هو قاعة محاضرات واجتماعات . وتقام صلوات الأعياد أربع مرات أو أكثر لاستيعاب المصلين الكثر ، خطب إحدى هذه الصلوات باللغة الإنجليزية لمن لا يحسن العربية . . . . . ويعتبر هذا المسجد بحق قبلة المساجد في الولاية ، وما حولها من الولايات الأخرى لاتساعه وتعدد المناشط فيه . . . . . فبعد كل صلاة فجر خاطرة تتعدد مواضيعها كل يوم، إلا فجر الجمعة فدرس ثم قراءة سورة الكهف ثم إفطار جماعي لتألف القلوب والتعارف . . . . . وبعد كل صلاة عشاء خاطرة لأحد المتخصصين في العلوم الدينية وغيرها ، أما بين صلاتي المغرب والعشاء في كل من الأحد والثلاثاء والخميس فدرس فقهي وآخر في التفسير وثالث في السيرة . . . . . أما يوم الجمعة فدرس في التلاوة . يجتمع على كل هذه الدروس والمحاضرات عدد كبير يثلج الصدور ويريح القلوب . كما أن المسجد يقوم في هذه الغربة بما تقوم به المحاكم من عقود للزواج أو الطلاق، والجمعيات من إقامة الأفراح وتقبل التعازي ، يتخللها كلمات تناسب أدب الوقت . . . . . وكثيرا ما يستزير المسجد العلماء والمحاضرين والأدباء والمفكرين . . . . . ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه يستقبل المسلمين الجدد الذين يتوافدون لإعلان إسلامهم بازدياد مطرد يعكس اهتمام الناس بهذا الدين العظيم في أمريكا على الرغم من محاربتة بكل الوسائل والأساليب ، ولكن الله غالب على أمره . . . . . ألم يخبرنا الصادق المصدوق : " ليلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار"؟ فالبلوغ غير الوصول ، إن البلوغ يعني الاستيطان والثبات والانتشار والتمكّن ، والوصول قد لا يعينها كما البلوغ . وعلى هذا نفهم قوله تعالى " بلاغ . . . فهل

يهلك إلا القوم الفاسقون " ونفهم قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا هل بلغت ؟ " ولم يقل : هل أوصلت؟ كما قال : " ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب " وقال : " بلغوا عني ، ولو آية " ولم يقل أوصلوا... نعم سينتشر هذا الدين في كل أرض وتحت كل سماء ما بلغ الليل والنهار ، على الرغم من كيد الكائدين ومكر الماكرين ، لأنهم لن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله ... جل الله في علاه.

- وهناك بعض الأخطاء الكبيرة تحصل في بعض المساجد ففي مدينة " وين " " Wayne القريبة من باترسون مسجد للشركس تكثر فيه المفاسد ، ففي قاعته الرئيسية يزاولون رجالاً ونساء الرقص الشركسي ، وفيه " بوفيه " يلتقي عندها الشبان من الجنسين !! ويمنعون الدروس والمحاضرات في مسجدها ، فهو للصلاة فقط !!

أما اتصال المسلمين بغيرهم فيعتبر ضعيفا ، لا شك أن هناك بعض الوجود المسلم والعلائق مع الآخرين ولكنها ضعيفة إجمالاً بسبب تخلف المسلمين عن فهم الطرق الدعائية التي يتقنها اليهود ويتميزون بها .. فما من جالية إلا لها إذاعة محلية أو مجلات تعرّف المجتمع المحيط بهم ، أما مجلات العرب فبالعربية التي لا يحسنها غيرهم ، دون أبنائهم الذين لا يقرأونها كصوت العروبة " و " الزمان " في باترسون ، وهي أخبار محلية . أما " الزيتونة " مثلاً فتصدر كل أسبوعين في واشنطن على ما أظن وباللغة العربية فقط فلا يكاد يقرأها إلا القليل ، لأن أخبارها قديمة ولا تساير السرعة الإعلامية من قريب ولا بعيد ، وتصدر في بيئة لغة الناس فيها إنجليزية ، ولغة الصحيفة عربية !! وقد نبهت إلى ذلك فانطبق عليّ المثل المشهور " النصيحة فضيحة " وقلت في نفسي :

فلا تنصح إذا لم تلقَ آذانا

وصار الجوُّ بعد النصح بركانا  
فقولُ النصح بين الناس ما كانا  
سوى همٍّ يذيب القلب أحزاننا

كان الجو بارداً جداً في أوائل نيسان " إبريل " في " وين " Wayne حين حملتنا  
الطائرة إلى مدينة " شارلوت " في " كارولينا الشمالية " north Carolina " فوصلنا  
إليها قبيل المغرب حيث كان الجو دافئاً ولطيفاً استقبلنا الأخ الكتور عمر الإدلبي في بيت  
أحد أصدقائه ، وفعل خيراً إذ كان ومجموعة من الرجال والنساء في غرفتين متجاورتين  
يتدارسون آيات من القرآن الكريم ، فكان سرورنا في مشاركتهم والفرح باهتمام المسلمين  
بدينهم عظيمين .... ما أجمل أن يكون الإيمان والعمل الصالح رفيق المؤمنين في حياتهم  
.. صباحهم ومساءهم .. حلهم وترحالهم! .. كانت المدينة صورة مصغرة عن نيويورك بأبنيتها  
الشاهقة وشوارعها المنسقة . لكن الحلاوة أن تكون دار المرء بعيدة عن قلب المدينة ، حيث  
الهدوء والسكينة.

دعيت إلى مدينة " ديترويت " القريبة من " كندا " في أيار ، وكان الجو يميل إلى البرودة  
المنعشة فرأيت ما زاد يقيني بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانت نسبة المسلمين هناك  
كبيرة ، فسمعت صوت المؤذن يصدح في سماء المدينة ، وكأنك في بلد مسلم ، على العكس  
مما كان في باترسون فصوت الأذان لا يخرج من مساجدها.. قيل لي حين سألت عن سبب  
إعلان الأذان : أهل هذا الحي أكثرهم مسلمون . وكان عدد المصلين يوم الجمعة في مسجد  
اليمينين يقارب ألفين وخمس مئة .... كان " أبو راتب " المنشد الإسلامي المشهور يعمل  
مشرفاً على مادتي اللغة العربية والتربية الدينية في المدرسة الباكستانية الإسلامية . زرته فيها



فكانت بحق مدرسة نموذجية .... وزرناه في بيته ظهراً فأكرمنا بالأكل الحلبي ..الكبة واللحم بالعجين . وزرناه ليلاً فكان كرمه بالأناشيد التي استمتعنا بها وشاركناه فيها ، فصوتي مقبول جداً لا يهرب السامع منه على ما أعتقد.

من أجمل المناظر الطبيعية الوقوف على الطرف الغربي من نيوجيرسي المطل على نهر هيدسون الفاصل بينها وبين نيويورك قرب الجسر الواصل بينهما ناحية المركز التجاري العالمي .. ترى أمامك غابات الأبنية الشاهقة فتستمتع بها دون أن تنغمس في أتون الحركة الصارخة في قلب نيويورك الصاخبة التي لا تنام . وترى النهر العملاق الغزير يرمي بمياهه في جوف المحيط الفسيح ، فيتلاشى فيه مثل كأس صغير في بركة مترامية الأطراف ... ناديت ملء جوارحي:

شكراً لله ، وأحمده      فالنعم الثرة مورده  
والخير لديه يفيض بها      جوداً ، والكون يمجده  
معتزفاً أن الملك له      والكل بحق يعبده

.....

من سبع سماوات أوحى      ديناً كالشمس فوائده  
يقتاد ضليل الدرب إلى      نهج العرفان ويرشده  
وإلى الإيمان يسير به      وإلى الديان يوحدده

.....

من غير هدى تجد الإنسا      ن يتيه ويشعب مقصده  
لا مثل يرتاح إليها      لا ومض سناء يسعده

يتمسك في دنيا الأوها م بكل حُطام يفسده  
ويهيم بدنيا تجذبه نحو الأهواء وتقعده  
فإذا الأجل المحتوم أتى فإلى النيران تشرّده  
وإلى سقر تغلي حُمماً وإلى الأغلال تقيده

.....

يارب ارحمنا وأجرنا من "جمر" أوفى مُوقده  
وحشرنا في ظل العرش في يومٍ حقّ موعده  
فإليك القلب سما شوقاً وإلى عليك توذّده  
يرجو الغفران ومكرمة فعسى للنور تسدده  
بلسان الصدق أتى رَعْباً وبذكر الله يردده  
وبجبل الحقّ يشد عرا ه وجهه المخلص يَنشُدّه  
فاقبل يارب تضرعه فالأمل بجودك مَعقده

وهنا أدرك أبا حسان الصباح، فأوى إلى صلاته يرتاح ، ثم أطفأ القنديل والمصباح ،  
واتجه إلى ربه هادي الأرواح ، يسأله الفلاح والنجاح ، ويصلي على زين الملاح ويقول :  
"اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت  
ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك ... آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبئك الذي أرسلت ... "



## أمريكا ( ٢ )

حين غادرت حي " هاليدون " في مدينة " باترسون " إحدى مدن ولاية " نيوجيرسي " في شمال الولايات المتحدة يوم السادس والعشرين من أيار عام ألفين وواحد قدمت الإدارة المسؤولة عن المدارس الإسلامية طلب استقدامي للعمل فيها للدوائر المختصة في الولاية ... ولعل الروتين الشديد الذي تمتاز به معظم الدوائر الأمريكية جعل الموافقة على الطلب يستغرق سبعة أشهر . فقد اتصل بي الدكتور " الخوام " رئيس مجلس شورى هذه المدارس - وكنت في إيطاليا ، في مدينة " جنوا " أقضي شهر رمضان المبارك بدعوة من إدارة مسجدنا عام ألف وأربع مئة واثنين وعشرين للهجرة النبوية المباركة ... في شهر كانون الأول من السنة الميلادية نفسها يخبرني أن الموافقة تمت ، وأنه سيحمل الأوراق معه حين يسافر للحج ، أو يرسلها بالبريد السريع إلى عمان حين أعود إليها.

وصلت أوراق الموافقة في أواخر كانون الثاني للعام الميلادي الجديد ألفين واثنين ، وتريثت في استصدار تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة لسببين اثنين : أولهما أنني كنت أفاضل بين العمل فيها والعمل في " قطر " .. وثانيهما أن السنة الدراسية في نيوجيرسي أنهت شطرها الأول وبدأت الثاني منذ أيام .. وعلى هذا فعلي يبدأ في العام الدراسي المقبل ، ولن يكون لذهابي هناك فائدة تذكر . إلا أن الرجل زارني في عمان بعد حجه العتبات المقدسة ، وأكد على ضرورة الالتحاق بالعمل ! ، وأن هناك فائدة لوجودي .

قدمت الأوراق اللازمة للسفارة الأمريكية في عمان .... وكانت التأشيرتان على جوازي سفرنا في اليوم نفسه. .. لكن بطريق الخطأ كانت تأشيرتي على جواز سفر الزوجة وتأشيرة

الزوجة على جواز سفري ، فانتبهنا لذلك قبل السفر بأيام فعدت إلى السفارة ، فأصلحوا الأمر.

أقلتنا طائرة الملكية الأردنية في التاسع عشر من آذار إلى مطار " شانون " في أيرلندا " حيث وُضعتْ دمغة الدخول إلى نيويورك في المطار الأيرلندي ، وتابعت الطائرة إلى نيويورك ، فوصلناها بُعيد عصر المدينة ، فدلغنا سريعاً خارج المطار دون أن نرى الموظفين وراء نوافذ الاستقبال ، فقد أصبحنا منذ وضعت دمغة الدخول في إيرلندا من أهل أمريكا .... وكان الوقت في عمان منتصف الليل ... كان استقبال ضائفنا كريماً أزال عنا التعب بحسن ضيافته ، وكان الجو في مدينة " وين " في نيو جيرسي ثلجياً ، فهي - على ما يبدو - على خط موسكو الطولي ، وقد كان الجو في عمان التي تركناها ربيعياً.

ليس في أمريكا - إجمالاً - خطوط قطارات للتنقل الداخلي ، عدا المدن الكبرى ففيها بعض الخطوط التي لا تقارن بمثيلاتها في أوروبا " باريس ، ولندن ، وروما " . وعلى هذا يحتاج المرء استعمال الباصات ، وهي بدورها تكاد تنعدم في باترسون - وهي المدينة الكبيرة التي تتبعها " وين " - وما حولها ، فلا بدّ إذاً من استئجار سيارة أو شرائها ، فكان تبادل رخصة القيادة الإماراتية التي نحملها أمراً ضرورياً وسهلاً .

كان الداعي متسرعاً حين أكد على سفري ، فالعمل في المدارس منتظم ، والأمور مستقرة ، فكنت ضيفاً عليه قرابة الشهر ومن ثم على مسجد " البرادويي " ألقى خواطر بين الصلوات ، أو بعض المحاضرات . وأزور المساجد الأخرى .

قد تكون الضيافة للزائر مقبولة وإن طالت ، أما القادم للإقامة فيسعى للاستقرار في بيت يستره وعمل مستمر يندمج فيه ويقضي وقته في تنميته وتحسينه ... فهناك إذاً خمسة أشهر

على الأقل لا بد من عمل يملؤها ويدر دخلاً يفي بالحاجة ... وهكذا كان ... فقد عملت إماماً مساعداً مع محاضرات في التفسير والأساليب التربوية في القرآن والسنة والسيرة النبوية . فكانت اللقاءات في المسجد سبباً للتعرف على الكثير من المسلمين وعاداتهم ، والدخول إلى قلوبهم .

المسلمون المترددون على المساجد يكثرون يوماً بعد يوم على الرغم من إسفار المتشددين النصارى وجه الحقد والكراهية للعمل الإسلامى وللمسلمين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر- ولقد تضاعف أعداد الداخلين إلى الإسلام في العام ألفين واثنين أربعة أضعافهم عام ألفين وواحد . وقد يريد الله تعالى لأحدنا الخير فيهبئ له من يدفعه إلى هذا الدين القويم دفعاً.

فقد جاء إلى المسجد أحد الطلبة العرب النصارى من حلب - قدم وأخوه لدراسة ما بعد الثانوية في إحدى جامعات نيوجيرسي يسأل عن الإسلام الذي عاش في حلب بين أتباعه طفولته وصباه فلم يتأثر بأحد منهم .. جاء يسأل عن الدين الذي " ينتحر " ! أبناءه في سبيله فقد ضغط على هذا الفتى رفاقه في الجامعة واتهموه وأخاه بالإرهاب .. ولم يصدقوا بادئ الأمر أن من بين العرب من ليس مسلماً. .. فكنا نوضح له الإسلام ونعطيهِ بعض الكتب أحياناً .. جاءنا مرّات عدّة يسأل عما يُطرح عليه من أسئلة ليحيب عليها بعد أن يعيها ... ثم بدأ يسأل عما أشكل عليه ويناقش ليروي ظمأه ، فقد رأى في هذا الدين في بلاد الغربية ما لم يره حين كان في حلب بين المسلمين ! ولم يلبث أن أعلن إسلامه وإيمانه بهذا الدين الذي ملأ قلبه وعقله ، وتبعه أخوه بعد ثلاثة أشهر !!! ... وأمثاله مئات بل آلاف يدخلون الإسلام ويعتقونه عن حب وقناعة.

## البيت الجديد

كانت النصيحة أن نستأجر بيتاً بعيداً عن وسط المدينة لسببين، أولهما : أنه أكثر هدوءاً وأجمل موقعاً ، وأكثر ملاءمة لرجل وامرأته جاوزا الخمسين من عمرهما . وثانيهما : وهو الأهم .. الأمن والأمان بعيداً عن مساكن الزوج والأسبان ذوي المشاكل الأخلاقية التي تتجلى في القتل والسرقة وكثرة الضوضاء والإزعاج - وقد ذكرت بعضاً من هذا في " أمريكا - ١ - ... - نصف الأمريكيين يعيشون في مجمعات سكنية كبيرة ، " apartments " من أصغرها المنطقة التي سكنتها ، وهي مؤلفة من خمسة وعشرين بناء ، وفي كل بناء دوران فقط ، في كل دور عشر شقق ، يتجاور بناءان منها أو ثلاثة على شكل مستعمرة حولها الأرض الخضراء الممتدة يليها مواقف وفيرة للسيارات - بمعدّل موقفين لكل شقة - كما أن الطرقات بينها عريضة تصطف على جانبيها السيارات تاركة خطين مريحين للذهاب والإياب ، و لكل شقة " كراج " مقفل . ومن عادتهم أن البيوت تُؤجر غير مفروشة إلا المطبخ فهو كامل التأسيس بقطعه الكهربائية ماعدا الغسالة، فلا يسمح باستعمالها في الشقة لصوتها المزعج الذي يخترق الجدران والسقوف المصنوعة من الخشب و " الأترنيت " الخفيف الذي يجعلك تسمع أصوات جيرانك بانتباه بسيط . وبين كل مجموعة أبنية بناء طويل، فيه غسالات الثياب ونشافاتها ، بكمية متوفرة غالباً ما يتزاحم عليها المستأجرون يومي العطلة - السبت والأحد. -

كان أمام نافذة البيت شجرة ، أوراقها حين تزهر أواخر الشتاء بيضاء كالثلج ، ثم تخضّر، ثم تحمّر احمراراً أرجوانياً بديع المنظر في ألوانه الثلاثة الرائعة ، فسبحان من صوّرها وجلّالها للنظر . ولا علاقة للجيران بعضهم ببعض من قريب ولا بعيد سوى ابتسامة مصطنعة مع شقشقة الشفاه بصوت خافت يكاد يسمع " good morning " أو " "

" morning وحدها ، ولو ساعدت أحدهم بحمل شيء أو مداعبة طفله لرأى ذلك أمراً غريباً محبباً لم يعتده ، وشكرك من قلبه على ذلك اللطف الزائد!! ... وعلى عريهم لم أجد منهم امتعاضاً من حشمة الزوجة وعدم مصافحتي للنساء وزوجتي للرجال ، فكل منهم يعيش على هواه دون التدخل في خصائص الآخرين .

## واشنطن

واشنطن دي سي عاصمة الولايات الأمريكية المتحدة و هي عالم بذاتها فقد ذهبنا إلى كاييتول هيل وتجولنا فوق حشائش البيت الأبيض الخضراء حديقة رئيس الجمهورية وشاهدنا متحف الجو والفضاء العجيب و تمتعنا بجمال متحف الفن الوطني وركبنا تروولي المدينة القديمة وتعرفنا إلى كل المعالم الرئيسية من خلال رحلات متعددة منها:

## مبنى البنتاجون

البنتاجون اسم يطلق على سكرتارية الدفاع وقيادة الأركان العامة للقوات المسلحة في الولايات المتحدة الأمريكية وذلك بسبب شكل البناء الذي تعمل فيه هذه الاجهزة، وهو الشكل الهندسي الخماسي الاضلاع، والبنتاجون مقر وزارة الدفاع الاميركية، واحد من اكبر مباني المكاتب في العالم. ومساحته اكبر بثلاث مرات من المساحة الاجمالية لناطحة السحاب «إمباير ستيت» في نيويورك. ومبنى البنتاجون عبارة عن مدينة قائمة بذاتها، اذ يعمل فيه ٢٣ الف شخص تقريبا من المدنيين والعسكريين، يساهمون في وضع وتنفيذ خطط الدفاع عن الولايات المتحدة. ويحيط بالمبنى اكثر من ٢٠٠ فدان مخصصة لانتظار ٨٧٧٠ سيارة في ١٦ موقف سيارات. ويوجد بالمبنى ١٣١ سلما و ١٩ مصعدا للوصول الى المكاتب التي تصل

مساحتها الى أكثر من ٣.٧ ملايين قدم مربع .

ويجري العاملون في المبنى ٢٠٠ الف مكالمة هاتفية يوميا عن طريق شبكة هواتف يصل طول توصيلاتها الى ١٠٠ الف ميل. ويتعامل مكتب البريد في البنناجون مع ١.٢ مليون رسالة بريدية شهريا. المبنى غير عادي في تصميمه وقد تم تشييده خلال السنوات المبكرة من الحرب العالمية الثانية ويعتقد انه واحد من أكثر المكاتب كفاءة في العالم. وعلى الرغم من ان الطول الاجمالي للممرات داخل المبنى يصل الى ١٧.٥ ميلا فإن الانتقال بين أي نقطتين في المبنى لا يستغرق أكثر من سبع دقائق. وحل البنناجون محل أكثر من ١٧ من المباني التي كانت تستخدمها وزارة الحرب آنذاك .

## الكونجرس الامريكي

الكونجرس هو لفظ من كلمة لاتينية معناها مؤتمر، وتطلق على أي مجموعة من الناس تمثل هيئات أو أقاليم او دولا يجتمعون لمناقشة مشكلاتهم، ويمكن أن يسمى مثل هذا الاجتماع مؤتمرا. والكونجرس الامريكي هو المجلس التشريعي بالولايات المتحدة الامريكية، ومهمة سن القوانين للدولة، ويتألف الكونجرس من هيئتين تشريعتين هما :

. مجلس الشيوخ ويتكون من ١٠٠ مئة عضو، يمثل كل ولاية من الولايات الخمسين

شيخان (سيناتوران) .

. ومجلس النواب ويتكون من ٤٣٥ خمسة وثلاثين وأربع مئة عضو، ويتم انتخاب

الأعضاء أو النواب لهذا المجلس من مناطق انتخابية، ولا بد ان يكون لكل ولاية مقعد واحد على الاقل في مجلس النواب .

ويتمتع كلا المجلسين بسلطات متساوية تقريبا، كما انه يتم انتخاب اعضاء الكونجرس من



قبل الشعب. ويبدل المرشحون أموالاً طائلة للوصول إلى عضويته ، وقد قيل لي حين جرت الانتخابات عام ألفين وثلاث وكنت هناك في نيوجيرسي : " من امتلك المال وصل إلى ما يريد". وعضو الكونجرس له مكتب فخم في ولايته ، ويستطيع أن يفعل ما يفعله حاكم الولاية تقريباً ، ويقصده ذوو الحاجات لحاجاتهم .

قبل الحرب العراقية الأمريكية تظاهر مئات الآلاف أمام الكونجرس - وكنت وزوجتي منهم - ضد هذه الحرب الظالمة مرتين . ولكن الثقل الإسرائيلي والمنافع المادية كان وما يزال أكبر من الحقوق الإنسانية والدولية!! وما حقوق الإنسان في أمريكا والغرب الأوربي إلا أوهام يتعلق بها الضعيف دون جدوى ، ويستغلها القوي لمأربه وتمير مصالحه ومكتسباته التي يرمي إليها ، ويسعى لها .

## بوسطن

زرنا هذه المدينة في أيار ، والجو لطيف ، والطريق إليها من باترسون يستغرق أكثر من ساعات ثلاث نحو الشمال الشرقي على ساحل الأطلسي قريب الحدود الكندية يسترعي انتباه الزائرين المستعمرات المنغلقة للجاليات المتعددة ، فهناك مثلاً- منطقة تخص الصينيين ، فأسواقهم على طراز الأسواق الصينية ، وبيوتهم كذلك على الطراز الصيني ، وثيابهم لم يغير الكثيرون منهم طريقتهم في لباسها ، ومطاعمهم ،،، . وهذا معهود لدى الجاليات الشرقية والإفريقية وأمريكا اللاتينية.

كانت مدينة متوسطة بين المدن ، أكثر هدوءاً من نيويورك الصاخبة ، يغلب عليها الطابع الإيطالي ، فأهلها الأصليون من إيطاليا ، وفي منتصفها ساحة يتوسطها تمثال لإيطالي قاد الحرب ضد الإنجليز المستعمرين في ذلك الوقت . وإلى جانب هذه الساحة أقدم كنيسة

يسعى إليها السائحون، ليس فيها سوى آثار الماضي القريب . لكن أجمل ما في المدينة وأروعها:  
مبنى الأحياء السمكية المسمى

الكواريو: وهو مبنى ضخيم مؤلف من طبقات يتوسطه بركة مائية ضخمة مرتفعة بارتفاع البناء نفسه، فيه من الاسماك آلاف الأنواع صغيرها وكبيرها ، ما يخطر على بالك وما لا يخطر، ومن الحيوانات البرمائية كالذلافين والتماسيح والفقمة والبطريق ... وفي البناء نفسه أجنحة لأنواع الأسماك الصغيرة في أحواض ملونة تحوي أنواعاً عجيبة لا يمل الناظر إليها مسيحاً خالقها العظيم ، مردداً قوله تعالى " هو الله لا إله إلا هو " ... كان معرضاً رائعاً لا يدانيه في روعته معرض مائي في العالم .... لقد زرنا معرضاً مشابهاً في جنوا الإيطالية في العام ألفين وواحد وقد أعجبنا به أيما إعجاب ، ولكن حين رأينا معرض بوسطن وجدناه أعظم بما لا يقارن .... وكان يوماً حافلاً رائعاً أيضاً بنسائمه اللطيفة وهوائه العليل ، وقد دعينا إلى وجبة غداء في " يخت " تابع للفندق الذي نزلناه ، فما إن ركبناه حتى عدنا سريعاً فنزلنا واخترنا الغداء على حسابنا في مطعم مناسب . فالجو في المركب كان فاضحاً ، عري وخمور ورقص وتوابعها !!! لم نأسف على ضياع الدعوة لأننا ربنا السكينة والهدوء ورضاء الله تعالى - وهذا ظننا في الله سبحانه ، جل من إله يجب الطهر والعفاف ويدعو إليهما .

قضينا ليلة كاملة قبالة شاطئ نيوجيرسي على قارب حملنا داخل المحيط خمسين ميلاً نصطاد السمك ، أو يصطادونه ، فقد تخلّيت عن الصيد لدوار أصابني ساعات فنمت على كرسي اهتز بي دون انقطاع هزة المرتعد المشتاق رأى حبيبه بعد طويل فراق ، أو هزة الآبق الفرار أعيد لسيدته دون سابق إنذار! .. وتخلّيت عن الصيد لسبب آخر يفرض على الصياد أن يكون صابراً على صيده ، وهذه الصفة بعيدة عني فأنا أحب السمك المشوي والمقلي لا

السّمك الذي يجيئ ويروح يأكل الطعم من الصنارة دون أن يعلق فيها . وتنتظره على غير ميعاد فقد يأتيك ، وقد يأكل الطعم من صنارتك ويقع في حبال غيرك !... كان معنا الأخ الدكتور فهمي خير الله ، فاصطاد ثلاث سمكات ضخمة وهو الرجل النباتي الذي لا يعرف من الطعام سوى الخضار والفاكهة . وحملها إلى بيته وشواها ودعانا إلى مائدته ، وكان نصيبه السلطة والبطاطا فقط... كان القارب كبيراً اتسع مجموعة لا تقل عن الأربعين بين صغير وكبير، وكلهم منهمك في الصيد ، بعضهم نال سمكة وآخرون اثنتين وبعضهم ثلاثاً أو أربعاً وعاد أمثالي بخفي حنين ، على الرغم أن حيناً هذا لم يكن معنا في تلك الرحلة . لكن الدنيا أرزاق ، والرزق بالصبر والتأني واتساع الأخلاق .

ولعل تباعد الناس في أمريكا مكاناً وعملاً وانهماكهم في الحياة يدفع إلى تباعد في الشعور وانقطاع أو برود في العلاقات ، ولأن هذا يؤدي بهم - إذا طال الأمر واستفحل - إلى ما يخشونه فقد تنادوا إلى مواسم في الولايات يجتمعون عليها في مراكز ثقافية ، فيها محاضرات في الإسلام متنوّعة - من فقه وتربية ودعوة واقتصاد وسياسة واجتماع - يلقيها متخصصون من الجالية أو الضيوف القادمون من أوروبا أو المشرق أو المشهود لهم بالفضل من علماء الجاليات غير المسلمة . وقد يجتمع عشرات الآلف يغتزمون اللقاءات فيصلون ما انقطع ، أو ينشؤون علاقات جديدة ، ويوسعون دائرة التعارف ... وقد كنت مشغولاً في إحداها فلم يتسنّ لي المشاركة في نشاط " بنسلفانيا " ورغبت أم حسان في المشاركة برفقة بعض الصويجات ، فاستأذنت ... وكان اللقاء يومين ليس غير ... عدت إلى البيت وقد سافرت فرأيته موحشاً كئيباً فغاص قلبي في أحشائي وولدت هذه القصيدة:

كنت ألقاها إذا ما عدت للبيت

صباحاً أو مساءً

تملاً الأركان حبا وهناءً

تملاً النفس ضياءً وسناءً

تغمر الوجدان أنساً وبهاءً

كنت أدري أنها

في الروح يسري حبها

دون توائٍ ، ابتداءً وانتهاءً

بيد أني حين عدت اليوم للدار

رأيت الدار فقرا وخواءً

لم أجد فيها حياة

مثل قبر ، ينفر الأحياء منه

فانثنى قلبي جريحا ، وكئيبا

لم أجد إلفي ، ولم ألق حبيبا

غصة في القلب حارت

دمعة في العين ثارت

قلت أين الحب ، من كان طبيبا

لفؤادي ، حين يعي ، ودواءً

لم تغب إلا بإذني  
بعد أن أكّدتُ أنّي  
لا أرى في أن تغيب اليوم عني  
بله يومين إذا ما صح ظنيّ.  
ما الذي يجري؟ فكم قد غبت عنها  
لمّ متيّ ذا التحيّ؟!  
ليس هذا، غير أن الدار دون ال..  
زوجة المعطاء.. تبدو لي هباءً

أنّي التفتُ أرى اهتماماتٍ لها  
ترجو ارتياحي دون كلّ أو سهى  
تسعى لإرضائي ، وإن كلفها  
ما أرتضيه تعباً وبدلاً،  
ثم جهداً وعناءً.

فلها في القلب مأوى ،  
طوّل الله بقاها  
ثم في الجنّة مثوى.  
أحسن الله إليها، كل حين وهداها

وحباها الخيرَ ينمو.. ورضاءً

إنما الدنيا متاعٌ

خيره الزوجةُ، إن كانت رضيّة

بالذي قدّمه الزوج، والله تقيّة

تحفظ الأولاد والمال، وبالخير نديّة

هكذا قال رسول الله .. في الزوج الوفيّة

تعمر البيت حناناً، وحبوراً، ووفاءً

### العودة إلى عمان

لم يطب لي المقام في أمريكا ، فالغربة لإنسان عاش حياته حتى جاوز الخمسين في بلاد العرب والمسلمين تعشقت فيه عاداتهم وتأصلت فيه مفاهيم.. لن يستطيع بعد هذا العمر أن يتخلى عنها أو يضيف إليها ما يشوبها . ولعل الشباب أقدر على التأقلم مع المجتمعات الجديدة فهم في مقبل العمر وريعان الحياة ، كأس ما زالت فارغة تتسع للمزيد والمختلف.

اعتذرت للأحباب ، وجهزنا نفسينا ، ويمنا في الحادي والثلاثين من آب عام ألفين وثلاثة شطر الأردن ، وهل لنا بعد التسيار والتجوال سوى العودة إلى الملفى الحبيب وملتقى الأصدقاء والخلان ، لنصلها مساء الفاتح من أيلول ، فقد آن لابن بطوطة العصري أن يلقي الرحال ، وأن يقع بجرانه في أرض تعادل أرضه وبلاد تذكره بوطنه الذي منع عنه ، فبلاد الشام كلها بلادي ، ولئن منعت قسراً أن آوي إلى حلب الشهباء ، فالله تعالى حسبي ، وإليه لجوئي، وعليه اعتمادي ، فقد توفي الوالد رحمه الله تعالى في حلب واعتصر قلبي ألماً أنني بعيد

عنه، فرثيته ورثيت بعدي عن وطني

ماذا أقول وقد حُرمت وصالكم  
وبعدت عن لقياكمَ لما نأتُ  
وتأوهتُ نفسي وزاد تألمي  
فالظلم في أرضي يروح ويغتدي  
جاس اللئام بطهرها وروائها  
والناس في سجن رهيب محكم  
في غربتي ألقى الحياة مريرة  
في أنسهم أجد الصفاء وتنجلي  
وأحس أني بين أهلٍ خلّصٍ  
ومنعثُ قهراً من جناك الداني  
عن ناظريّ مرابع الأوطان  
أنُ لست أملك رؤية الخلان  
يئد الضياء وينتشي بالران  
لم يبق فيها موضع لأمان  
والحاكمون أحسّ من شيطان  
لولا الصديق وصالح الإخوان  
كربات دهري ، والهدى يلقاني  
في جمع حب محكم البنيان

ويبقى التعلق بالله تعالى والأمل برضاه ورحمته جنة المؤمنين، وأنس المتقين، وأمان الخائفين، جعلني الله وإياكم من أهل طاعته.....

عثمان قدرني مكانسي







## الفهرس العام

٣	بين يدي الكتاب .....
٥	❖ رحلة إلى الجزائر ( ١ ) .....
١٥	❖ رحلة إلى الجزائر ( ٢ ) .....
٢٩	❖ رحلة إلى الجزائر ( ٣ ) .....
٤٧	❖ رحلة إلى الجزائر ( ٤ ) .....
٥٩	❖ الأردن ( ١ ) .....
٧٥	❖ الأردن ( ٢ ) .....
٨٦	❖ الإمارات ( ١ ) .....
٩٩	❖ الإمارات ( ٢ ) .....
١١٠	❖ الحج الأول .....
١٢٠	❖ الرحلة إلى الحج والرحلة إلى اليوم الآخر .....
١٢٥	❖ رحلة إلى الحرمين الشريفين .....
١٣٨	❖ سمعت ورأيت ( ١ ) .....
١٤٣	❖ سمعت ورأيت ( ٢ ) .....
١٤٨	❖ الباكستان ( ١ ) .....
١٥٩	❖ الباكستان ( ٢ ) .....
١٧٤	❖ تركيا ( ١ ) .....
١٨٣	❖ تركيا ( ٢ ) .....
١٩٣	❖ اليمن ( ١ ) .....
٢٠٢	❖ اليمن ( ٢ ) .....
٢٠٥	❖ اليمن ( ٣ ) .....
٢٠٨	❖ بريطانيا ( ١ ) .....

٢٢٣	.....	❖ بريطانيا ( ٢ )
٢٣٣	.....	❖ آذربيجان
٢٤٧	.....	❖ إيطاليا ( ١ )
٢٦٦	.....	❖ إيطاليا ( ٢ )
٢٨١	.....	❖ إيطاليا ( ٣ )
٢٩٦	.....	❖ إيطاليا ( ٤ )
٣٠٨	.....	❖ أمريكا ( ١ )
٣٢٣	.....	❖ أمريكا ( ٢ )
٣٣٧	.....	❖ الفهرس العام

